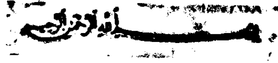
ليس كتاباً عن التعليم بل عن الدعوة

المدرسة الإسلامية

على طريق الله ومنهج القرآن

أنور الجندي

دار الاعتصام



مدخل الى البحث

طلائع اليقظة الإسلامية

تتمثل طلائع اليقظة الإسلامية فى الجهود التى بذلها المفكرون المسلمون الذين تأثروا بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التى تحرر العقيدة من الجمود والتعليق وقد بدأ ذلك واضحا فى المرحلة التى ظهرت فيها السنوسية فى ليبيا والمهدية فى السودان ، ودعوة أحمد بن عرفان فى الهند ، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وهى مرحلة حافلة بتباشير اليقظة . هذه المرحلة التى ظهرت فيها الصحافة الإسلامية اليومية (المؤيد ـ على يوسف) واللواء والعلم (مصطفى كامل ـ محمد فريد ـ عبد العزيز جاويش) طاهر الجزائرى ، القاسمى ، البيطار فى سوريا ، الطاهر بن عاشور فى تونس ، الألوسى فى العراق ، رفيق العظم ، شكيب أرسلان ، توفيق البكرى ، أحمد شفيق ، أحمد كمال باشا ، أحمد الشريف السنوسى ، مصطفى الغلاتينى ، أحمد زكى باشا ، أحمد تيمور باشا ، مجدين العربى العلوى (فاس) رشيد رضا ، فريد وجدى ، عمر لطفى ، حفنى ناصف ، البارودى ، شوقى ، حافظ إبراهيم ، عبد المطلب ، كرد على ، البرقوقى ، أمين الرافعى .

(وذلك على النحو الذى فصلناه فى كتاب اليقظة الإسلامية فى مواجهة الإستعمار) .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى وتآمر الغرب على دولة الخلافة الإسلامية فمزقت وعلى الخلافة الإسلامية فأسقطت إلى حين ، وتكشفت خطوط المؤامرة

الضخمة على العالم الإسلامي بإعلان تقسيم البلاد العربية وصدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي اليهود في فلسطين وكان ذلك إرهاصاً كبرى لابد أن تنكشف معها هذه الصيحة المعلنة بتحرير العقيدة ومقاومة الغاصب التي أعلنها هؤلاء الرواد ، عن عمل كبير : هذا العمل الذي ظهر فعلا في هذه الفترة هو قيام :

(المدرسة الاسلاميه)

تمثلت هذه المدرسة في صيحة رضية كريمة لإيقاظ القلوب إلى العمل فقد كانت حركة اليقظة حتى الآن جهداً فكرياً مبذولا لكشف أخطار التحديات التي تواجه الوطن الاسلامي ومحاولة لتحطيم مؤامرة النفوذ الأجنبي التي كانت تعمل على تطويق العالم الإسلامي عسكرياً وسياسياً .

وكانت في نفس الوقت تعمل على « تغريبه » وإخراجه من إسـلاميته وعروبته وتفريغ عقول أبنائه في المعاهد والمدارس والجامعات من العقيدة الاسلامية الصحيحة ، وإرساء مفهوم الإسلام يقوم على أساس لاهوتي ، وهو إسلام المساجد والصلاة والمولد النبوي الشريف .

ومن هنا كانت هذه الصيحة السارية في رفق والتي اتسع نطاقها من بعد حتى شملت الآفاق إلى بناء جيل جديد يؤمن بالاسلام : ديناً ودولة ، عبادة وقيادة ، مصحف وسيف ، وتهدف إلى تصحيح المقولة الزائفة الذاهبة إلى أن الاسلام دين عبادة إلى الكلمة الحقة الصحيحة وهو أنه منهج حياة ونظام مجتمع .

صاحب هذه الصيحة وحامل لواء هذه الدعوة وقائد هذه المدرسة الاسلامية هو الإمام الشهيد حسن البنا .

ومنذ اليوم الذي أخذ يكتب مقالاته في جريدة الفتح « الدعوة إلى الله » وقد بدأ تاريخ جديد يتمثل في جميع الروافد التي صحبت الدعوة ، وخاصة في

مجال الصحافة والتأليف على نحو ظل ينمو ويعظم ويتزايد حتى اتسع نطاقه وعالج جميع قضايا المجتمع من سياسية واقتصادية وتربوية وأخلاقية ونفسية .

* * *

ولد الإمام الشهيد حسن البنا فى نفس العام الذى توفى فيه الشيخ محمد عبده (١٣٢٤هـ ١٩٠٥م) وشهد فى مطالع حياته مظاهر اليقظة الاسلامية التى كانت دعوة التوحيد بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد بدأتها فى الجزيرة العربية ونماها المصلحون والعلماء فى سبيل تحرير العقيدة الاسلامية من الجمود والجبرية فى جاوة والهند ومصر والشام ، وكانت (مجلة المنار) التى يصدرها الشيخ رشيد رضا نبراساً على حركة الاصلاح التى قادها جمال الدين ومحمد عبده حيث انتشرت الدعوة السلفية إلى تونس والجزائر والمغرب ، واتسع نطاقها فى كل مكان وأصبحت تنتظر إماما يدفع مسيرتها للأمام ويصحح خطواتها ويحررها من العقبات التى بدأت تتجمع فى طريقها . كان المجتمع الاسلامى ينقصه أمران هامان :

أولا : الالتقاء بين الطائفتين المختلفتين : أهل العقيدة وأهل التصوف .

ثانياً : بروز الدعاة إلى الاسلام الاجتماعى وتجلية الشريعة وإعداد جيل من الشباب المثقف يؤمن بالاسلام : « منهج حياة ونظام مجتمع » هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد مرت البلاد بدورين فى مقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبى :

الدور الأول : هو الدور الوطنى الذى قاده مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وأمين الرافعى ، وهى دعوة « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » قبل الحرب العالمية الأولى .

الدور الثانى : هو الدور السياسى الذى قادته الأحزاب السياسية والذى قام على مفاهيم الالتقاء مع الإنجليز فى منتصف الطريق .

وكانت الحياة السياسية الحزبية قد تدهورت فى الثلاثينات ، ولم تلبث أن وقعت أضخم مأساة فى تاريخ الاسلام فى العصر الحديث وهى سقوط الدولة

العثمانية وقيام دولة أتاتورك العلمانية التى لم تلبث أن أسقطت الخلافة فتمزق العالم الاسلامى إلى دول وأقاليم دفعها الاسلام إلى إحياء تاريخها القديم السابق للإسلام فظهرت الفرعونية والفينيقية وغيرها واستأسد النفوذ الاستعمارى فبدأت عمليات التبشير تجرى على نطاق واسع داخل الجامعات والمؤسسات العلمية الأجنبية ومعاهد الارساليات .

كل هذا هز وجدان (الأستاذ حسن البنا) هزاً شديداً ودفعه إلى العمل وكانت جمعية الشبان المسلمين قد ولدت وتشكلت لتقاوم هذه التحديات وقامت بعدها جمعية مصر الفتاة .

ولكن كل هذا كان دون مستوى الأحداث التى كانت تتطالب مواجهة حاسمة فى مختلف الميادين وهكذا كان حسن البنا بإنشائه الاخوان المسلمين هو : الثمرة الحقيقية لهذا الخطر الزاحف .

وقد استطاع هذا الرجل أن يحقق عدداً من الأعمال فى مجال الدعوة الاسلامية كانت بمثابة الركائز الأساسية للبناء والأعمدة الكبرى للصحوة الاسلامية التى نشاهدها اليوم .

وكان أبرز ذلك كله أطروحته الخالدة : (الاسلام دين ودولة، عبادة، وقيادة مصحف وسيف) وبذلك أمكن تحقيق اللقاء بين عناصر الاسلام الثلاث : فى نفوس الأجيال الجديدة :

(١) العقيدة (التوحيد) وكانت له جماعات مستقلة (الجمعية الشرعية وأنصار السنة) .

(٢) الشريعة الاسلامية .

(٣) الأخلاق وهى التربية وتزكية النفس (وكانت لها جماعات الطرق الصوفية).

وبذلك توحدت دعوة الاسلام فى جيل جديد من المؤمنين بأمتهم ووطنهم

الفاقهين لدينهم القادرين على كشف الشبهات ودحضها وبناء المنهج الاسلامى عمليا وهم الذين حملوا السلاح فى حرب ٤٨ وفى معارك القناة ١٩٥٢ بشجاعة مذهلة وإيمان بالاستشهاد فى سبيل الله .

وقد أقامت الدعوة مرة أخرى على غرار الدعوة الأولى تدعو إلى مفهوم الاسلام النقى ، وتجمع الناس حوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

ثم تحدثهم عن التاريخ الشامخ : تاريخ البطولة وبناء الحضارة الاسلامية ، ثم تدعوهم إلى إحياء الوحدة الاسـلامية التى عمل الاستعمار على تفريق جمعها بالاقليميات والقوميات وإحياء التاريخ الوثنى القديم ، والدعوة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية وجلاء مظاهر عظمتها وتقديم شهادات خبراء القانون العالميين لها ، والدعوة إلى منهج تربوى إسلامى سابق ومرافق للتعليم ، وإقامة الاقتصاد الاسـلامى ببناء مؤسسات غير تربوية ، وكان أول من أطلق إسم (المعاملات الاسلامية) على منشآت إقتصادية وتجارية فضلا عن إنشاء المستشفيات والمستوصفات .

ويمكن تلخيص شخصية الامام حسن البنا فى عشر عناصر أساسية :

أولا : منهج الدعوة الجديد المستغرب فى ظاهره والذى لاينتظر الناس حتى يأتون إلى المساجد أو دور الجمعيات بل يذهب إلى الناس فى مقاهيهم ونواديهم فيحدثهم ويهز مشاعرهم ويوقظهم من غفلاتهم . هذا فى المدن . أما فى القرى فتلك جولات واسعة فى أربعة آلاف قرية من أسوان إلى الاسكندرية يتحدث فيها إلى الناس فى المساجد فإذا مضى اليوم وضع عباءته على جسمه ونام فى زاوية من المسجد حتى الصباح وطعامه لقيمات قليلة ، فإذا أصبح الصباح انتقل إلى بلد آخر حتى يفتح الله له وبه قلوب المسلمين .

وقد عمد الى ذلك سنوات طوالا دون كلل أو ملل أو ضيق فى أيام الصيف

شديدة القيظ تكون رحلته الى قنا وأسوان لا يبغى من ذلك إلا وجه الله خالصا.

ثانياً : تقديم الاســلام فى يسر وبساطة بعيداً عن اختلافات المذاهب ، وتعقيدات المتأولين والتماس مفاهيم الاسلام الأصيلة قبل وقوع الخلاف والابتعاد عن تفسيرات الكلام والاعتزال والفلسفة وغيرها وجمع الناس على كلمة الحق ، وتوجيه أنظارهم الى الأخطار التى تحيط بالعالم الاسلامى وبالمسلمين .

ثالثاً : توجيه كل مسلم إلى عمل يقوم به فى خدمة الدعوة الاسلامية على قدر مقدرته وفى حدود تخصصه واختيار الشباب القادر على صياغة المفاهيم الاسلامية فى القانون والاقتصاد والتجارة والتربية والاجتماع وفق أسلوب عصرى وهى أولى الخطوات للكشف عن عظمة الشريعة الاسـلامية وتميزها عن القانون الوضعى وبناء (المعاملات الاسلامية) عملياً بإنشاء المؤسسات التى تقوم وفق مفهوم الاسلام .

رابعاً : القدرة على إقناع المثقفين بالأخطار التى تواجه البلاد الاسلامية من التبعية الفكرية وذلك بالعودة إلى المنابع وإعلاء شأن الوحدة الاسلامية ، على الاقليميات الوطنية والعروبة والاسلام ورعاية أهل الكتاب وحماية عباداتهم ورعاية اخوتهم وكيانهم .

خامساً : الأخذ بالتدرج والمراحل والاســتفادة من متغيرات الزمن والعصر والبعد عن مطامع الحكم ودعوة القادة إلى العمل بالاسلام ومؤازرتهم فى سبيل إصـلاح المجتمع والدعوة إلى خلق المسئولية الأخلاقية فى العمل الاجتماعى وتحريم الطمع والجشع ، وحماية مقدرات الأمة بالابتعاد عن الحرام والترف والاسراف .

سادساً : البدء من نقطة الواقع وتحويله شيئا فشيئا إلى تحرير المجتمع الاسلامى

من التبعية للنفوذ الأجنبي فى مجال الاقتصاد أو الإجتماع أو التربية والعودة إلى المنابع .

سابعا : عدم مهاجمة القوى المعارضة ومحاولة كسبها ، وإقرار قاعدة كريمة: نتفق فيما نلتقى عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه والإيمان بأن الخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية .

ثامناً : اصطناع أسلوب الإسلام الكريم فى كل نقاش ومساجلة والبعد عن الجدل والعبارات غير المقبولة ، والارتفاع فوق النقائص والصغائر والسخرية والهجاء والحفاظ على حد معين من فتح الطريق أمام الالتقاء فيما بعد .

تاسعاً : إقامة المجتمع الإسلامى فى بيوت أنصاره والتماس عادات الإسلام فى الزواج والوفاة والتعامل الفردى والاجتماعى وسعى كل مسلم إلى أسلمة أسرته وأهله وأولاده والانتفاع بأسلوب تعامل الرسول ﷺ مع أصحابه .

وقد تابع الأستاذ حسن البنا سيرة النبى ﷺ فى إقناع الناس واختيار أصحابه والتعامل معهم وبناء المجتمع الاسلامى من خلالهم . فأحب أبنائهم وسماهم ودعا لهم وعاود السؤال عنهم كلما ألم بقراهم وساعدته طبيعة مرنة وذاكرة حية على حفظ الأسماء ومتابعة قضايا الأسر كلها سواء فيما يتعلق بأمور الحياة أو بالمدارس التى يدخلونها أو بالأعمال التى يلونها .

عاشراً : مناداة الوجدان المسلم ، واستثارة الفطرة والأشواق الروحية فى أحاديثه الخاصة والعامة فكان بذلك يكسب أكثر الناس خصومة للإسلام أو المختلفين معه .

حادى عشر : الاستعلاء عن المطامع المادية وبناء أنصاره على هذا المفهوم فيكون العمل كله خالصا لله تبارك وتعالى ، محتسبا المشاق والمتاعب عند الله فى سبيل حماية كلمة الله وإعلائها فى عصر غلبت فيه الماديات .

الفصل الأول

المدرسة الاسلامية

(حسن البنا)

يقول فى تصوير منهجه الاسلامى : رأى قوم أن يصلحوا أخلاق الأمة عن طريق العلم والنظافة ، ورأى آخرون أن يصلحوه عن طريق الأدب والفن ، ورأى غيرهم أن يكون هذا عن طريق السياسة ، وغير هؤلاء عن طريق الرياضة .

وأفضل الوسائل فى إصلاح النفوس (نفوس الأمم) هو الدين .

والدين الاسلامى جمع محاسن كل هذه الوسائل وبعد عن مساوئها . إن الاصلاح الحق لايقوم إلا على : تطهير النفوس وتجديد الأرواح .

يقول الشيخ طنطاوى جوهرى : « إن حسن البنا فى نظرى أعظم من الأفغانى ومحمد عبده ،إنه مزاج غريب من التقوى والدهاء السياسى .إنه قلب على وعقل معاوية » .

هذا الرجل القرآنى : دعوة . مدرسة . حركة .

لقد وضع دعائم حركة الاستنارة الفكرية بجانب النشاط البشرى ، ودعا إلى النظر إليهما باعتبارهما عملا واحداً ، واستقر ذلك فى عواطف الكثيرين

وكانت حركة الاستنارة موجهة بالضرورة ضد كل ما أفرزته حركة التبشير والاستشراق والغزو الثقافى .

ولسائل أن يسأل : المدرسة الاسلامية القرآنية التى أقام دعائمها حسن البنا ممن استقى منهجها : ما هى المفاهيم التى جمعت حولها القلوب ؟

هما كلمتان : الاسلام دين ودولة ، القرآن مصدر التشريع ، لا نهضة للمسلمين إلا بالتماس منهجهم القرآنى .

لقد كانت الدعوة الى الأسلوب الاسلامى فى مواجهة الغزو الفكرى قديم ، يتضح ذلك فى كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحمد على السنوسى ، والمهدى ، ويبرز فى مواجهة النفوذ الغربى واضحاً فى كتابات جمال الدين ومحمد عبده .

الرد على الدهريين

الاسلام والقرآن مع العلم والمدنية

ولكن إنشاء المدرسة الاسلامية لتقف فى مواجهة المدرسة الغربية وتكشف زيفها وترد على شبهاتها وسمومها ، بدأها حسن البنا وقد استفاد من تجربة السابقين ومضى على طريقهم وحول الفكر إلى بناء وتربية وانشاء جيلى .

كانت على لسانه كلمات المصلحين السابقين وكان قد استوعب كل ما كتبه المصلحون وخاصة ما كتبه رشيد رضا ، وجاء ليبدأ نقطة البداية فى مجال القانون والشريعة الاسلامية ، يبدأ عبد القادر عودة ، توفيق الشاوى ، على على منصور فى مجال الاقتصاد يبدأ محمود أبو السعود ، عيسى عبده .

فى مجال الفقه وفقه الدعوة : سيد سابق ، محمد الغزالى .

ثم اتسع نطاق المدرسة فظهر محمد المبارك وعمر الاميرى ومعروف الدواليبى ومصطفى الزرقا ومحمد محمود الصواف فى البلاد العربية ثم جاء فى مجال العسكرية الاسلامية عبد الله التل وشيت خطاب وجمال الدين محفوظ ، ليس بالضرورة من الاخوان ولكن مجال المدرسة الاسلامية اتسع بحيث شمل الدعوة الإسلامية كلها .

لقد استفاد حسن البنا من كل ما كان موجوداً فى المجتمع من تيارات وجماعات واتجاهات وخيوط تمثل اتجاهاً إســـلامياً واستطاع أن ينتقى ويجمع ويصنع حتى شكل شيئاً جديداً مختلفاً عن الواقع ، ولكنه خطوة متقدمة عليه ، وفى نفس الوقت عرف شيئاً أهم من هذا كله ، هو أن يلتمس نفس الطريق الذى سار عليه محمد رسول الله ﷺ ، وقد صاغها وفق مفاهيم شكلها وكونها واستمدها من صميم روح الاسلام ومفهوم أهل السنة والجماعة . حاول بها أن يحطم القيود التى كانت تعوق الجماعات الاســـلامية وتعزلها وأن يصفى هذه الخلافات وأن تفتح صفحة جديدة للقاء بين كل الدعاة الى الله تحت راية لا إله إلا الله وبدأ من نقطة البدأ فأنشأ ذلك التجمع الاسلامى القائم على السماحة والبساطة والخلق . بعيداً عن كل أسباب النزاع أو الخلاف أو كل مايوقع الشقاء وظل ينمى هذا البناء ويقوم عليه يوماً بعد يوم حتى استقام بعد سنوات فى صورة جماعة مؤمنة ، لا مطمع لها إلا مرضاة الله تبارك وتعالى ، وكان طريقه هو إثارة الايمان فى القلوب أولا وبناء النفوس بالتربية وامتثال القدوة فى رسول الله ﷺ متى كان يأخذ ويدع فى مختلف أمور الحياة مع الاغضاء عن الهفوات والتقريب من القلوب والأرواح والبذل والتضحية والمسالمة وضرب الأمثال ؛ وهو نفسه المثل الجديد الذى يبهر النفوس بتصرفه وعمله ، وكان فى هذا المثل قريباً من البساطة واليسر بعيداً عن التعقيد ، تلك الصلاة الخفيفة ، التى لا تطول وتلك القدرة على مواجهة الأمور باليسر ، لقد كانت تجربته مع الطرق الصوفية ومع أنصار السنة ومع جماعات الأزهر والمنار وجمعية الشبان المسلمين والجماعات الأخرى ، قد أعطته الخبرة الواسعة لأقصر الطرق لغرس الود والصفاء .

وكل هذا قد بلور له مفهومه الذى هو نموذج فريد جديد قوامه كلمة واحدة : الإسلام عبادة وقيادة، ومصحف وسيف ، دين ودولة ، وأن تقوم الحكومة على شريعة الله وأن الدستور المصرى قريب جداً من تحقيق هذا الغرض ، وأن

يكون وأعوانه من وراء كل من يسير على هذا الطريق ، ليسوا طلاب مغنم أو مطمع أو جاه أو حكم ولكن سناد لكلمة الله .

كانت المادة العلمية والإنشائية والتاريخية لتقديم الإسلام بمفهومه الأصيل موجودة أمامه ، وقد سبق الكثيرون إلى تقديمها ولكنه صاغها من جديد في إطار العلم والتربية والجهاد ، وهى أركان الدعوة الإسلامية الجامعة ، وكان أبرز عوامل كسبها للتجمعات المختلفة ، البعد عن مواطن الخلاف ، وعن هيمنة الأعيان والكبراء والعناية بالتكوين والتدرج فى الخطوات .

وكان من أبرز الوسائل التى لم يسبق إليها هى خطاب ود الناس أينما كانوا ، يزور البلاد والقرى فيحل مشاكل الخلاف ، ويدعو الناس إلى مفهوم الإسلام الصحيح ، أربعة آلاف قرية دخلها دون أن يدعوه أحد إليها ، يقول كلمة خالصة لوجه الله :

إن أعظم ما أعطى الله تبارك وتعالى حسن البنا القدرة على إنشاء جيل جديد من نقطة البدء . ظل يعمل عشرين عاماً على بنائه مع قدرة عجيبة على ضبط النفس ، وعلى حكمة القول ، وعلى البعد عن الصدام حتى يقوم البناء .

(٢)

يقول الأستاذ جمال عطية : لقد كان الإمام حسن البنا أحد أئمة النهضة الإسلامية المعاصرة ، واعياً كل الوعى لأهمية « الفهم » فى الحركة الإسلامية ولضرورة بلورة هذا الفهم وتوضيح أصوله ومظاهره ، لدرجة أنه أوجز أصول فهم الإسلام فى عشرين نقطة ، كان إخوانه يحفظونها عن ظهر قلب ويتدارسونها ويشرحونها ترسيخاً وتوضيحاً ، أقصد بذلك الأصول العشرين من ركن الفهم فى رسالة التعاليم الإمام حسن البنا .

أول هذه الأصول أن الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، ولا شك أن هذا الفهم كان ثورة تجديدية فى عصره بالنسبة إلى الفهم السائد حينذاك من أن الإسلام قاصر على العقيدة والعبادة ، وإن تعداهما فإلى دائرة الأحوال الشخصية لا غير .

وثانى هـذه الأصول : أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هى مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام .

وكانت إحدى أهم الآثار الفكرية التى جاءت بها الحركة الإسلامية المعاصرة هى الانتقال بالمسلمين من عصر التقليد إلى طريق الاجتهاد ، لذلك جاء الأصل السابع موضحاً أن لكل مسلم يبلغ درجة النظر فى الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ويحسن به مع هذاالاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة إمامه وبهذا التوضيح لواجب المسلمين فى الانتقال من مرتبة إلى مرتبة اتسمت الحركة الإسلامية المعاصرة بحركة التجديد التى وضعتها فى طريق البعث الإسلامى .

ولم يقف الأمر عند هذا بل تعداه إلى معالجة أصول الخلاف بين مذاهب السنة ومذاهب الشيعة ، ولذلك نجد تأصيلا لبعض وسائل هذا العلاج فى الأصول فكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ، والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً لتفرقة فى الدين ولا يؤدى إلى خصومة أو بغضاء ، وفى مجال المواجهة بين الدين والعلم أوضح أن الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر فى الكون وأن كلا من النظر العقلى والنظر الشرعى قد تناول ما لا يدخل فى دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا فى القطعى .

وبذلك انفتح عهد جديد من اتساع أفق المتدينين للعلوم العصرية ومن إقبال المتعلمين للعلوم العصرية على الدين ، وأصبحت ظاهرة (الأفندى) الذى يصلى ويتحدث فى الدين ، وظاهرة الشيخ الذى يتحدث فى الاقتصاد وعلوم الذرة والفضاء أمراً مألوفا بعد أن كانت القطيعة تامة والحرب على أشدها بين الطائفتين . . .

(٣)

كان أبرز ما تتميز به الفكرة الإسلامية كما فهمها حسن البنا ودعا إليها : الوضوح والأصالة والاستمداد من المنابع ، وتكامل مفهوم أهل السنة والجماعة فى العقيدة ، فهو يقدم الإسلام بعيداً عن الفلسفات والكلام . يقول سبيلنا إلى

التعرف إلى ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ليس علم أصول الكلام فى نزوعه إلى الفلسفة والاصطلاحات العقلية المعقدة التى تشتت الذهن وتفرق القلب، ولا ذوق أصحاب الوجد فى انقطاعه عن منهج العلم، وإنما سبيلنا هو العلم الصحيح الثابت فى الكتاب والسنة الموصل إلى العمل الذى تتحرك به الجوارح فنفعله بوجدان قلب علم من ذات (الله) ربه وصفاته ما حركه بالخشية والرهبة والحب وكمال الخضوع والذل .

عندما بدأت حركة اليقظة التى حاولت أن تواجه (جبرية الصوفية) إلتمست المنطق وعلم الكلام والفلسفة وقلدت المعتزلة فى الصدر الأول فجنح بهم ذلك عن مفهوم الإسلام الأصيل وأدخل عليهم كثيراً من التأويلات فكان هذا الموقف المنحرف من المعجزات ومن النبوة .

ثم برزت المدرسة القرآنية القائمة على التربية وبناء الفرد المسلم على أساس التوحيد الخالص ومفهوم الإسلام الأصيل فكانت أكثر عمقا وأصالة،وقد حمل لواءها دعاة أبرار إلتمسوا منهج الفكر وأسلوب الرد والجدل من القرآن نفسه ، وقالوا : إن القرآن هو الأصل الأصيل للفكر الإسلامى لأنه يستطيع أن يقدم الإجابة الجامعة ويدحض الشبهة الزائفة .

بذلك برز مفهوم الأصالة الذى يعتمد على التحرر الكامل من تفسيرات الفكر الغربى على النحو الذى عرفه ، وتعلق به الذين ترجموا عن المستشرقين أو قرأوا لهم فأخطأوا فى كثير من المفاهيم الأساسية ، ومنهم من أخطأ فى مفهوم التوحيد ومنهم من أخطأ فى مفهوم البطولة ، ولم يعرف التفرقة الدقيقة بين النبوة والعبقرية ، ومنهم من قال إن دعوة محمد ﷺ كانت إستجابة لظروف تاريخية معينة ، كان يحياها العالم فى القرن السابع ، ومنهم من تأثر بالتفسيرات المسيحية ظنا منه أنها حقائق دينية .

ولكن النظرة الإسلامية الأصيلة المستمدة من القرآن والتى حمل لواءها حسن البنا إستطاعت أن تدحض هذا الإتجاه بالرغم من إعترافها له بأنه حاول

أن يقدم شيئا يخرج الناس من غمرة الفكر المادى التى حاول فرضها التغريب والفكر الوافد .

ومعنى هذا أن الأستاذ البنا بدعوته قد بدأ مرحلة جديدة فى الفكر الإسلامى هى (المرحلة القرآنية) التى كانت أكثر أصالة فقد تحررت من التفسيرات المشوبة بالفكر الغربى (مسيحيا كان أم وثنيا) .

لقد كان إلتماس التفسير القرآنى بمثابة الوصول إلى « السنة الجامعة » بديلا عن التفرق حول تفسيرات المعتزلة أو المتصوفة أو الفلاسفة ، فالسنة الجامعة هى البوتقة الناصعة التى إنصهرت فيها كل الثقافات والملل والدعوات التى طرحت فى ذلك الفكر الإسلامى ، فاستصفتها السنة وحررتها من شبهاتها وأخذت عصارتها الطيبة فضمتها إلى كيانها ، فالسنة الجامعة هى النهر الكبير ، والمذاهب والفرق روافد ، وقد إلتقت السنة بالكلام كما التقت بالتصوف ، والتشيع ، وصهرت خير ما فى ذلك كله فى مضمونها الجامع الأصيل الذى يستمد حقيقة وجوده من الفهم النبوى للقرآن الكريم .

ولقد كانت « العودة إلى المنابع » هى صيحة المسلمين فى كل أزمة وكلما ادلهمت الأحداث وأحاطت بهم ظلمات التغريب وكانت دعوة الأئمة : الشافعى الغزالى وابن حنبل وابن حزم وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب ، وهى اليوم عماد حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة فلقد رفض الإسلام « التطور » على حساب الأصالة ورفض التقدم على حساب التوهين من شأن الجذور والقيم الإسمية كما رفض تضحية القيم العليا فى سبيل التقدم المادى ، ومن هنا نجد أن الأستاذ حسن البنا :

(١) دعا إلى مفهوم الإسلام الأصيل الجامع : مفهوم أهل السنة والجماعة وحرر المفاهيم الإسلامية من الكلام والفلسفة والاعتزال .

(٢) إنه دعا إلى وحدة الفكرة الإسلامية باكتمال العناصر فى طريق واحد

دعاة التوحيد ودعاة التصوف (الأخلاق والتربية) ، ودعاة تطبيق الشريعة الإسلامية .

(٣) إن دعوته إلى أن الاسلام دين ودولة وأنه نظام مجتمع ومنهج حياة قد فتحت الباب واسعاً أمام منطلق جديد للعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية بحيث أصبح مطلوبا أن تقدم حقيقة الاسلام ورأيه في مختلف شئون الحياة والمجتمع والحضارة والفكر .

وأنه فى الوقت الذى كانت المدرسه الغربية قد فرضت نفسها على جميع وجوه النشاطات الاجتماعية والسياسية ، انفتح من جديد هذا الباب الواسع الذى انطلق منه عشرات الدعاة والمفكرين الذين قدموا خلال خمسين سنة مفاهيم الإسلام من جديد فى ميادين الاجتماع والنفس والأخلاق والاقتصاد والسياسة والتربية لتعلن أن الاسلام ليس دين عبادة ولكنه دين يشمل منهجاً كاملا للحياة والمجتمع والحضارة له تجربة ومفاهيم فى مختلف الميادين وهذا الأثر الكبير والخطير لدعوة الإخوان المسلمين التى حمل لواءها الإمام الشهيد حسن البنا

(٣)

حسن البنا : رجل الدعوة صاحب الابتسامه الحانيه والنظرة المشرقه ، (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)

جمع من حوله هذه النماذج الكريمه ، لقد تابع الأستاذ حسن البنا سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى إقناع الناس واختيار الصحابة والتعامل معهم ، وبناء المجتمع الإسلامى من خلالهم: هذه الحياة الرائعه التى لفتت أنظار الباحثين إلى شخصية حسن البنا :

لفت النظر إليه سمته البسيط ومظهره العادى وثقته التى لا حد لها بالله

وإيمانه العميق بقدرته ، وقد أفلت من غوائل المرأة والمادة والجاه ، وهى المغريات الثلاث التى سلطها المستعمر على المجاهدين وقد فشلت كل المحاولات التى بذلت فى سبيل إغرائه أو احتوائه أو تهديده ، وقد أعانته على ذلك صوفيته الصادقه وزهده الطبيعى ، فقد تزوج مبكراً وعاش فقيراً وجعل جاهه فى ثقة أولئك الذين التفوا حوله وأمضى حياته القصيرة العريضه مجانباً لميادين الشهرة الكاذبة وأسباب الترف الرخيص وكان يترقب الأحداث فى صبر ، ويلقاها فى هدوء ، ويعرض لها فى اطمئنان ويواجهها فى جرأة ، وكان عجيباً فى معاملة خصومه وأنصاره على السواء ، كان لا يهاجم خصومه ولا يصارعهم بقدر ما يحاول إقناعهم وكسبهم إلى صفه، وكان يؤمن بالخصومه الفكرية ولايحولها إلى خصومه شخصية ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من إيذاء معاصريه ومنافسيه ، فقد أعلنت عليه الأحزاب حرباً عنيفة ، وكان الرجل يقتفى خطوات عمر وعلى

ومن الأمور التى تلفت النظر أنه أخذ من عمر خصلة من أبرز خصاله تلك هى إبعاد الأهل عن مغانم الدعوة .

ولقد كان حسن البنا الداعى الأول فى الشرق الذى قدم للناس برنامجاً مدروساً كاملا ، لم يفعل ذلك أحد قبله ومضت حياته تطبيقاً صادقاً للمبادىء الذى نادى بها ، ولقد منحه الاسلام كما كان يفهمه هالة متألقه قوية الأثر فى النفس لم تتح لزعماء السياسة ولا لعلماء الدين فهو لم يكن من الذين يشترون النجاح بثمن بخس، ولم يجعل الواسطه مبررة للغاية أبداً ، كما يفعل رجال السياسه ولذلك كان طريقه مليئاً بالأشواك وكانت آية متاعبه أن يعمل فى مجرى تراكمت فيه الجنادل والصخور ، وكان هذا مما يدعوه إلى أن يدفع أتباعه إلى التسامى ويدفعهم إلى التغلب على مغريات عصرهم والاستعلاء على الشهوات ترتطم بسفن النجاة فتحول دون الوصول إلى شاطىء الأمان

وكان يعرف كيف يتعامل مع الزمن يغالب نواميسه ومتغيراته بذكاء

وحكمة ليستطيع تغيير الأعراف التى أفسدها النفوذ الغربى والحضارة الغربية عائداً إلى المنابع ، وإلى الأصالة ، وإلى منهج القرآن بأصحابه وأتباعه ، داعيا إلى الثبات (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) مستعينين بالصبر والإيمان والثقه بنصر الله الذى لا يتخلف ولقد كشف لأتباعه وأصحابه مدى الخطر الذى يتهددهم باعلان كلمة الله ، وتآمر القوى الحاقدة كلها عليهم ومما تحقق بعد ذلك على نحو واضح وتعدد أكثر من مرة .

وكان يرى أن الطريق هو طريق النبي : بالحكمة والموعظة الحسنة وتربية وبناء الأجيال . القادرة على حمل أمانة الدعوة ، والصبر على ذلك مهما طال الطريق دون ضيق أو قلق أو تعجل ، ومع المحافظة على أسلوب الإسلام فى الحوار والعمل ، وعدم الإساءة أو كشف العورات أو التغلب باللفظ القاسى أو استعمال الهجاء أو الإمعان فى الخصومة . إيماناً بأن هذا يفتح الطريق أمام المعاند والخصم ليعود إلى الحق فان الحق قديم ، وأن الفطرة إذا أشرق عليها نور الله عادت إلى الحق ، ومن أجل ذلك رفض المساومة وألغى من برنامجه أنصاف الحلول وداوم فى إلحاح القول بأنه لا تجربة فى الحق المقدس .

وكان يؤمن بالإصلاح يبدأ من نقطة الواقع فى يسر ، ويفهم الأشياء على حقيقتها مجردة من الأوهام ، وكان يبدو حين تلقاه هادئا غاية الهدوء وفى قلبه كل الهموم والأزمات والمشاق .

يتحرق شوقا إلى تحرر الوطن الإسلامى ، يمتلأ غيرة على حدود الله ، ولم يكن يصرف طاقته فى مصارف الكلام أو الضجيج ، وإنما يوجه تلك الطاقة القوية إلى العمل والإنشاء والبناء ، وكان فى عمله مرونة وفى تفكيره تواضع من يعرف قدره متفائلا عف اللسان عف القلم يجل نفسه أن يجرى مجرى أصحاب الألسنة الحداد .

وقد أعاد مفهوم الأخلاق إلى ملاعب السياسة بعد أن عاشت السياسة طويلا بلا أخلاق، فقد كان ينكر أن يضلل السياسى سامعيه أو أتباعه أو أمته، وكان يعمل على أن يسمو بالناس فوق خداع السياسة وأكاذيب الزعامات.

وتجد ذلك واضحاً فى تعامله مع بعض من كانوا يواجهونه فى مجالات العمل السياسى والإجتماعى.

(٤)

لقد كان كريماً مع خصومه ومع المخالفين له وإليك فى هـذا المجال نموذجان :

الأول : يروى الأستاذ أحمد حسين زعيم مصر الفتاة بعض ذكرياته عن علاقته بالأستاذ البنا فيقول : إختلفت مع حسن البنا وحملت عليه حملة شديدة فى صحيفة مصر الفتاة ، وإذا باللواء صالح حرب يدعونى إلى لقاء مع حسن البنا للصلح وكنت طوال الإجتماع ثائراً مهاجماً للشيخ عنيفاً فى الهجوم ، وكان الشيخ يسترضينى بكل عبارات المحبة والتكريم والاعتذار ، وكنت أدهش لذلك ثم عرفت من بعد لماذا كان يفعل ذلك ، إن جماعة الإخوان كانت تهدد بقتلى وكان هو يأمرهم بأن يبتعدوا عنى ، ولما ظهرت الأسلحة عرفت إلى أى مدى كنت مندفعا وإلى أى مدى كان هو حريصاً على حمايتى من أعوانه وخائفاً على ، فقد كان يقول لى : قل ماتشاء ولكن فقط أرجوك إيقاف الحملة فى الصحافة ، ثم عرفت من بعد مدى خطر قوة الأستاذ البنا وكنت أردد فى خوف : ياويلى لو كانوا ظفروا بى ، لقد كنت مندفعا وكان هو حليما وكان بعيد النظر سمحاً.

ومن خطاب أرسله أحمد حسين إلى فهمى أبو غدير (أكتوبر ١٩٧٦) يقول :

أقول بعد هذا العمر الطويل رأيي فى فضيلة المجاهد العظيم حسن البنا بعد أن جعلتنا الأيام نتعلم ما لم نكن نعلم .

كتبت فى ذلك الوقت بأسلوب الشباب مقالات عنيفة لا يصح بحال أن تؤخذ دليلا على شيء فهى من نوع المعارك الأدبية والذى أريد أن أذكره أمام الله والتاريخ أنها كانت معركة صحفية من جانبى فقط ، وأذكر أن فضيلة المرشد رحمه الله بذل فى هذه الفترة جهداً خارقا لأوقف هذه الحملة واجتمعنا بحضور المرحوم صالح حرب وأشهد أن حسن البنا فى هذه المناسبة لم يقل إلا خيراً ولم يكن يدعو إلا إلى خير .

ماذا أقول اليوم والذى يهم التاريخ فى رأيى فى الشهيد حسن البنا باعتبارنا متعاصرين هو ما أقوله اليوم بعد أن انقضت أسباب الخلاف والرأى عندى أن حسن البنا هو أحد الرجال العظام الذين يصطفيهم الله لنصرة دينه فى ظروف وأوقات معينة .

لقد كنت أشيد بالشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية فى مصر باعتباره رد فعل مصر الإسلامية على الإحتلال البريطانى فى أول القرن العشرين وأضيف اليوم أن حسن البنا بتأسيسه جمعية الإخوان المسلمين كان استمراراً لنضال مصر الإسلامية بعد أن تطورت ونشأت أجيال جديدة أراد لها الاستعمار أن تجهل كل شيء عن الإسلام فجاء حسن البنا فجعلهم فرسانا للإسلام .

ولقد حوربت الإخوان المسلمين بأعنف وأقسى ما أظن أن جماعة حوربت به فإذا كان الإخوان المسلمين بعد ذلك لا يزالون على العهد فهذا دليل على أمرين :

الأول : أن بلادنا إسلامية .

الثانى : إن الغرس الذى غرسه حسن البنا سيظل ينمو ويزدهر .

(٢) ويصور محمد زكى عبد القادر علاقته بالأستاذ البنا فى مذكراته :

أذكر أننى لقيته فى حفل جرى فيه الحديث عن المرأة والرجل ونظرة الدين إلى علاقة كل منهما بالآخر ، وما كان يجرى فى هذه الأيام عن حقوق المرأة السياسية والاجتماعية وأذكر أننى قلت له : لماذا تنظر إلى المرأة والرجل كأنهما ضدان يتنافران لكل منهما قضية تختلف من أحدهما إلى الآخر والأصح أنهما يتكاملان ، ولذلك ينبغى أن تكون النظرة قائمة على التكامل وما يستتبعه حتى من التعاطف والود ، وأذكر أن الشيخ أقرنى على رأيى فى ابتسامة ذات إخاء وإشراقة وجه تحف به لحية مستديرة سوداء دقيقة منظمة جميلة، ولم أعرف وقتها هل كان إقراره وجهة نظرى مجاملة أو اقتناعا ، كل الذى أحسسته هو نوع من الود نحو الرجل .

ثم علمت من مريت غالى أن بينه وبين الشيخ حسن شيئاً من الود والتعاطف ثم سمعت أن بعض الأقباط لا يجدون ضيراً فى أن يكون بينهم وبين الدعوة والداعى مثل هذا الود والتعاطف ، وإن كنت قد لمحت فى مجادلات ومحاولات أخرى بين عدد منهم إنهم يعترضون عليها .

ولقد واجهت الإخوان مباشرة حين رشحت نفسى فى الانتخابات وجرى بينى وبينهم جدل وحوار وعرفت أنهم يجعلون القرآن دستوراً ومنهاجاً وبينهم المتشددون وفيهم المتسامحون ، ولكنهم بصفة عامة يؤلفون تياراً جديداً دينياً فى جوهره . وكافة أهل القرى متدينون حريصون على دينهم ، ولكن الإخوان أخذوا الدين من وجهة نظر أخرى ، وهذا ما جعلهم متميزين على غيرهم ، وخرجت من الإخوان المسلمين وأحسست أن سيكون لهم دور وتأثير فى السياسة المصرية ، وكان المرشحون فى دائرة القنايات يسترضونهم ويحاولون كسب ودهم وتأييدهم .

ويقول : زارنى الشيخ حسن البنا فى مكتبى بالأهرام ، وكان أول مقابلة خاصة بينى وبينه ، فوجدت فيه رجلا رقيقاً سمحاً وديعاً ، ربعة أميل إلى القصر والامتلاء ، تضىء فى وجهه إشراقة فسرتها بأنها طيبة فى القلب وعمق فى الرضى والإيمان والتسليم ، وفسرها أنصاره بأنها نورانية إلهية .

قلت له : إن لى ملاحظة أريد أن أفضى بها إليك :

إن أنصارك يدعون لأن يكون القرآن هو الدستور والقانون ومصدر الحكم والتشريع ، وأنت تعلم أن الدول الأجنبية وافقت على إلغاء الامتيازات بشرط أن يكون التشريع وفق المبادىء الحديثة .

ورد الرجل فى سماح أكبر وإشراق أوضح :

أنا لم أقل بهذا وإنما قلت أن يكون القرآن وحى التشريع والسلوك ، ولم أحدد ولم أقصد أن تكون الحرفية هى الأساس ، وأنا أصحح لهم المسار باستمرار » .

هذه اللقاءات بين الأستاذ البنا والشخصيات المعروفة فى المجتمع تكشف عن مرونة الأستاذ ولباقته وأنه لم يكن يستعجل الأمور ، ولا يتخطى المراحل ولا يقول إلا الشىء الذى يمكن أن يقبله الرأى العام ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة أخرى ، فهو صادق فى ردوده ، وصادق فى مسيرته إلى الغاية الحقيقيه .

الفصل الثاني

الثبات في وجه المحنة

(عمر التلمساني)

تحدث الأستاذ عمر التلمساني عن تجربته في الدعوة الإسلامية خلال خمسين سنة فقال :

الصبر وسيلة للنصر والاطمئنان بأن نصر الله قادم مهما طالت المحن ، علم الله ما في النفوس من حب له فأنزل سكينته على المسلمين المؤمنين وثبتهم في محنتهم ومهما حاول أعداء الإسلام إخفاء صلاحيته فلا بد أن يظهر ومهما اختلق أعداء الإسلام من تهم يلصقونها بأنصاره فلا بد أن تظهر الحقيقة ، ولقد مرت سنوات المحن وكأنها لحظات ولم تبق منها إلا الذكريات ، الكفاح في سبيل الحق ثقة ما بعدها ثقة ، تشعر صاحبه بأثره في الحياة ، وجوب التضحية بكل شيء في سبيل الله . والرضا كامل بأقدار الدنيا أيا كان نوعها ، ورغم الاضطهاد القاسي خلال الثلاثين عاما الماضية فقوة الجماعات الإسلامية وعلى رأسها الإخوان المسلمون في ازدياد مستمر ، والدعوة الإسلامية تنتشر بسرعة خاصة بين صفوف الشباب والطلبة ، هذه القوة الإسلامية التي تزداد يوماً بعد يوم لا شك أنها رد فعل للضغط الفظيع الذي لحق بالحركات الإسلامية ، وهذا يعود إلى أن الشعب وبخاصة الشباب تبين بجلاء فساد كل النظريات والآراء الإجتماعية التي وضعها البشر ، وأنه لابد من الإتجاه إلى رب العالمين والامتثال لحكمه في كل شئون الحياة .

ولقد مضى على دعوة الإخوان المسلمين نصف قرن تقريباً ، وطوال هذه المدة لم تفلح جهود خصوم الإخوان لحظة فى محاربتهم ومحاولة القضاء عليهم . وقد صمد الإخوان للمحن ، ولئن توقفت جهودهم فترة فقد عادت ، ففى جميع أرجاء العالم إخوان مسلمون ، فإن توقف نشاطهم فى بلد فهم يتطلعون إلى غاياتهم فى البلاد الأخرى ، هذا إلى أن كل هم الإخوان أن يعملوا لأن هذا واجبهم حيال دينهم ، أما النتائج فإنها موكولة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى يوجهها كيف يشاء ، إن الإخوان قد يضعفون ولكن الدين الذى يدعون إليه ويتمسكون به سيظل كما هو لا يتغير منذ أنزل إلى قيام الساعة ، والإسلام بفضل الله لن يزول ولو أن ديناً آخر لقى من أعدائه ما لقى الإسلام لاختفى من الوجود.

كل تلك الحروب الدامية تحداها الإسلام وبقى على مدار الزمن صرحاً قوياً ونحن نرى أن العالم يذخر بما يزيد على ألف مليون مسلم رغم كل ما تعرض له المسلمون وسيزدادون بفضل الله على مر الأيام .

إن طريق الإخوان هو طريق التربية وهو سبيل لا سلطان لأحد عليه إذا أخذنا أنفسنا به . إن فلسطين أرض إسلامية ولا بد من استرجاعها كاملة مع كل الأراضى العربية الأخرى ، إننا نرحب باليهود فى أرضنا كمواطنين لهم كل الحقوق ، ولكننا نرفض تماماً أن يكونوا حكاماً على أرض إسلامية ، إن العالم الإسلامى لو ربى شبابه على الجهاد حتماً مع ضرب المثل من الرءوس قبل القواعد لوصلنا إلى نتيجة طيبة فى أقصر ما يتصور ، ولو قوى إيماننا بالله لزالت كل الصعوبات (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

(٢)

إن الدولة الإسلامية ليس معناها حكومة إسلامية بل تطبيق الشريعة الإسلامية ، هناك ضحالة فى تفهم العلوم الدينية لدى الشباب ، لا بد أن نهجر كلمة الفلسفة إذا تحدثنا عن الدين الإسلامى لأنها سبب الانقسامات ، الإسلام

لا يقر الأحزاب وأنه لاينكر الخلاف على الجزئيات والفرعيات ، إن كل حزب له منهج وضعي فكيف يراد من المسلم أن يرضى بغير منهج السماء ، إن كل منهج أو رأى غير مستمد من تعاليم الإسلام أمر لا يرضاه الإسلام .

هناك ضحالة فى تقبل العلوم الدينية عند بعض الشباب ، والاندفاع فى الدفاع عن عقيدته دون أن يتبين مدى خطأ أو صواب الأسلوب الذى يتناول به تبليغ الدعوة ، لعل السبب الأساسى فى كثرة قيام الجماعات الإسلامية فى الآونة الأخيرة هو بعد الأفراد والجماعات والحكومات عن التعاليم الدينية وطغيان كل مظاهر الفساد الخلقى ، هذا الفساد الذى يجب على حكومات العالم الإسلامى أن تتصدى له فى حزم وحسم قبل أن يفلت الزمام من أيدى الجميع .

إن أساليب القمع وقيود الحريات والمحاكمات لاتجدى فى علاج هذه الحالة ، وعلى وزارات التعليم والتربية أن تشرح التعاليم الدينية الصحيحة منذ المراحل الابتدائية مع ظهور القائمين على هذه الناحية بمظهر القدوة الصالحة فإن أول شعور الطالب أن يرى مدرسه يجهده فى مقابل الدروس الخصوصية .

قرأت كل كتب التراث : كالعقد الفريد وما إليه ، كما قرأت البخارى ومسلم وتفسير ابن كثير والقرطبى ، ومثلى الأعلى رسولى ونبيى وزعيمى وحبيبى محمد صلى الله عليه وسلم .

المقصود بالدولة الإسلامية كل دولة تطبق الشريعة الإسلامية دون نظر إلى متولى الأمر .

خروج المرأة إلى العمل لا بأس به بشرط ألا تباشر المرأة من الأعمال ما يتنافى مع طبيعتها أو يعرضها للخطر .

الإسلام لا يقر الأحزاب وإن كان لاينكر الخلاف على الجزئيات والفروع . إن كل حزب له منهاج وضعى فكيف يريد من مسلم أن يرضى بغير منهج السماء ، وإن كل رأى أو منهاج غير مستمد من تعاليم الإسلام أمر لا يرضاه الإسلام .

الآن توجد حكومة ونحن نعتبرها حكومة إسلامية ولا نقول إنها حكومة كافرة. وعندما نتحدث فإننا نتحدث عن شكل الحكم ذاته وليس عن الحاكم، فالحاكم الذى يقول إنه سيطبق شرع الله نحن نؤيده أياً كان هذا الحاكم.

الإخوان المسلمون لم يفكروا فى أحد الأيام فى أن يكون الحكم لذاتهم، وبالتالى لا يرون شكلا محدداً لهذه الحكومة الإسلامية.

إن الناس لو علموا حقيقة الإسلام لعرفوا أن الإسلام لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا تعرض لها. الإخوان عندما يتكلمون فى السياسة مثلا فهم لا يتكلمون كرجال سياسة ولكن كدعاة إسلام، نقول الإسلام يقول فى الحكم كيت وكيت وعندما نتكلم فى الاقتصاد لا نقول نحن اقتصاديون، ولكن نقول الإسلام حرم الربا.

والبعض يظن إننا عندما نتكلم فى النواحى السياسية فإن هذا ليس من الدين فى شىء وإن هذا كلام أحزاب، ولكن هذا ليس حقيقياً لأن الأحزاب تتطاحن فى سبيل الوصول إلى الحكم وهذا ليس سبيلنا.

دعوة الإخوان قامت على هدف واحد هو تطبيق الشريعة الإسلامية، وهذا فرض على كل مسلم ومسلمة.

إن نشأتى ودراستى كانت من أكبر العوامل التى وجهتنى للعمل فى الحقل الإسلامى، لقد طرقت أذنى وأنا فى سن العاشرة أسماء ابن تيمية وابن الجوزى لأن جدى رحمه الله كان سلفياً يأخذ برأى الامام محمد بن عبد الوهاب وقد حفظت القرآن فى سن مبكرة.

وفى دراستى بكلية الحقوق كنت دائم الحصول على درجات عالية فى علم الشريعة وعندما خرجت إلى ميدان العمل آثرت أن أعمل بالمحاماة برغم أنه كان يمكن لى أن أعمل فى النيابة وفى القضاء لكنى رفضت لأننى بطبيعتى لا أميل إلى الثقة بأى شىء من الأشياء إلا خلقى ودينى وفى سنة ١٩٣٣ زارنى بعض الإخوان

وعرضوا على الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين فقابلت الإمام الشهيد حسن البنا وبايعته على العمل فى سبيل هذه الدعوة .

وفى عام ١٩٦٥ وخلال محنة الإخوان سألنى البعض : أنت رجل سلام فما الذى يحملك على البقاء فى هذه الجماعة التى يتهمونها بكثير من التهم .

قلت له : لقد دخلت هذه الجماعة لأعمل لله سبحانه وتعالى ، وماكان لى من هدف إلا هذا ، فإذا أخطأت هذه الجماعة أوأصابت ووصل بها الأمر إلى أزمة تناول أفرادهم من جميع نواحيهم فليس من جميل الخلق أن ينسحب الانسان فى وقت الخطر من جماعة شاركها فى جميع أمورها .

نحن رفضنا أن نكون حزبا لأن للأحزاب أسلوبا معيناً فى العمل ، ولأن للحزب برنامجاً يحاول بقدر إستطاعته أن يطبقه ونحن ليس لنا برنامج ولامنهاج ، لأننا ندين بكتاب الله وسنة رسوله ماجاء فى كتاب الله فهو برنامجنا وما جاء فى سنة رسوله ﷺ فهو منهاجنا . لهذا المعنى ولأننا لا نقر الأساليب التى تتخذها الأحزاب سبيلا الوصول إلى أهدافها ومن بينها الحكم .

لم نرض لأنفسنا أن نكون حزبا لأننا نتبع أسلوبا يخلو من كل غرض شخصى . نحن يرضينا أن يأتى أى إنسان من أى حزب يطبق شريعة الله فنتبعه ولانعارضه ، ونحن لسنا حريصين على أن يكون رئيس الدولة من الإخوان المسلمين ومادام يتبع كتاب الله وسنة رسوله فنحن جنده .

ان نشأة التنظيم الخاص كانت فى الأربعينات ولو رجعنا قليلا إلى أحداث تلك السنوات كانت هناك حرب فلسطين وكان لزاما على كل مسلم إذا ديست أرض المسلمين بأجنبى أن يخرج الجميع إلى الجهاد رجالا ونساء ، السيدة بغير إذن زوجها ، والعبد بغير إذن سيده ، لقد رأينا كيف تراجعت الحكومات الإسلاميه عن الدفاع عن فلسطين فبدأ التفكير فى إنشاء الجهاز الخاص وكان

كل ذلك وما وجد فى القضايا من أجل فلسطين وليس لمحاربة حكومة مصر ومبدؤنا الذى ندين به أن أى صدام بين الحاكم والمحكوم لن يستفيد منه سوى أعداء الوطن ، والكثير من القضايا التى حدثت كانت ملفقه وكل الذين اتهموا فيها صدر الحكم ببراءتهم ، وهذا دليل على أن الإخوان لم يلجأوا إلى التربيه الجادة طلباً للعنف أو للوصول إلى العنف ولكنهم أرادوا أن يقيموا أجيلا جاداً نحن فى مسيس الحاجه إليه وخاصة فى هذه الأيام

الشرع الإسلامى له مقاييسه ولا يتغير بتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعيه ولا تدخله بحكم أنه شرع إلهى أية ثقافات أخرى ، والشرع فى نظرى هو يحكم المعتقد الدينى ، لكن الفكر الإسلامى له معنى أوسع وهو يحمل (الخلاف فى الرأى) لأنه اجتهاد وفى الشريعه الإسلاميه لا يحل دم المسلم ولكن عندما يأتى نفر ليقول : أن الشخص إذا ارتكب معصيه أو مخالفه يصبح كافراً ويحل دمه وماله فالإسلام وجماعة المسلمين غير مسئولة عن هذا ولا يتحملون نتائج ذلك على الاطلاق .

أنا أعارض فكر العنف فى مواقفى كلها وفى كتاباتى كلها وأستنكر القتل والاغتيال لأن الإدانة بأية جريمه فى مجتمع إسلامى حسب الشريعه لا بد أن يتولاها القضاء كما أن التنفيذ لابد أن يتولاه الامام ، ولا يوجد فى الشرع الاسلامى ما يبيح على وجه الاطلاق لشخص أن يتولى القضاء والتنفيذ فى وقت واحد

الاسلام لا يعرف تعبير « رجل دين » الاسلام عقيدة وشريعه :

العقيدة كيف أعبد الله عبادة حقة أخصه بالتوحيد وأفرده بالايمان، إخلاصى وضميرى ونفسى من الداخل هو المطلع عليها ولابد أن أحرص دائماً على أن تبقى نظيفه وطاهرة حتى لا أؤاخذ فى أى موقف.

هذا ماتختص بالعقيدة أما الشريعة فهى المعاملات بين الناس، فهم يفرقون فى الفقه الاسلامى بين العبادات والمعاملات مع أن الاسلام لابد أن يؤخذ كله، ولو عدنا إلى الدولة الاسلامية فمعناها أن يحكم الناس بما جاء فى كتاب الله. إن المبادىء الاشتراكية وحتى ما يقولونه عن الماركسيه مستمدة ومستقاة من الاسلام : تذويب الفوارق ، الحرية ، الانصاف، العدالة الاجتماعية، كل مستمد من الاسلام مع فارق واحد ، إن الاشتراكى إذا عنت لهمصالحه خاصه وأراد تحقيقها وآمن أن يد القانون لن تصله سوف يحقق هذه المصلحة ولو كانت مخالفة لمبادئه الاشتراكية ، أما المسلم الذى يعلم أن الله سبحانه وتعالى رقيب ومطلع عليه وأقرب إليه من حبل الوريد ، وأنه يحول بين المرء وقلبه وأنه يعلم السر وأخفى فلن يجرؤ أن يخالف قاعدة من قواعده الاسلاميه فى السر ولو ضمن عدم بطش الحاكم لأنه يعلم أن هناك حاكما أكبر لن يتركه مطلقاً وسيحاسبه ،هذا هو الفارق بين الاسلام وبين المبادىء الأخرى ، نحن نريد حرية ومساواة وحياة إجتماعيه منعمة وهانئه ونتطلع إلى تخليص البلد من الفقراء والمحتاجين والمتعبين ، وكل هذا الاسلام يدعو إليه فإذا كانت المذاهب تطلب هذا فالاسلام سبق هذه المذاهب وأقام فوق هذا كله معنى الرقابة الالهيه ، وبهذا المعنى رأس أمراء المؤمنين الدولة ليس لأنهم أحق الناس بأن يكونوا رؤساء وإنما لأن الإسلام يحدد حقوقا لله تعالى وحقوقا للعباد .

حقوق الله مثل الصلاة : إن حقوق الله سبحانه وتعالى مبنية على الكرم فقد لا أصلى والله يغفر لى . إنما حقوق العباد مبنية على المشاكلة بمعنى أن كل طرف يتمسك بحقه ، والحاكم المسلم لكى ينجح فى حكم دولة إسلامية يجب أن يسوى بين الأفراد فى الحقوق والواجبات .

فى كل الدول والنظم القائمة لا أجد دولة أستطيع وصفها بالديمقراطية الكاملة لأن الدساتير توضع وتخالف أحيانا . فالولايات المتحدة مثلا رغم أن الجميع متساوون فى الحقوق والواجبات نجد معاملة السود غير معاملة البيض . أما

الإسلام فلا يعرف التفرقة ويسوى بيننا جميعا . أما الدستور الذى يضعه البشر فيكون لمصلحة يقدرها واضعه فى حدود تفكيره وفى حدود عقله فى حين أن الدستور الإلهى مختلف لأن واضعه هو الخالق ، وهو الذى يعلم ما يضر وما ينفع ولا يحابى فريقا على آخر ، وإنما وضعه لجميع الخلق من مسلمين ومسيحيين ويهود وبوذيين ودروز . الله سبحانه وتعالى يسأل الرسول سؤالا إستنكاريا فى القرآن الكريم :

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

(لست عليهم بمسيطر) .
(إنما عليك البلاغ) .
(إنما أنت نذير وبشير).

إذن الإسلام فى الدولة يسوى بين جميع الناس وكل واحد وعقيدته ونحن مجبرون على ترك الناس يؤمنون بما يشاءون فيما عدا أن يكون مسلماً ويرتد عن الإسلام ولو كنت غير مسلم تستطيع أن تظل حياتك كلها أنت وذريتك على هذا الوضع ولا أحد يحاسبك لأن الحساب فى الآخرة .

الحاكم المسلم لايعرف قرابة ولا صلة ولا نسباً ولا أى معنى من المعانى التى تمثل وسيلة لتمييز بعض الناس عن بعض ، ولكن مايحدث فى أغلب دول العالم وليس فى مصر فقط أن الحكام يبتعدون عن هذا المعنى .

الدول الإسلامية لاتعرف القرابة والنسب ولكنها تعرف الكفء فى المكان المناسب أيا كان وضعه ولو كان خصما لأمير المؤمنين .

الدولة الإسلامية تحرص على النواحى الاقتصادية والاجتماعية والخلقية والعقيدية وعلى توفير كل مايمكن توفيره الإنسان كبشر مستمتع بكافة حقوقه والحرية لاحد لها إلا إذا تعارضت مع حقوق ومصالح الغير .

الفصل الثالث

العودة إلى المنابع

(محمد الغزالى)

إن الإسلام هو دين الله من يوم نزل الوحى إلى أن ينقضى أمر الحياة الدنيا ، ولكن هل بقى الإسلام على نقائه الأول . إن الوحى الذى نزل مصون بيقين ، ولكن هل الأفهام التى اتصلت بهذا الوحى وارتبطت به هل هى صادقة فى تصويره وتصوره .

الوحى معصوم ولكن فكر الناس فى هذا الوحى وتفكيرهم فيه غير معصوم لأن الفكر يخطىء ويصيب ، عمل الناس بهذا الدين وهو (التاريخ) يخطىء ويصيب ، ومعنى هذا أن الفقه يخطىء ويصيب وكذلك السياسة الإسلامية تخطىء وتصيب ، الصواب للوحى الإلهى : كلام الله وسنة رسوله أما تفكيرنا نحن فى فهم هذا الدين فقد نخطىء فيه .

حدث فى خلال أربعة عشر قرنا أن وقعنا نحن المسلمين فى أخطاء علمية وأخطاء سلوكية كثيرة ، ونحن الآن فى هذا العصر نجنى مرارة ما أخطأ أسلاف لنا يجب علينا أن نشكرهم لأنهم أقاموا جسوراً عبرنا عليها . يجب علينا أن نحدد الخطأ والصواب فى تاريخنا وتفكيرنا وفى كل ما يتصل بحياتنا العلمية ، ليس موضع النقاش كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ولكن ما بعد هذا .

إن الأمم تصاب فى كيانها بأمراض، نحن وصلنا فى وسط تاريخنا بأمراض أنا لاأحمل مسلمى العصر الحاضر الإنهيار الذى هم فيه لأن هذا الانهيار نتيجة مقدمات وقعت فى أيام مضت .هناك أمور أنا مسئول عنها وان أصوب الخطأ . أنا مسئول أمام الله كى أؤدى واجبى فى الاستقامة على الطريق وترك الباطل والخطأ والخرافة وما إلى ذلك ، فالحقيقة أن الإسلام كما وصفه أعداؤه « حركة تقدمية كبرى » وملاءمة للجنس الإنسانى وبعضهم مثل كاتب « القمم المائة » وهو رجل لاصلة له بالإسلام ولايعرف عن المسلمين شيئاً أكثر من أنه درس التاريخ يرى أن «النبوة المحمدية » كانت نقلة حاسمة فى تاريخ الحضارة . فمحمد فى عالم المعنويات عمل تغييراً حاسماً فى الأرض كالتغيير الذى أحدثته اكتشافات الذرة والكهرباء ، وهذا شيء لابد أن يعرف : أن الرسول شىءعظيم والسنة شىء عظيم والقرآن شىء عظيم،ولكن الفهم يجب ينقل لنا من كتاب الله أو سنة رسول الله .

الأمة الإسلامية الآن من الخير أن تعرف على حقيقتها فهى مجموعة من الشعوب المتخلفة علمياً وحضارياً وخلقياً ، وهذا التخلف له أسبابه الحقيقية ، ومحاولة تغطية العلل لاتصلح . هنا مريض ولابد أن نعالجه ، فالقرن الخامس عشر أقبل ، وأنا أرى ان لابد للمسلمين أن يقفوا وقفة تدبر وحصر لأخطائنا المادية وتصرفاتنا

وأنا أرى أن الصليبية فى عصرها الذهبى . لأن الصليبية فى القرن التاسع عشر كانت منهارة ، وكانت المعركة بين العلم والإيمان معركة حادة جداً . موقف الكنيسة كان هزيلا وضعيفاً . إسرائيل منذ ثلاثين عاماً ما لها وجود ، اليوم استقرت على أنقاضنا . الالحاد كان أعراض بسيطة . الآن أصبح يحكم دولا كبرى ، المسلمون فى جنوب شرق آسيا مضطهدون ، ولا يوجد الآن أضعف من العالم الاسلامى ولكن معهذا يعرف الجميع أن العالم الاسلامى برغم مابه من أسباب الضعف يملك من عناصر القوة مالو وجد البيئة المحصنة والعناية المخلصة فانه خلال ربع قرن يسترد مافقده .

وأنا أذكر كلمة لفيليب حتى يقول : فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى كان كل شىء يؤذن بزوال دين محمد لأن بيت المقدس سقط وأقيمت فيه دولة لاتينية ، ملوك من المسلمين هادنوا الصليبيين وعقدوا معهم مصالحات ، بعد هذا دمر التتار بغداد ، ثمانون فى المائة أبيدوا بمعنى أن الخسائر البشرية والأدبية كانت مدمرة وكما قال فيليب حتى : كان كل شىء يؤذن بزوال دين محمد .

ثم يقول : فما كاد هذا القرن يبلغ نهايته حتى كان السؤال : هل سيقف أمام دين محمد شىء ؟ ، التتار أصبحوا مسلمين ، بيت المقدس استرده المسلمون وأخذ قطز وبيبرس وقلاوون يخلصوا على بقايا الامارات اللاتينية فى شرق البحر الأبيض ودخل العثمانيون فى الإسلام فى القرن السابع الهجرى ثم استولوا على القسطنطينية ؛ معنى ذلك أن هذا الدين له مستقبل بيقين ومستقبله مقطوع به ، ولاتسمعوا بعض العلماء الذين يرددون أحاديث الفتن، الإسلام له عودة بل أنا قرأت فى بعض الكتب أن روما سيدخلها الإسلام . إن يوم الإسلام قادم ، ولكن المريض إذا لم يعالجه طبيب حاذق يأتى واحد دجال يقتله والدجالون كثيرون .

(٢) المسلمون يعلمون أن دينهم جازم وحازم فى أن الحكم جزء منه ، الحكم بمعنى إقامة دولة .

(أولا) تضبط المجتمع الإسلامى بتقاليده العبادية .

(ثانياً) تنفذ الشرائع المتصلة بالمعاملات والعقوبات وما إلى ذلك داخل هذا المجتمع .

(ثالثاً) دولة تعتبر مسئولة عالميا عن الدعوة الإسلامية مثلما روسيا مسئولة عن الشيوعية . فكون الإسلام لاصلة له بالسياسة هذا إرتداد وافتراء على الإسلام لابد أن يكون الإسلام بطبعه شورى يقاتل الاستئثار الفردى ، تنظيم إقتصادى يمنع السحت .

فالإسلام يأبى إلا أن تكون سياسة المال خاضعة له لأنه ثبت أن المال له تأثير فى إشاعة الرذائل وسوء التوزيع ، المجتمع يقدم الضرورات لمن يحتاجون إليها ،ولا بد ان هذا المجتمع لا يسمح بتفاوت غير طبيعى بين الناس .

فالقصد أن الإسلام دين فيه سياسة مالية ترتبط بقيم أما الشكل الذى توضع فيه فان الإسلام لم يحدده . نريد نظاماً تكون الشورى فيه محققة بمعنى أن لا يخنق رأى ويكون لكل إنسان حق الكلام ثم ينطبق عليهم القانون الالهى .

إن الإسلام اليوم مضطهد والمقاومة الآن شديدة بين من يريدون البقاء على الاسلام واستبقاء معالمه واستعادة شرائعه وبين سماسرة العالم الصليبى والصهيونى الذين يريدون القضاء على الاسلام فعلا ويعلنون عليه حربا خبيثة حينا وصريحة حينا آخر .

ونحن الآن فى سباق مع الزمن إذا لم نعد إلى إسلامنا كما جاء عن الله ورسوله، إذا لم نمكن أقدامنا من العلم الحديث ومن دنيا الناس بحيث نستطيع أن نخدم هذه القيم والعقائد التى ورثناها خدمة صحيحة فلن نستحق البقاء .

سيقضى علينا اليهود والنصارى ، والمسلمون مادامت يدهم خالية من مصنع أسلحة ومادامت بلدهم تستهلك ولا تنتج حتى الطعام فان الوجود الاسلامى معار من الخارج،وليس له كيان ذاتى يوم يكون وجودى الذاتى له روافده من أرضى ومن بلادى . اما أن نستمد الحياة من الخارج وننظر الآن إلى ملابسنا وطعامنا وحياتنا اليومية سنجد أن كل شىء مستورد من بلاد الأجانب .

أنا لا أريد أن أخدع نفسى ولا أخدع أمتى ، أمتى وجودها نافلة، صدقة من القدر لأنها فى ذاتها لاتستحق الحياة . العرب والمسلمون يلهثون وراء الأكل والاستهلاك والجرى وراء المتع والبحث عن علب الليل فى باريس .

إن المجتمع الاسلامى مهيأ منذ قامت الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة ليقبل أحكام الشريعة الاسلامية والله هو الذى خلق الانسان ويعرف طبيعته وهو الذى أنزل أحكام الشريعة ويعرف طبيعة الدين الذى أنزل على خلقه .

هذه واحدة ، والثانية ان المجتمع يريد شرع الله ولكن الاستعمار العالمى هو الذى يخاف من تطبيقه . كلمة تهيئة المجتمع تشير إلى أنه كان للحاكم الاسلامى فانت تريد أن ترضيه بشىء من الأناة ويحتاج إلى زمن ولكن المجتمع ضائق الصدر من إبتعاده عن أحكام الاسلام ، والذى يقول هذا القول لايعرف طبيعة الأمة التى يعيش فيها ولا يعرف طبيعة الاسلام الذى يتحدث عنه .

عندما أبحث عن سبيل للخروج من حالة التمزق الاسلامى لابد أن أشخص الأمراض التى أصابت الأمة الاسلامية . الحكم الاسلامى قام فى المدينة بعد إعداد روحى ومعنوى وأخلاقى وتربية أجيال لم تفتنها الدين ولم تندهش عندما طولبت بالتطبيق ، ولذا أرى إنه لا بد من تربية واسعة تتناول حياتنا من جميع نواحيها المعوجة لكى نقومها .

وإجمالا لا يمكن القول بأن الأمة الإسلامية ممزقة الان بسبب علتين : علة داخلية وعلة خارجية : العلة الداخلية تكمن فى المواريث الغلط التى آلت إلينا من تاريخنا السابق ، والعلة الخارجية تكمن فى الغزو العسكرى والثقافى الذى طغى علينا وكاد يمحو شخصيتنا .

ولكلا العلتين أدوية مناسبة :

لا بد أولا أن يعرف الإسلام معرفة صحيحة - الإسلام حفظه الله - القرآن تأذن الله بحفظ كتابه ، ومحمد خاتم النبيين لم يجىء بعده رسول فالنبوة الخاتمة محفوظة ، إذن فنحن أمام قوة كبيرة قادرة على تحريك البشر نحو العلاج الصحيح ، الذى يتمثل فى العمل والتطبيق .

إن قيام الأمة الإسلامية ضرورة عالمية لأنها الأمة الوحيدة التي تحمل عقيدة التوحيد نقية ، التوحيد كما يدرس في بعض المدارس والمعتقدات الأخرى تصور الله تارة على إنه شيء مادى أو على أنه كائن لا يعرف فى ملكوته ما يحدث ، ويستقى أخبار الكون من الكائنات ، وبلا شك فإن هذا القصور والعجز لايعرفه الإسلام الذى جاء بعقيدة (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر ، ,وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

هذا الإله قدم الاسلام صفاته كاملة من خلال الأمة والأفراد الذين يعتقدون فيه ، الاسلام لا يزال يقدم علاقات إنسانية سامية ليس فيها مثلا : التفرقة العنصرية ، ليس هناك فرق بين أبيض ولا أسود وذلك مع الأسف موجود فى معظم عواصم العالم .

الاسلام يقدم فى حروبه الرحمة وفى خلافاته التسامح ، عندما دخل الصليبيون بيت المقدس ذبحوا المسلمين وعندما استعاد المسلمون بيت المقدس لم يذبحوا أحداً من الصليبيين ! أى سمو أعظم من هذا ؟

كيف تستعيد الأمة الاسلامية أمجادها ، الأمة الاسلامية مصابة بهزائم عسكرية وثقافية منذ عدة قرون . ومعنى هذا أن فرقتين من الناس هما المسئولتان عن هذا التخلف : هما الحكام والعلماء ، فحكام العالم الاسلامى منذ عدة قرون كانوا أفراداً يمثلون أنفسهم وصلوا إلى الحكم بطريق الخطف والوراثة وليست لهم مؤهلات لادارة مؤسسة صغيرة فضلا عن أمور الدولة ، كانت النتيجة وجود حكام لعب بهم العالم كله .

أما الناحية العملية فلا شك أن علماء الاسلام مسئولون عن حصر الاسلام فى بعض الزوايا الضيقة والاهتمام بالفروع، ماالذى جعل علماء المسلمين يحصرون

عواطفهم فى أمور لاتضر ولا تنفع ، ما الذى جعل العلماء يتوقعون داخل بعض المسائل الفقهية التى لا تمت للعقيدة بصلة ، هذا قصور الدعاة مسئولون عنه ، وعلى العلماء أن يفرقوا بين شعب الايمان : الاسلام بضع وسبعون شعبة ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله : هذه هى التى يقاتل من أجلها،وأوسطها الحياء اغضب لقلة الحياة ، أدناها إماطة الأذى عن الطريق شىء يستحق التألم ، ولكن لايستحق أن أنصب المدافع من أجله ، الأمور تحتاج إلى توزيع الاهتمام الحل تدارك هذه الأخطاء وتذكير الناس بعقيدة العمل والانتاج والابداع فى المجالات العلمية والفكرية ، حتى يتخلص من التخلف .

* * *

الشريعة الإسلامية لا تقطع يد جائع وإذا رأيت السارق نادماً فعذره فإذا عاد إلى السرقة فاقطع يده ، والأغبياء هم الذين يتصورون ان الإسلام يغرم بعمل عاهات مستديمة فى المسلمين ، وتطبيق الشريعة مناسب فى جميع الأوقات ، وماتحتاج الأمة الاسلامية إلى تطبيق الشريعة الاسلامية فى وقت من الأوقات حاجتها إلى هذا التطبيق فى هذه الآونة بالذات .

مسألة التائب لاتقطع يده مذهب قوى فى الإسلام قال بها ابن تيميه وابن القيم وقال بها بعض السلفيين حتى ان القاضى عليه أن يلقن التوبة فالأغبياء الذين يتصورون أن الإسلام مغرم بعمل عاهات مستديمة فى المسلمين هؤلاء لايفهمون الإسلام .

الإسلام إنما يقطع اليد الفاسدة التى يكون بقاؤها سبباً فى ترويع الآمنين ويبقى ان الذين يسرقون الآن هم القادرون ، وعندما يكفيهم لسهرات حرام فلماذا ندافع عن هؤلاء . مايدافع عن اللصوص إلا لص وعاشق للإجرام والإسلام لا يكفر بمعصيته ، وثابت فى القرآن ان الانسان قد يرتكب معصية وهو مؤمن (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) .

فالقول بأن الإنسان إذا سرق أو زنا ينقطع عن الإسلام ويرتد إلى جاهلية غير مقبول أما الذى يمكن أن يكون كفراً فهو إنكار الدين من أصله بمعنى أن يقول: أن لا أؤمن بأن جميع الحدود التى شرعها لا أصل لها ويجب أن تعطل ولا قيمة لها . هذا كفر لأنه أنكر معلوما من الدين بالضرورة أما القول بأن مرتكب الخطأ ينسلخ عن الدين فهذا غير صحيح .

إن الحكم بما أنزل الله فريضة على الدولة والشعب معاً ، ولا يستطيع أحد أن يقول ان الحكم بما أنزل الله نافلة لأى إنسان أن يتخلى عنها ومسألة عزل الحاكم مسألة لها أخطارها أكثر من منافعها ، وإذا كان تغيير المنكر يؤدى إلى معصية أشد فليترك،إن مال الانسان ودمه وعرضه مقدس فلايجوز قتل إمرىء مسلم .

الاسلام دين يتحدث عن الحاكم ومحاسبته وعن الحكم بما أنزل الله والقول بأن الاسلام ليس دولة غير صحيح .

إن دولة إلى جوارنا جعلت التوراة دينا ودولة وجعلت اليهودية على أنقاض إخواننا الفلسطينيين دينا ودولة ، وأقامت الدولة باسم واحد من أنبياء الله هو يعقوب وسمتها دولة إسرائيل . لماذا تعتمد هى على اليهودية فى الهجوم علينا ولماذا لانعتمد نحن على الاسلام فى الدفاع .

إن سبب انحراف الشباب هو : غياب التوجيه الصحيح ، وتظهر هذه النزعات فى غياب المعرفة الصحيحة واختفاء الدعاة الحقيقيين .

علينا أن نعيد النظر فى قصة تنظيم النسل إذا كنا مخلصين لبلادنا إن الفقر العربى يمشى على كنز من ذهب ، العالم العربى فى حاجة إلى عمالة، إذا قيل أن كل مولود قادم سيكون عبئاً على الأمة فمعنى هذا أننا عاجزون عن التربيه وأننا لا نصلح فى الحياة .

الفصل الرابع

إسلاميه الاعلام

(صالح عشماوى)

لقد نجح الغرب عندما جند أبناء المسلمين فى جعلهم يلبسوا أقنعة الغرب وينادون بمبادىء الغرب ، لأن الغرب كان يجد مقاومة عندما ينادى بأغراضه المعروفة بمحاربة الاسلام فقد لجأ إلى تجنيد أبناء المسلمين لأنه يعلم أن مايقوله أبناء المسلمين فى بلادهم لايجد أى مقاومة .

وبالفعل وجدنا الدكتور طه حسين ابن الأزهر يعود من أوربا ويكتب باسم « الشعر الجاهلى » لايعترف بوجود سيدنا إبراهيم وبعد ذلك يصدر كتابا باسم « مستقبل الثقافة » يطالب فيه بأن نسترد من أوربا كل شىء ونجعل مصر قطعة من أوربا وأن نأخذ من أوربا حلوها ومرها بأن نجعل مصر مسرحا للدعارة والمسماة بالفن ، وتوفيق الحكيم يسير فى نفس المخطط ، هؤلاء كانوا أشد خطراً على المجتمع الاسلامى من الغرب لأن المنافق أشد خطراً من الكافر .

لقد لعب شباب الاخوان دوراً كبيراً فى الجامعة بالرد على هؤلاء وعندما وجد هؤلاء ان الرأى العام يتجه إلى الاخوان بدأوا يكتبوا عن الاسلام فكتب دكتور محمد حسين هيكل « حياة محمد » وبعده العقاد كتب «العبقريات» ثم قلدهم طه حسين فكتب « على هامش السيرة » كما كتب توفيق الحكيم عن سيدنا محمد .

فلقد حولنا هؤلاء من كتاب علمانيين إلى كتاب للسيره ، إلا ان بعضهم عاد مرة أخرى إلى العلمانيه لأنهم تجار ، عاد طه حسين وتوفيق الحكيم

(٢) لقد وضعنا للصحافه الإسلاميه اسلوبا واضحاً مخالفاً عن الصحافه العلمانيه فكنا نأخذ الأخبار السياسيه من رويتر ووكالات الأنباء ونقوم بتحليلها من وجهة نظر إسلاميه ونعلق عليها بخلاف الصحف الأخرى فمثلا عندما يأتى خبر من دوله إسلاميه عند وقوع حادث ونجد ان الوكاله بالغت فيه وظهر انها تشوه هذه الدوله كنا نقوم بالتعليق ونظهر حجم هذا الخبر ، وقد علمت ان هذا الأسلوب أصبح يدرس فى كليات الإعلام وخاصة الإعلام الإسلامى لكشف دسائس الأساليب الإستعماريه لوكالات الأنباء العالميه

(٣) لقد عملت بصحيفة الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٣٨ عندما فكر الإمام الشهيد حسن البنا فى إصدار مجلة تكون لسان حال دعوة الجماعه وصدرت النذير - واسم النذير يعنى أن الدعوه تخرج إلى حيز الإنذار والمواجهه مع خصوم الدعوه وهم الذين يخالفون الاسلام من رجال السياسه والعلمانيه والليبراليين وكل الطوائف التى لا تعتنق الفكره الإسلاميه وتعتقد ان الإسلام مجرد عبادة أما أن الإسلام دين ودوله فلا ، ولقد ذكر طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافه أنه ينبغى علينا فى مصر ان نقلد الحضارة الغربيه حلوها ومرها ، وكان هذا هو التيار السائد فى ذلك الوقت حتى ان الجماعات الدينيه الموجوده كانت تنص فى مبادئها ألا تشتغل بالأمور السياسيه

فالإسلام بمعنى دين ودوله كان هذا معنى جديداً وغير مفهوم فى ذلك الوقت على المسرح السياسى

كانت المجلات الدينيه الموجودة فى ذلك الوقت تقوم بالوعظ والإرشاد وشرح الأحاديث النبوية فجاءت النذير (مجلة سياسيه إسلاميه) تركز على المعنى السياسى ، وكان هذا غريباً على العاملين فى الحقل السياسى فلم يكن يناقش القضايا السياسيه والإقتصاديه غير الصحف اليوميه ، ولذلك نزلت (النذير) تحت شعار سياسة إسلاميه لجماعه دينيه بهذا الفهم ، وهو أن تتصدى للأمور

وتناقش القضايا وتنقد الآراء سواء كان مجلة أو صحيفه سياسيه ، وقد نجح الإخوان المسلمين فى ذلك فقد حققت النذير هدفين هما :

(أولا) شمولية الإسلام : أى أن الإسلام دين ودوله ، هذا المعنى كان غير مفهوم من قبل حتى جاء الوقت الذى اعترف المسؤولون وغيرهم أن الإسلام فعلا دين ودوله .

(ثانياً) هو الجهاد واحيائه فى نفوس المسلمين ، وكان الجهاد قد اندرس وأصبح الجهاد عبارة عن جهاد النفس ، أما الجهاد بمعنى محاربة المستعمر باسم الإسلام فلم يكن معروفا ولذلك أحيا الإخوان المسلمين معنى الجهاد بأنه جهاد المستعمر ، وان الجهاد فريضه إسلاميه على كل مسلم مطالب بمحاربة الاستعمار وليس محاربة المستعمر فى مصر بل محاربة المستعمر فى جميع ديار المسلمين تحقيقاً لعالمية الإسلام ولذلك جاءت النذير بشمول الدعوة وعالمية الإسلام والجهاد فى سبيل الله فى الأرض ، هذه المعانى كانت جديدة ونزلت مجلة النذير تبرز هذه المعانى وتجسمها فى منتهى القوة والحماس ، وتنقد وتناقش كأقوى ما يكون المناقشه ، هذه المعانى انفردت بها النذير كمجلة دينيه ، حتى أن الجماعه السياسيين كانوا يقولون ان جماعة الإخوان المسلمين هى جماعة سياسيه بخلاف الجماعات الدينيه الموجودة فى ذلك الوقت مثل جمعية أنصار السنه ومكارم الأخلاق والطرق الصوفيه

(٤) كان للصحافة الإسلامية موقفاً واضحاً من القضايا الآتية :

(١) قضايا المجتمع وخاصة عمل المرأة وتعليمها .

(٢) الاقتصاد والربا.

(٣) قضية تطبيق الشريعة الإسلامية .

بالنسبة المرأة فإن موقفنا واضح دائماً فعلى المرأة أن ترتدى ملابس محتشمة وأن تكون ربة بيت فلقد من الله عليها أن تصنع لنا الرجال وزوجات المستقبل أما بالنسبة لعملها فيكون عملا محدداً مثل أن تكون طبيبة أمراض النساء والولادة والأطفال ، وأن تعمل فيكون هذا لضرورة ، وأن يكفل لها المجتمع كل ضمانات الحشمة والوقار .

وقد كفل لها الإسلام التكافل الإجتماعى بأنه إذا فقدت زوجة زوجها ومعها أولاد أصبحت النفقة واجبه على أقارب الزوج والزوجة ، فإن لم يعطوها فعلى بيت مال المسلمين أن يقدم لها حاجتها .

وفى الواقع كان بعض الناس يعترض علينا عندما نكشف هذا بحجة أنه لا يوجد مجتمع إسلامى فأقول لهم : إن هذا لايحتاج أى عناء بل هو سهل .

لقد كان توجد حملات صحفية عنيفة لتحرير المرأة يقوم بها مصطفى أمين وعلى أمين وانطلق المجتمع وراء الشعارات المستوردة من الغرب بأن المرأة نصف المجتمع وهى مثل الرجل تماماً ، الان نرى الغرب يطالب بعودة المرأة إلى منزلها ، وقال مصطفى أمين فى حديث صحفى فى جريدة مايو : إنى أمرت بناتى بعدم العمل إلا بعد أن يربوا أولادهم حتى لا يربى أبنائهم الخادمات لقد اثبتت الأيام أننا نكتب من واقع الإسلام ، لقد حل الإسلام جميع المشاكل ولوسرنا عليه لما كان هذا هو واقعنا .

ولقد أثبتت الأيام أن الإمام الشهيد ، كان يقول جميع كلامه وهو معتدل المزاج ، ولم يكن يكفر أحداً أو يخاصم أحداً على رأى .

أقول كلمة أخيرة للمرأة : عودى لبيتك وأولادك خير لك ، وصونى عرضك وإسلامك خير لك من هذا الوضع المضطرب الذى تعيشينه .

(ثانياً) أما عن الإقتصاد والربا فلقد أوضحنا فى جميع صحفنا أن الربا (قليله و كثيره) حرام سواء استخدم فى الإنتاج أم الاستهلاك فهو حرام ، وأن يبحث المسلمون عن بديل للربا لأن الربا يأكل اقتصاد المسلمين وأثبتت الأيام صدق ما دعونا إليه واصبحنا الان نجد البنوك الإسلامية تتقدم لتسد هذه الثغرة .

(ثالثاً) قضية الشريعة الاسلامية :

عندما كنا ننادى بتطبيق الشريعة الإسلامية يقول لنا المسؤولون :

تريدون قطع يد السارق ، هذه وحشية حتى أن بعض الناس كانوا يقولون لنا : لا تقولوا هذا الكلام .

وفى الحقيقة لقد لعبت صحف الإخوان المسلمين دوراً كبيراً فى تهيئة الرأى العام (١٩٣٨-١٩٨٢) والمناداه بتطبيق الشريعة الإسلامية ومخاطبة المسؤلين بالعمل على سرعة تطبيق الشريعة ، الان نجنى الثمار ، لقد أصبحت الحكومة تقول أنها تسعى لتطبيق الشريعة وتطلب من مجلس الشعب العمل على سرعة الإنتهاء من مراجعة قوانين الشريعة الإسلامية .

ولقد لعبت مجلة الدعوة فى الفترة من ٧٦ إلى ٨١ دوراً كبيراً فى إمخاطبة الرأى العام، تواجه المسؤولين وتعاتبهم على عدم تجاوبهم بسرعة تطبيق الشريعة الآن الحمدلله لقد خطت بعض البلاد الإسلاميه فى تطبيقها بعض أحكام الشريعه الإسلامية مثل المملكة العربية السعودية والباكستان وإيران. وأخيراً لقد شعرت بالسعادة الغامرة عندما بدأت السودان تطبق الشريعه الاسلامية وتمنع الخمور وهذا دليل واضح على إقبال الدول الإسلامية على تطبيق الشريعة ، ومنذ وقت بعيد قرر مؤتمر لاهاى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان .

ويتساءل الناس : ماذا فعل الإخوان المسلمون وصحفهم؟

الحقيقة ، أن الإخوان المسلمين حققوا هدفين هما :

أن الإسلام دين ودولة ، بعد أن كانت الجماعات الدينية تساير مفهوماً جزئياً بأن الإسلام دين عبادة فقط ،ولقد اعترف المسؤولون بذلك .

ثانياً :الهدف الثانى: إعلان صيحة تطبيق الشريعة الإسلامية وجعل الرأى العام يطالب بتطبيقها والعمل على جعلها شريعة المجتمع الإسلامى .

(٤) إن الصحف الإسلامية صحف مبادىء كما أنها تنشر الخبر والمقال من مفهوم الإسلام حتى عندما تنشر إعلانات الزينة للسيدات توضح الجريدة أن على الزوجات أن يتزين لأزواجهن فى المنازل ولا يتبرجن ويخرجن فى الطرقات فيكن عرضة للفتنة ، وعلى الصحف الإسلامية أن تنشىء شركة إعلانات من مفهوم إسلامى .

إننا نريد للصحافة الإسلامية التى تحمل رسالة الإسلام وتدعو إلى تطبيق شريعة وتنفذ منهاجه فى كل ناحية من نواحى الحياة ، كما تتحدث عن شموليه الإسلام وأن تكون صحافة عصرية فى شكلها ومظهرها وطبعها وتنسيقها وتأخذ بأحدث أساليب الطباعة من ناحية الشكل ، أما من ناحية المضمون فينبغى أن تكون أصيلة فى مضمونها فتدعو إلى الإسلام صافيا نقياً نظيفاً من كل ما علق به من شوائب وما دخل عليها من بدع وإسرائيليات .

وعلى الصحافة الإسلامية أن تكون متصلة بواقع الحياة وقضايا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فالإسلام وطن وجنسية ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. وعلى الصحافة الإسلامية أن تكون شمولية تكتب بروح الأصالة والمعاصرة .

(٥) الصحف الإسلامية القائمة الآن هي أمل المسلمين وقد ظن أعداء المسلمين أنه بإبعاد الإخوان عن الشباب فلن تقوم صحوة إسلامية لقد ظهرت الصحف الإسلامية بفضل الله، والان في الغرب نفسه صحوة إسلامية وجميع بلدان العالم وعلى الصحافة الإسلامية أو توقظ الوعي وتوجه هذه الصحف التوجيه الصحيح وتدعو الناس إلى اليقظة من الغفلة وتعلم الناس أن جميع الشعوب المسيطرة تتربص بالإسلام وعلى الصحافة الإسلاميه أن تطلب من الصحف الإسلامية أن تكون صحفاً عملية تخوض جميع مجالات الحياة من طب وهندسه وفلك واقتصاد وتعمل أسلحه الحياة في كل جوانبها والعودة إلى الدولة الإسلاميه :

(٦) لقد علمتنا التجارب أن لا نخشى في الله لومه لائم، وأن نقول كلمه الحق خالصه لوجه الله، فإن كلمه الله هي العليا وعلى المسلم أن يتقبل كل شيء، وهذا سر مقاومته لكل قوى البغي التي لا يستطيع الإنسان العادي أن يقاومها إلا بالإيمان وعلى المؤمن بالفكرة أن يخلص لدعوته حتى تتغلغل في قلبه وتملك عليه كل حواسه، إن تطبيق الشريعه الإسلاميه في جميع ديار المسلمين وتحرير المسجد الأقصى وعودة الخلافه الإسلاميه هي أهم أمنياتنا .

(من حديث أجراه معه الأستاذ علي عبد الرحمن)

الفصل الخامس

تزكية النفس

(عبد الحليم محمود)

درست علم النفس وتاريخ الأديان وعلم الاجتماع والفلسفة فى جامعة السربون وكانت أطروحة الدكتوراه عن التصوف الإسلامى : من خلال شخصية (الحارث ابن أسد المحاسبى) .

منهجى الاتباع : وهو المبدأ الإسلامى الذى يدين به كل باحث صاحبه شعور صادق من المؤمنين . إنى أؤمن بأن لاطريق للنجاة بالنسبة للفرد ولاطريق للنجاة بالنسبة للأمة إلا إذا اتخذت من رسول الله أسوة يتبع طريقه على هدى ويلتزم سبيله فى صدق .

كان خلقه القرآن : أتقرأ سورة المؤمنين (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) إن منهج الربانية هو منهج الاتباع .

أؤمن بأن الحضارة المادية الحديثة والقديمة فى دقائقها وفى عظمتها إنما هى أثر من آثار العقل بيد أن الدين إنما هو وحى والوحى يتبع والاتباع هو منهج التدين فى مسائل الدين إن الله اشترى من تعاقد بين الله والمؤمنين : عهد الإيمان من شروطه الجود بالمال والنفس أصبحت العربية بنزول القرآن لغة مقدسه .

(٢) لما حدث التحول العلمانى فى تركيا تطلعت العيون إلى الأزهر إذ كان لابد للناس من أب روحى ونظروا إلى شيخ الأزهر على أنه شيخ الإسلام

واحتلت مصر منذ ذلك الحين مركز الزعامة الدينيه فى العالم الإسلامى. لقد قام الأزهر طيلة عشرة قرون فى وجه الزحف الفكرى ليعلن للناس رسالة الله آخر الرسالات صافية نقية.

وهذه المكانة للأزهر يعترف بها المستعمرون والمبشرون : يقول أحدهم ان العمامة البيضاء فى أفريقيا أخطر من القنبلة الذرية.

ان هناك عوامل كثيرة تكالبت على النزول بالأزهر عن مكانه ، وأهمها الاستعمار والتبشير . إن كان لابد فى نظر أعداء الإسلام من هدم الأزهروبدأت عوامل الهدم . بدأت السخرية بعلماء الأزهر فى التعليم ، بدأ ذلك فى التمثيليات وفى الأفلام وفى الصحف وفى المجلات .

وكان المثل الصارخ تلك القصه التى كتبها أحد كبار الكتاب بفرنسا واتخذ من قسيس منها مجالا لسخريته وتهكمه فاذا التليفزيون يخرجها أياما متواليه متخذاً منها شيء مجالا للتهكم والسخرية ولم يجد المخرج من يقول له : إن هذا انحراف ولم يعاقبه أحد ولم يسيء إليه إنسان .

وهذه الأفلام المأجورة التى تكتب هنا وهناك عن التشكيك فى الدين وفى القيم الأخلاقية وفى الهجوم على التشريع الإلهى.

إنها لا تجد من يقول لها : إنك أفلام مأجورة ، أقل مايمكن أن يزجوا فى السجن لتخرس منهم الألسن .

ان لكل بلد مقدسات ومن مقدسات أمريكا مثلا النظام الرأسمالى ، ومن مقدسات روسيا النظام الشيوعى ، وهذه المقدسات لا تمس . أليست العقيدة من المقدسات التى لا تمس .

إن المنحرفين عقيديا ،والمنحرفين أخلاقياً، والمنحرفين اجتماعيا على اختلاف ألوانهم يسرحون ويمرحون كيفما شاءوا فى الأقطار العربية فلا يجدون من

يردعهم وتتكاثف الأقلام المأجورة والأقلام المستوردة والمنحرفة ووسائل الأعلام على التشكيك فى العقيدة والقيم الأخلاقية والتشريع الربانى ونشر التحلل الأخلاقى بكل الطرق .

وهذه الآراء المبتورة التى تتنافى مع الدين ومع الفضيلة والتى يروجها اليهود فى كل مكان ، هل تجد من يقف فى وجهها .

لقد رتبوا لنجاح كارل ماركس ، وما قيل له أن الناس يعيشون بغير عقيدة قال إن البديل للدين هو المسرح ، ألهوهم بالمسرح ، أنشروا المسرح فى كل مكان فيجد فيه الناس البديل عن الدين ، ثم ان الشيوعية عقيدة .

معاول الشيوعية تنال من الدين فى كل مكان تسود فيه الشيوعية .

دارون صاحب نظرية التطور والارتقاء : (الإنسان أصله قرد) وهى نظرية تتنافى مع كل الأديان التى ارتقت بالإنسان معبرة عن الحقيقة الكريمة: الإنسانية أصلها آدم خلقه الله بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه وأقامه بالجنة) نظرية دارون لم تثبت وهى كل يوم تزداد ضعفاً .

إن الإنسانية متطورة فى العلوم المادية المكتسبة ، هذه حقيقة لا جدال فيها ولكن الفكر (عقيدة وأخلاقا وتشريعا) والذهن والذكاء والعقل ان كل ذلك لا تطور فيه .

وإذا قلت ان الإنسانية متطورة عقلا وذكاء وذهنا فانك تكون قد هدمت كل القيم الفاضلة بجرة قلم . ذلك أنه مادامت الإنسانية متطورة فان كل قيمها الفاضـــلة الحالية نسبيه متطورة معها ، فلا يتأتى الحديث عن حق فى العقيدة والأخلاق أو التشريع أو نظام المجتمع وتنهار بذلك الأخلاق والأديان والمثل، ولا يصبح للإنسانية إلا الشهوات والغرائز ، وإذا خضعت القيم العليا للنسبيه والتطور فلا قيم .

وثمرة نظرية دارون هدم القيم العليا، ومن أجل ذلك رتب اليهود نجاحها، وكذلك فرويد ورأيه في الغريزة الجنسية وجعله كل سعي الإنسان لإرضاءها حتى الرحمة والرأفة والمروءة تقوم على الغريزة الجنسية، أما نيتشه المنكر للأديان والألوهية والأخلاق، وهو مجدد دعوة أبيقور الاستمتاع بأية وسيلة.

وقوله: إن ما تعارف عليه الناس من أخلاق وفضائل إنما هو ضعف في الطبيعة رتب اليهود نجاح هؤلاء ونجاح كل مفسد. وقد وقف الأزهر في وجه ذلك. إن الأزهر في محنته الحالية لا يجد من يأخذ بيده من هؤلاء المؤمنين النابهين وهم بذلك آثمون.

ما هو الأزهر، إنه الممثل للإسلام القائم على نشره، إنه رمز الإسلام، فإذا أهين رمز الإسلام أو نيل منه فقد أهين الإسلام.

ولم يكن الأزهر يوماً عالة على الحكومة، ذلك لأن الأزهر من أجل حفظ لغة الأمة ودينها أوقاف كثيرة، وكان الأزهر يعيش في حدود أوقافه كريم النفس رافع الرأس، وكان صدر الحاكمين يضيق أحياناً فما كان لهم في إخضاع الأزهر من سبيل في ناحية الرزق، ثم أخذ الحاكمون في عصر دولة محمد على يحتالون للأمر حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ويعطوه مالا من خزينة الدولة يضيق عليه منه سنوياً ولا تساير نمو الأزهر وتطوره ... »

(٢)

إن غيرة الدكتور عبد الحليم محمود على الأزهر كانت كبيرة ودائمة ومتصلة ولقد كانت له مواقف كثيرة منها، فقد قدم استقالته عام ١٩٧٤ لما رأى أن القرار الخاص بتنظيم وزارة شئون الأزهر فيه عدوان على استقلال الأزهر وحصانته فكتب يقول:

« لقد انحط القرار بقيمة الأزهر انحطاطاً كبيراً وإن المحافظة على الأزهر كانت وما تزال من أخطر المهام التي قامت بها مصر فكان لها بذلك مجد من أفخر

أمجادها التاريخية ، وكانت لها بذلك مكانتها القيادية فى العالم العربى والإسلامى ، وكانت لها رسالتها التى تقوم بها فى المجال الفكرى فى العالم كله ، أما القرار فقد انحط بهذه القيمة درجات ، وبينما الأزهريون ينتظرون بفارغ الصبر صدور هذه اللائحة التى تضع الأمور فى نصابها ، تمكن الأزهر من تصفية أوضاعه وترد له ولشيخه مكانتهما ، وتضع نهاية لتدخل وزير الأزهر فى أمور نص القانون على أن تحل اللائحة محل تدخله فيها مدى أربعة أشهر من صدوره . ومن هنا فإننى رأيت فى القرار :

* إنسلاخاً عن القانون فى مواضع عديدة
* إنكاراً لمبدأ سيادة القانون
* تهديداً عاماً للأوضاع كلها فى الأزهر بعد استقالتى .
* ولقد قدمت استقالتى لأكشف ذلك .
* وكان له وقفة الحاكم يوم أن عرضت فكرة تأليف الكتب المشتركة فى الدين والأخلاق بين علماء المسلمين ورجال الدين المسيحيين ، فقد توجه إليه أحد الوزراء ليدرس معه خطوات تنفيذ هذه الفكرة ولكنه قال للوزير :

ـ إن مثل هذه الفكرة إذا طلبت فإنما توجه إلينا من كبار المسئولين مباشرة ، ويوم يطلب منا مثل هذه الكتب المشتركة فلن يكون ردى إلا تقديم استقالتى ..

وهكذا ماتت الفكرة . .

ولما ظهرت بدعة تعديل قانون الأحوال الشخصية أصدر بياناً قال فيه :

« إنه مما يشبه اليقين عندنا ، أن لا ينساق مجلس الشعب وراء أهواء تنحرف بالإسلام : إنه لا قيود على الطلاق إلا من ضمير المسلم ، ولا قيود على التعدد إلا من ضمير المسلم ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

الفصل السادس

عطاء الإسلام

محمد متولى الشعراوى

إن دورى هو استكمال إيمانى أولا، لايؤمن أحدهم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ، فإذا كنت قد ذقت شيئاً من حلاوة هذا الدين الذى آمنت به ، فإن من كمال إيمانى أن أنقل هذه الحلاوة إلى سواى ، إن كل مريد الإصلاح يكون أنانياً أيضاً قد يبدو فى مظهر الإيثار ولكنه فى الحقيقة الواقعة مظهر الأثرة والأنانية لماذا لأن المصلح لا يتحرك للإصـــلاح إلا إذا كان رأى قدمه فمن الخير لنفسه ألا يوجد فساد ، فحين يحارب الفساد فى أى مظهر من المظاهر ، لا نقول إنه يصلح المجتمع فقط ، ولكنه يريد أن يكسب من هذا وأن يستريح ، لأن الإنسان حين يكون مستقيم السلوك يريح غيره .

إذن فصوت الإصلاح فى كل مجال من مجالاته يعتبر حباً للخير ، فى ذات النفس . . .

كل دور المصلح إنما هو استكمال ذاتيته الإيمانية ، فنقل العلم إلى الغير يعطينا صورة كريمة لأنه عندما أنقل العلم للغير أريد من الغير أن يسوس حياته على ضوء ما علم ، ونحن نتكلم على أننا مخلوقين لله آمنا برسالات السماء ، ومتفقون على أن هناك رسالة جاءت هى رسالة خاتمة : هى رسالة الإسلام ، والحياة فيها قضايا يجب أن تكون أصيلة ، قضايا أصيلة مسيطرة لا لرأيى ولا لرأيك ، لأن الأديان إنما جاءت لتعصمنى من رأيك وتعصمك من رأيى :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض)

فالذى يفسد الآراء هو الهوى ، والقضايا الأصيلة التى ليس لنا منها أى عمل أبداً جمعها الله فى تشريعه فى شىء إسمه المحكم لأنه لو ترك كل أمر لاجتهادنا لأدخلنا الغاية فى الصراعات ، فكان لا بد أن يأتى بأصول : هذه الأصول غير محكومة لا لهواى ولا لهواك ولا لعقلى ولا لعقلك ، لماذا لأن العقل يأخذ حصيلة تجارب ناقصة ، مستواه الثقافى محدود ، والذى يدل على ذلك الناس الذين ارتضوا أن يسوسوا حياتهم بقوانين من عندهم لا تنضج القوانين عندهم مرة واحدة ، فهم يصنعون القوانين وعند تطبيقها يجدون أن هناك عشرات فيحاولون تعديلها ويحاولون تغييرها ، لأن المشرع ساعة شرع غاب عن ذهنه أولا ما يئول إليه التطوير ولكن الذى شرع فى القضايا الأصيلة هو عالم الغيب ولا يوجد شىء يغيب عنه ، إذا شرع تشريعاً فى القضايا الأصيلة يصح من غير الممكن أن يجىء عليه استدراك من واقع المجتمع ، لكن قوانين البشر يأتى المجتمع بأحداثه ويضغط بهذه الأحداث فيضطرهم إلى أن يغيروا ولكن بعد ماذا ؟ بعد ما يكون المجتمع قد شقى بتجربة الأحداث ، فالإسلام إنما جاء ليعصمنى من هذه المسألة ، إذن فالأصول ضمنها الله لنا ، أما الشىء الذى لا يضر إن اختلفتم فقد تركه الله لكم ولكن للاجتهاد فيه ، ولكن الذى يحدث أن كل واحد يعتبر أن رأيه هو الصواب ورأى غيره هو الخطأ ، ولو أراده الله واحداً لجعله من المحكم الذى لا اجتهاد فيه أبداً ، ولكن تركه محتمل الاجتهاد .

(٢) يجب أن يستقبل قضايا الإسلام على أن الإسلام معناه أولا أسلم يقتضى مسلماً وهو الإنسان ، ومسلماً إليه ومسلماً فيه ، أنا لا أسلم نفسى إلى مساو من البشر ، وإنما لا أسلم زمامى إلا لمن أثق أنه أقدر منى وأحكم ،

كذلك أما حين أسلم زمامي أقول أنني أسلمت زمامي إلى أقدر منا جميعا وأحكم ، هذا معنى الإسلام : إسلامي انني ألقي زمامي بيدي للحق سبحانه وتعالى ، وكل عملي أن اوثق ماصدر عن الله وصدر عن رسول الله الذي هو المشرع الثاني .

أنا وأنت محكومان إلى الأعلى . إلى الله . هذه فائدة الإسلام ، لا تابع ولا متبوع ولكن كلنا عبيد الله .

(٣) إن كل جنس ينقسم إلى نوعين ولو أن النوعين الإثنين رسالتهما واحدة. لما انقسم الجنس إلى نوعين ، ولكن ان ينقسم جنس واحد إلى نوعين فإن هناك صلة تجمعهما وأخرى تفرقهما ، الإنسان رجل وامرأة ، الجنس الإنساني رجل وامرأة ، وهل بقاء النوع يكفي منه واحد ، إذن لابد أن يكون اثنين ، وهناك أمور مشتركة بينهما كجنس وأمور مختلفة كنوع ، وهذا النوع ينقسم إلى أفراد لكل فرد خاصية . هذا مهندس وهذا طبيب وهذا صحفي لأن المجتمع يريد ذلك ، وأنا حجتي في ذلك قول الله تعالى (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) ليل ونهار اسمهما زمن . إذن هذا الزمن ظرف ووعاء لأحداث وانقسم إلى نوعين والجنس كذلك وعاء للأحداث إنما إي حدث يقع في هذا ، هذه هي النوعية فانقسم الإنسان إلى ذكر وأنثى ، وذلك لاختلاف المهمة حتى يجيء الليل وسكنه راحة ، وقال : (وخلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها) أي لكل واحد منهما مهمة فإذا حاول واحد أن يأخذ مهمة الثاني فلا يجوز لأن ذلك يجعل المرأة رجلا ومن الرجل امرأة ، ومن الشرف للمرأة ان كرمها الله وجعلها (ست بيت) انما هم أرادوا لها غير ذلك ، ضنوا عليها بعرق حياتهم فأحبوا أن تشقى وتعرق ، ولو أن المرأة قدرت مسئوليتها وراعت متطلبات البيت وهي تعمل في الخارج تقول ان الوقت لم يعد كافيا لكل ذلك ، ويقال ان المغزل في يد المرأة كالسيف في يد المجاهد .^

(٤) الأديان السماوية لم تتعدد ، بل تواكبت وتلاحقت . جاءت بعضها بعد بعض ، وليس هذا تعدد وإنما هى حلقات وصل المخلوق بالخالق ، فالأديان وإن تلاحقت وتواكبت إلا أنها التقت على أصل واحد هو الإيمان بوجود إله خالق رازق له مطلق القدرة ، ومطلق العلم الواسع ، ومطلق الحكمة . إلا أن حركة الحياة وظروفها هى التى تتغير . فتجد قضايا لم تكن موجودة فى القديم ، ثم جرت نشاطات العقل . إذن يجب أن تتعرض الرسالات لها بما يناسب البيئة والعصر ، ولكن لماذا الاختلاف مادام كان الأصل واحداً ، لا يمكن أن يكون الحق الذى مبعثه مصدر واحد . أن يختلف أبداً . الحقيقة أن الخلاف نجم عن أن كل جماعة تريد اقامة سلطة زمنية لها بجوار الله ، ولو أن كل واحد بقى على النهج السليم لما نشأ الاختلاف ، سبب الاختلاف إذن هو اقامة سلطة زمنية ، بجوار الله ، كل إنسان يريد اضافة شيء أو تغيير شيء . هنا تتدخل السماء لتعدل الأوضاع وتردها إلى الله .

إذن الأصل الأصيل الواحد الذى لا خلاف فيه أبداً بين الأديان السماوية أن نؤمن بالله ومادمنا قد آمنا بالله وهو قمة الإيمان نؤمن ببلاغ رسل الله . إذن عندما تتعاقب الرسل لم يتعرضوا الأصل الأصيل أى الدين فهو الأصل العقيدى الذى لا يتغير، انما حركة الحياة هى التى تتغير بما يوائم نشاطات الذهن فى هذه الحركة . الأصل العقيدى الأول لا خلاف فيه . الذى يختلف هو التشريع ، فلا يمكن أن يقال أن الأديان تعددت الا اذا كان لها تعاصر واحد . كل جماعة حاولت أن تحتفظ بما انتهت اليه أهواؤها .

المؤمن يرى الأمور من زاوية أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وهو الذى رزق وهو الذى يعلم ما يحقق مصالح خلقه ، ولو اقتنعنا بهذه القضية لكان ذلك كافياً لكى يتجه البشر بطاقاتهم كلها إلى العلم المادى التجريبى الذى يرتقى بحياتهم تاركين النظم الخاضعة للهوى، مستبدلين بها هوى واحداً يحكمهم جميعاً

وعندما نخضع أنا وأنت لحكم من نعتقد أنه أقوى منا فلا ذلة لى ولا لك ، لذلك كان الحاكم فى عرف الإسلام مشرفاً على تنفيذ الشرع ، أى أنه لا يشرع ، ولا يدخل هواه فى التشريع .

(٨) لا أنا ولا الإسلام ضد العلم الحديث أو العصر، على أساس أن يكون شيئاً نافعاً للناس يقربهم إلى من خالقهم ، أما إذا استخدم العلم كوسيلة للطعن فى الإيمان وإبعاد الناس عن الدنيا فأنا لا أقبله .

(٩) إن ظهور قانون الصدفة ونظرية دارون وإن المادة خلقت قبل الروح وكل ما نسمعه اليوم من تشكيك فى الإيمان وفى وجود الله سبحانه وتعالى قد سجله القرآن وأنبأنا به وقال إن المضلين سيأتون ليقولوا لكم أكاذيب عن خلق السموات والأرض وعن قضية خلق الإنسان .

وإذا لم يكن الحديث عن الأجنة فى القرآن عن يقين كامل ، فكأن القرآن قد أعطى معه وسيلة هدمه ، ذلك أن هذا الكتاب سيستمر إلى يوم القيامة فإذا جاء العلم عبر ألوف السنين وأثبت عدم صحة ما ذكره القرآن ضاعت قضية الإيمان كله ولكن القائل هو الله والفاعل هو الله .

إن إعجاز القرآن لم يتوقف ولن يتوقف ، وإذا كان القرآن قد تحدى الكفار فى عصر نزوله بأن أنبأهم بما يدور داخل صدورهم ومصائرهم فإنه يتحدى الكفار حتى فى هذا الزمان ويستخدمهم فى إثبات قضية الإيمان ، تماماً كما استخدمهم وقت نزوله . إن هدف الكفار والمضللين فى سبيل الله هو إنكار هذا الدين وإنكار وجود الله ، ولكن القرآن جاء وبعد أربعة عشر قرناً ليستخدم الكفار فى أن دين الله حق ، وأن هذا الكتاب هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

إلى أى مدى علم الإنسان : هو الحياة الدنيا ، نحن نأخذ إفعل ولا تفعل عن الله ، وما شرحته إلنا السنة ، أما نشاطات الحياة الأخرى وآيات الله فى

الكون فالمطلوب أن أبحث فيها وأتأمل وأصل إلى حقائق أنتفع بها .

وعندما أقول مثلا : الروح والمادة أيهما أسبق ، فهذا بحث فى عنصرى تكوين الإنسان الذى لم يشهد خلقه ، ولا نستطيع أن نجرى عليه تجربة ، إن هذا يدخل فى علم الله ، فهو الذى خلق وهو الذى حقق ، وهو يستطيع أن يقول لنا كيف تم الخلق ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى (وما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) إذن فهذه مسألة لا يمكن أن يصل فيها العلم البشرى إلى نتيجة ، لأننا لم نحضر التجربة ولم نرها بالعين ولا نستطيع أن نجريها أو نقوم بها ، ولكن بالأذن سمعنا من الله ، وما دام الأمر غيب عنا فإن الله الذى خلقنى هو الذى يحدثنى . ومن هنا فأنا لا يمكن أن أتحدث علمياً عن العنصرين اللذين يتكون منهما الإنسان وأيهما جاء أولا ، وإذا صمم الإنسان على أن يبحث فى هذا يكون قد شغل نفسه بعلم لا ينفعه عن جهل لا يضره ، وبالتجربة أنا أستطيع أن أمسك المادة وأدخل المعمل ، ولكنى لا أستطيع أن أمسك بالروح وأدخلها إلى المعمل . فإذا أخذنا خلق الإنسان مثلا فإننا نأخذ هذا الخلق عن الله ، الذى خلق ، أما تلك النظريات فكل نظرية تهدم الأخرى وهم يجتهدون فى محاولة هدم منهج الله ونحن نقول لهم إنكم تثبتونه لأن الله أخبرنا عنكم فى القرآن منذ أربعة عشر قرناً .

الفصل السابع

التصور الاسلامى

(سيد قطب)

جاء هذا الدين لينشىء أمة ذات طابع خاص متميز منفرد ، ولعل هذا هو السر الذى يكمن وراءها إنها جاءت لقيادة منهج البشرية وتحقيق منهج الله فى الأرض وإنقاذ البشرية من القيادات الضالة والمناهج الضالة والتصورات الضالة. تعامل القرآن مع الحس والفكر والبديهة والبصيرة والبرهان العقلى وعبرة التاريخ . هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة .

* الدعوة إلى تحرير التصور الإسلامى من الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وما يثار من الجدل بين الفرق الإسلامية .

* الاستمداد مباشرة من القرآن الكريم مقومات التصور الإسلامى مع بيان خصائصه التى ينفرد بها من بين سائر التصورات .

* ما وصل إليه العالم الإسلامى من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحى كان له أثره فى الفرق والجدل .

* إن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامى التى قام بها الفارابى وابن سينا كانت إما ساذجة أو لئيمة لما فى طبيعة الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية العقيمة .

* خطأ محاولة التوفيق بين تصور قائم على التوحيد وبين تصور قائم على تعدد

* المشكلات الواقعة فى العالم الإسلامى : تلك التى أثارت الجدل بعد مقتل عثمان قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية وبالأفهام والمفهومات انحرافاً شديداً .

(١) خطأ استعادة القالب الفلسفى فى عرض حقائق التصور الإسلامى

مخالفة (إقبال) فى محاولته صياغة التصور الإسلامى فى قالب فلسفى مستمد من القوالب المعروفة عند هيجل من العقليين المثاليين وعند أوجيت كونت من الوضعيين الحسيين ، إن العقيدة تخاطب الكينونة فى الإنسان بأسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة والإيحاء ، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها ، ولا يخاطب الفكر وحده فى الكائن البشرى .

أما الفلسفة فإنها أسلوب آخر وهى تحاول أن تحصر الحقيقة فى العبارة

تنتهى الفلسفة حتى إلى التعقيد والتخليط والجفاف كلما حاولت أن تتناول مسائل العقيدة ، ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف فى كل المباحث التى تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب وفى القالب الذى ينبثق عنها .

(٢) الدفاع عن القول بأن الإسلام دين السيف وإنه انتشر بحد السيف .

المدافعون عن ذلك فى حماسة الدفاع يسقطون قيمة الجهاد فى الإسلام ويضيقون نطاقه وينسون أن الإسلام بوصفه المنهج الإلهى الأخير للبشرية حقه الأصيل فى أن يقيم نظامه الخاص فى الأرض لتستمتع البشرية كلها بخيرات هذا النظام ويستمتع كل فرد داخل هذا النظام بحرية العقيدة التى يختارها حيث لا إكراه فى الدين .

ولكى يظلل الإنسان البشرية لا بد من إقامة سلطان خير وقانون خير ونظام خير يحسب حسابه كل من يفكر فى الاعتداء على حرية الدعوة وحرية الاعتقاد فى الأرض .

(٢) إن البحوث التى كتبت للرد على إنحراف معين قد أنشأت بدورها انحرافاً آخر نقل ذلك توجيهات الشيخ محمد عبده ومحاضرات اقبال .

لقد واجه الشيخ محمد عبده بيئة فكرية جامدة أغلقت باب الإجتهاد وأنكرت على العقل دوره فى فهم شريعة الله واستنباط الأحكام منها واكتفت بالكتب التى ألفها المتأخرون فى عصر الجمود العقلى ، وهى فى الوقت ذاته تعتمد على الخرافات والتصورات الدنيئة العالية ، كما واجه فترة كان العقل فيها يعبد فى أوربا ويخضع أهلها إليها وخاصة بعد الفتوحات العلمية ، فأراد أن يواجه هذه البيئة الخاصة فى الشرق ، وعقيدة القضاء والقدر وتعطيل العقل البشرى باثبات قيمة العقل تجاه النص وإحياء فكرة الاجتهاد ومحاربة الخرافة والجهل فى الفكر الإسلامى، ثم إثبات أن الإسلام جعل للعقل قيمة وعملا فى الدين والحياة وليس كما يزعم بعض الافرنج أنه قضى على المسلمين بالجبر المطلق وفقدان الاختيار ، ولما أراد أن يواجه الجمود العقلى فى الشرق والفتنة بالعقل فى الغرب جعل العقل البشرى نداً للوحى فى هداية الإنسان ولم يقف به عند أن يكون جهازاً من أجهزة الكائن البشرى يتلقى الوحى ومنع أن يقع خلاف مابين مفهوم العقل ومايجىء به الوحى ، ولم يقف بالعقل عند أن يدرك مايدركه ويسلم بما هو فوق إدراكه ، وبما أن العقل وهو الكينونة الإنسانية بجملتها غير كلى ولا مطلق ومحدود بحدود الزمان والمكان ، بينما الوحى يتناول حقائق مطلقة فى بعض الأحيان كحقيقة الألوهيه وكيفية تعلق الإرادة الإلهيه بخلق الحوادث وليس على العقل إلا التسليم بهذه الكليات "المطلقة" التى لا سبيل له إلى إدراكها ، وساق حجة تبدو منطقيه ولكنها من فعل الرغبه فى تقويم ذلك الإنحراف البيئى الخاص الذى يحتقر العقل ويهمل دوره .

العقل والوحى من آثار الله ولكنهما ليسا ندين فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل . أحدهما جاء ليكون هو الأصل الذى يرجع إليه الآخر والميزان الذى

يختبر الاخر عنده بمقرراته ومفهوماته وتصوراته ويصحح به اختلاله وانحرافاته فبينهما ولا شك توافقاً وانسجام، ولكن على هذا الأساس لا على أساس أنهما ندان متعادلان وأحدهما كفؤ للآخر.

وقد تأثر بهذه النظرة تلميذه رشيد رضا، والشيخ المغربى الذى صرح بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل، وهو مبدأ خطر، فإطلاق كلمة العقل يرد الأمر إلى شيء غير واقعى، فهناك عقلى وعقلك، وعقل فلان، وليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل يحاكم النص القرآنى إلى مقرراته فإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة فإن الأمر ينتهى إلى فوضى.

(٢) وقد واجه «إقبال» بيئة فكرية تائهة فى غيبوبة وإشراقات النصوص العجمى كما يسميه، فراعه هذا العناء الذى لاوجود له للذاتيه الإنسانية كما راعته السلبية التى لاعمل معها للإنسان ولا أثر فى هذه الأرض، وليس هذا هو طبيعة الإسلام بحال، كما واجه التفكير الحسى فى المذهب الوضعى ومذهب التجريبيين فى العالم الغربى، كذلك واجه ما أعلنه (نيتشه فى «هكذا قال زرادشت») عن مولد الإنسان الأعلى «السوبرمان» وموت الإله، وذلك فى تخبطات الصرع التى كتبها نيتشه وسماها بعضهم فلسفة وأراد أن ينفض عن الفكر الإسلامى والحياة الإسلامية: الضياع والعناء والسلبية كما أراد أن يثبت للفكر الإسلامى واقعية التجربة التى يعتمد عليها المذهب التجريبى ثم المذهب الوضعى.

ولكن النتيجة كانت جموحا فى إبراز الذات الإنسانيه اضطر معه إلى تأويل بعض النصوص القرآنية تأويلا تأباه طبيعته كما تأباه طبيعة التصور الإسلامى لإثبات أن الموت ليس نهاية للتجربة، ولا حتى القيامة

فالتجربة والنمو فى الذات الإنسانية تستمدان أيضاً ـ عند إقبال ـ بعد الجنة والنار مع أن التصور الإسلامى حاسم فى أن الدنيا دار ابتلاء وعمل وأن الآخرة دار حساب وجزاء ، وليست هناك فرصة للنفس البشرية للعمل إلا فى هذه الدار كما أنه لا مجال لعمل جديد فى الدار الآخرة بعد الحساب والجزاء ولكن هذا الغلو إنما جاء من الرغبة الجارفة فى إثبات وجود الذاتية واستمرارها .

لقد حفلت ديانة بنى إسرائيل اليهودية بالتصورات الوثنية واللوثة القومية على السواء ، جاءتهم رسلهم بالتوحيد الخالص ، أبوهم إبراهيم ، نبيهم موسى ، ولكنهم انحرفوا على مدى الزمن وهبطوا فى تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات وأثبتوا فى كتبهم المقدسة وفى صلب العهد القديم أساطير وتصورات عن الله سبحانه لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية .

بدأ انحرافهم وموسى بين أظهرهم ، من ذلك عبادتهم للعجل الذى صنعه لهم السامرى من الذهب الذى حملوه معهم من حلى نساء المصريين : بتصورهم لله فى قولهم : عزير بن الله ، وقولهم يد الله مغلولة ، وقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء (وإذ قلتم : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) الآيات .

ومن لوثة القومية واعتقادهم فى أن إلههم إله قومى لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا فى سلوكهم مع بعضهم البعض ، أما الغرباء غير اليهود فلا يحاسبهم معهم على سلوك معيب ، (ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) الآية .

ولم يكن الحال فى النصرانية خيراً مما كانت مع اليهودية ، بل كان الأمر أدهى وأمر ، فقد أخضعت روما النصرانية لوثنيتها العريقة (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ولكن الديانة الجديدة لم تتخلص قط من أدناس الوثنية وأرجاسها وتصوراتها الأسطورية كما آمن النصارى الراسخون فقد ظلت تلتبس

بالخلافات السياسية والعنصرية والطائفية تلبسها الأساطير الوثنية والتصورات الفلسفية ، ووقع الانقسام فى التصور بغير حد .

قالت فرقة إن المسيح إنسان محض ، وقالت فرقة إن الأب والإبن والروح القدس إن هى إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس .

فالله فى زعمهم مركب من أقانيم ثلاثة : الأب والإبن وروح القدس (والإبن هو المسيح) فانحدر الله الذى هو الأب فى صورة روح القدس وتجسد فى مريم إنسانا وولد منها فى صورة يسوع .

وفرقة قالت : إن الإبن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ، وفرقة أنكرت كون روح القدس (أقنوماً)

وقرر مجمع نيقيــه ٣٢٥ ومجمع القسطينية ٣٨١ إن الإبن وروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن روح القدس منبثق من الأب .

وقرر مجمع طليطله ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الأب أيضاً ، فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين ، كذلك ألهت جماعة منهم مريم كما ألهوا المسيح .

وقد ورد فى القرآن إشارة إلى هذه الخلافات والانحرافات ونهى لأهل الكتاب عنها وتصحيح حاسم لها وبيان لأصل العقيدة النصرانية كما جاءت من عند الله قبل التحريف والتأويل :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) : المائدة ٧٢/٧٧

(إذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس . . .):المائدة ١١٦/١١٨

وهكذا نرى مدى الانحراف الذى دخل على النصرانية من جراء تلك الملابسات التاريخية حتى انتهت إلى تلك التصورات الأسطورية التى دارت عليها الخلافات والمذابح عدة قرون .

(٣) أما الجزيرة العربية فقد شهدت ركاماً من العقائد والتصورات من بينها مانقلته من الفرس وماتسرب من اليهودية والمسيحية فى صورتهما المنحرفة مضافاً إلى وثنيتها الخاصة المتخلفة من الانحرافات فى ملة إبراهيم التى ورثها العرب صحيحة ثم حرفوها ذلك التحريف .

(وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين) : الزخرف . زعموا أن الملائكة بنات الله مع كراهتهم هم للبنات ثم عبدوا الملائكة أو تماثيلها الأصنام معتقدين أن لها عند الله شفاعة لا ترد وإنهم يتقربون بها لله سبحانه .

(ألا لله الدين الخالص) : الزمر

(ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم) : يونس

وزعموا أن بين الله سبحانه وبين الجنة نسباً ، وأن له سبحانه منهم صاحبة ولدت له الملائكة وعبدوا الجن أيضاً، وشاعت بينهم عبادة الأصنام إما بوصفها تماثيل للملائكة ، وإما بوصفها تماثيل للأجداد وإما لذاتها . وكانت الكعبة التى بنيت لعبادة الله الواحد تعج بالأصنام اذ كانت تحتوى على ثلاثمائة وستين صنماً، غير الأصنام الكبرى فى جهات متفرقة ، ومنها ما ذكر فى القرآن بالإسم : كاللات والعزى ومناة ، ومنها هبل الذى نادى أبو سفيان باسمه يوم أحد قائلا : اعل هبل .

ومما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء فى القرآن فى سورة النجم :

(أفرأيتم اللات والعزى)

وانحطت عبادة الأصنام فيهم حتى كانوا يعبدون جنس الحجر .

وعرفوا عبادة الكواكب كما عرفها الفرس من بين عباداتهم . قال صاعد : كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران ولخم وجذام المشترى

وطيء سهيلا وقيس أشعرى العبور وأســـد عطارد . جاء فى سورة فصلت : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) وفى سورة النجم (وإنه هو رب الشعرى) وكثرت الإشارات إلى خالق النجوم والكواكب وربوبية الله سبحانه لها كبقية خلائقه وذلك لنفى ألوهية الكواكب وعبادتها .

وكانت فكرة التوحيد الخالص وفكرة البعث : أشد الأفكار غرابة عندهم ذلك مع اعترافهم بوجود الله ـ سبحانه ـ وإنه الخالق للسماوات والأرض وما بينهما وإنه الخالق للسماوات والأرض وما بينهما . ولكنهم كانوا يريدون أن يعترفوا بمقتضى الوحدانية هذه وهو أن يكون الحكم لله وحده فى حياتهم وشؤونهم وأن يتلقوا منه وحده الحلال والحرام .

وجاء الإسلام من بعد تصحيحاً لجميع أنواع البلبلة التى وقعت فيها الديانات المحرفة والفلسفات الخابطة فى الظلام وما يعد رداً على جميع الانحرافات والأخطار .

الفصل الثامن

الاصالة الفكرية الإسلامية

(على سامى النشار)

لم نكن عالة على اليونان وأن فكرنا الفلسفى لم يكن موصول الوشائج بفكرهم، وإننا لم نكن أبداً صورة من صور اليونان، حقيقة أو مشوهة، بل على العكس تماماً الكيان المستقل، والينبوع الذى تفجر منه النور المشرق، الذى سطع فى أوربا، عبر أسبانيا وصقلية، وهناك تلألأ نورها وأنار أوربا القاتمة الكالحة، فأقام الحياة فيها، وخبا النور هنا، أو كاد، وأتى رجال من الغرب يحاولون القضاء على بقايا النور نهائياً، بقايا النور المنبعث من هذا الأصل الإلهى العظيم: القرآن ومحمد ﷺ.

إن كرومر قد أتى وكان إليه جماع الحروب الصليبية وفيه حقيقتها، أضغان الصليبيين القدامى وأحقادهم وسخائمهم الدنيئة، وقد عمل مع حلقة معينة لهدم الإسلام، إنه حين أتى أعلن أنه سيهدم فى مصر ثلاثاً: القرآن والكعبة والأسرة الإسلامية، ظن هذا الصليبى الصغير أنه بقادر على هدم حقيقة الكون الكبرى انه إله صغير فى يده الأمر والنهى ولكنه حاول وحاول، واستخدم ببراعة نادرة حلقة معينة، وقد استطاعت هذه الحلقة أن توجه الفكر الإسلامى الى الاتجاه الذى أراده كرومر، وحكمت مصر بالخيانة عن طريق صالون نازلى فاضل ثم حزب الأمة، ثم طه حسين ومدرسته وهى ما أسميها المدرسة الأوربية الحديثة، حديث طويل لدى عنها، انه يكشف عن تاريخ أسود ملطخ بدماء

المصريين ، وبمحاولة القضاء على عقائدهم ، حاربوا الإسلام فكرياً وسياسياً وتتبعوا كليات الإسلام وجزئياته بالتجريح والسموم واللمز ، ولم يتركوا أصلا من أصوله إلا وحاولوا تحطيمه . هاجموا الوحدة الإسلامية والوحدة العربية ودعوا إلى القومية الإقليمية المحدودة ، فأنكروا الإسلام وأنكروا العرب ، ونادوا باللغة العامية وإحلالها مكان العربية وجحدوا القرآن قانونه العظيم وأنه أصل الأحكام وهاجموا الأسرة الإسلامية ، فعلوا كل ذلك باسم التجديد ، واحتضن علماء أوربا ومستشرقوها هؤلاء التلاميذ وكتبوا عنهم بلغاتهم ؛ واشتروا منا من كتب عنهم بلغتهم .

هذه هى الحلقة المعينة التى عملت مع كرومر ، ولكن القرآن العظيم باق ، ساطع خلال الأزمان والأماكن ، لقد ذهب كرومر وذهبت مدرسته وبقى القرآن .

أما البحث العلمى فى الفكر الإسلامى فى الجامعة فقد اتجه وجهته الصحيحة وأساتذة هذا الفكر الإسلامى وقد تخلصوا من كل سيطرة أجنبية من الإنجليز والفرنسيين كما تخلصوا من سيطرة المدرسة الأوربية الحديثة فى مصر ، واستطاعوا اللهم إلا فئة قليلة أن يوجهوا الدراسات الفكرية الإسلامية وجهتها الصحيحة وأن يكشفوا حقائق الفكر الإسلامى خالصاً من كل شائبة .

وكانت كل دراسة الفكر الإسلامى من قبل فى نطاق واحد : إننا كنا أسرى للفكر اليونانى ، وينبغى أن يكون اليوم أسرى للفكر الأوربى ولا شىء أكثر ولا أقل ، عشنا من قبل بالفتنة اليونانية ولنحيا اليوم بالروح الأوربى ، ولكن الأبحاث قد كشفت اليوم عن أصالة الفكر الإسلامى وأنه سار بمقوماته الخاصة والأصلية بعيداً عن تأثير اليونان وأن هذا الفكر إنما تعبير عن دورة حضارية كبرى .

(٢)

﴿ النزاع بين المدرسة الأوربية الحديثة والمدرسة الإسلامية الحديثة ﴾

عاشت مصر وهى مركز الانبعاث العقلى فى العالم الإسلامى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى — أزمة عقلية وروحية خطيرة — كان هناك فراغ عقلى أو خلاء فكرى خطير، وكان لابد أن يملأ، وأن تتجه عقول المصريين وقلوبهم وأفئدتهم إليه، وبالتالى العقل الجمعى كله للعالم الإسلامى، كانت الحرب الأولى فاصلة بين عهدين: عهد مظلم قاتم لم يتضح فيه أى فكر أو أية وجهة نحو تصور حضارى معين، أو فكر كلى تتجه إليه أنظار الجموع وتنجذب إليه من العالم الإسلامى.

وكان كرومر مع حلقة مصرية معينة يعمل جاهداً على تحطيم بقايا (المعنويات القديمة) فى نفوس المصريين جميعا لحوربت بدهاء وذكاء نادرين، وحتى هذه المعنويات القديمة لم تكن «راسخة» أو بمعنى أدق «واضحة» فى نفوس المصريين وظهر فى كل بلد من تلك المجموعة الإسلامية آراء حضارية وأفكار نظرية بدأت تدك الكيان المتداعى — وعهد جديد فارغ كما قلت وسرعان ماظهر على مسرح الحياة المصرية بالذات — الإتجاه الحديث، هذا الاتجاه الذى أعبر عنه بهذا التعبير الغريب:

(الفتنة اليونانية)

والمسألة تحتاج إلى توضيح: كان رواد البحث الأولون فى الحضارة الإسلامية منشأها وتطورها وحقيقتها وكنهها ومنتهاها وأثرها وتأثيرها من المستشرقين والمبشرين الأوربيين، وكان هذا «الزحف الصليبى الثانى الأكبر» يسير جنباً إلى جنب مع الزحف الصليبى السياسى الأكبر بل يسبقه ويمهد له، وقد انتهت بحوث هؤلاء الزاحفين النقليين إلى أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة «متقبلة»

لا منتجة آخذة لامعطية ومقلدة لا مجتهدة ، لا ابتداع ولا خلق ، بل نقلت إليها الحضارة اليونانية أو التراث اليوناني فأخذت منه ما أخذت وشوهت منه ما شوهت ولكن لا خلق جديد ولا إبداع أصلا ، فبقى الجوهر أو الكنه كما هو ، فتغيرت الأسماء ، ولم يتغير الأصل الثابت ، ولم يطرأ جديد .

هذه هى الفتنة اليونانية ، وهذا هو تفسيرها ، افتتن المسلمين باليونان ، فى أعين هؤلاء القوم وساروا على هديهم ، وأخذوا جوهر حضارتهم وفكرهم ، فاذا وصلوا بالفكر الأوربي المعاصر فلا ضرر ولا ضرار ، وإذا نسوا أو تناسوا مبادئهم الفكرية وأصولهم العقيدية ، فقد فعل أجدادهم هذا من قبل ، وإذا فرض عليهم الفكر الأوربي ، فقد سبق لأسلافهم أن فرضوا على أنفسهم هذا الفكر ، ومن هنا انتشرت تلك الشبكة الهائلة من مدارس تبشيرية ومعاهد أوربية فى العالم الإسلامى تحطم المعنويات القديمة .

فى خلال هذا الوقت ظهرت مدرسة طه حسين ومبشريهم على مسرح التفكير المصرى . طه حسين تلميذ عبقرى لمستشرقى أوربا ، غير أنه يمتاز عنهم بمعرفته العميقة بالعربية ، نادت مدرسة طه حسين بأن العقلية عقلية (بحر أبيض) وأنها (يونانية) فى حقيقتها وأنه إذا كانت الحضارة الأوربية المعاصرة إنما هى امتداد للحضارة اليونانية ، فلامعدى إذن لمصر أن تأخذ بهذه الحضارة الأوربية حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، بشر رأس هذه المدرسة بهذا الرأى ، وانتشر فى مصر وخارج حدودها ، وحين تكونت الجامعة المصرية الأولى ، كانت شخصية الأستاذ القوية ونفوذه الواسع أكبر عامل على فرض آرائه على مناهج الجامعة ، وبدأت دراسة اليونانية واللاتينية فى صفوف كلية الآداب المختلفة ، وخضعت الأحزاب السياسية جمعاء لسيطرة الأستاذ وآرائه وكانت موطنية الإقليمية ، الوطنية المصرية مثلا والوطنية العراقيه والوطنية السورية إلخ تتابجا لآراء الأستاذ وتفكيره .

وكانت (طريقة الحياة) فى البيوت والجامع العامة والخاصة أثراً من آثار دعوة مدرسة طه حسين وكان النقد العلمى والأدبى ، وطريقة التفكير الحديثة : هما الصدى المحتم لكتاباته ، وشعر كثير من الناس مخدوعين (براحة عقلية) إن الدعوة إلى الاتجاه لأوربا إنما أتت الآن من رجل منهم .

وقد حجبت شخصية الأستاذ القوية وأسلوبه النفاذ شخصيات غيره من كبار المؤلفين والأدباء والشعراء الذين تابعوا منهجه وزاملوه فى نضاله العنيف ، وإذا قدر لتاريخ هذه المدرسة أن يكتب جانبه المنهجى فلن يجد كاتب تاريخها غير رأسها أما الآخرون فكانوا همـلا — كما أنه لم يظهر من تلامذته من يستطيع أن يحل محل أستاذه أو أن يشغل مركزه الممتاز .

وظن الناس أن قضى الأمر ، وأن دعوة أوربا من مستشرقين وغيرهم قد نجحت فى تحطيم الحياة الإسلامية ،ولكن مدرسة طه حسين مالبثت أن تلاشت شيئاً فشيئاً ، إن السبب فى هذا هو ظهور مدرسة معارضة قضت على المدرسة القضاء المبرم ، وأشاعت تصوراً روحياً جديداً ، سيطرت به نهائياً وإلى الأبد على الروح الفكرية للمصريين ، وبالتالى على الروح الفكرية للعرب والمسلمين وترنحت المدرسة الأولى تحت تأثير ضرباتها القوية حتى لتكاد أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، بل ويبدو أن أستاذ المدرسة الأولى بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً ببراعة نادرة عن جوهر فكرته وأن يتوافق مع التيار العام ، أو الآتى الجارف الذى أحدثته المدرسة الثانية .

نشأت هذه المدرسة على يد عالم يختلف عن أستاذ المدرسة الأولى إختلافاً بيناً ، سواء فى أسلوبه أو فى مادته — كان هادىء الطبع يخلو من العنف العقلى الذى تميز به الأول ، وكان قليل الانتاج الفكرى ، هذا العالم هو مصطفى عبد الرازق أول أستاذ للفلسفة الإسلامية فى الشرق،عرض هذا الأستاذ الممتاز منهجه فى دراسة التفكير العقلى ، وأدرك ببصيرة نفادة أنه كان للمسلمين منهج خاص وحضارة أصيلة بهم ، غير أنه اعتبر — وقد كان إلى حد ما تحت تأثير شخصية أستاذ المدرسة الأولى .

إن المسلمين قبلوا كثيراً من جوانب الفكر والحضارة اليونانية فى كثير أو فى بعض عناصر حضارتهم الإسلامية ، وبالرغم من هذا فقد كان لهذا الأستاذ السبق فى فهم كنه الحضارة الإسلامية الأصيلة والفكر الإسلامى الحقيقى واستطاع أن يضع أصول المدرسة الإسلامية الخالصة : المدرسة التى أرادت أن تكشف كشفاً حقيقياً عن عبقرية الحضارة والفكر الاسلامى فى مصادره الأصلية . قبل وبعد أن يتصل المسلمون وأن يعرفوا (التراث اليونانى) .

وقد كان مصطفى عبد الرازق يرى عبقرية المسلمين الأصيلة أولا فى أبحاث أهل السنة والجماعة من الخلف والسلف فى الكلام والفقه .

وقد اختلف كاتب هذه السطور مع أستاذه اختلافا بينا فى المنهج ذاته . فبينما يرى الأستاذ أنه كان لفلاسفة الاسلام أصالة فكرية تجعل لهم طابعاً خاصا يتميزون به عن فلاسفة اليونان . يرى التلميذ أن هؤلاء الفلاسفة كانوا امتداداً فكريا لايختلف عن فلاسفة اليونان — فى الكليات والجزئيات — وأنهم كانوا دوائر منفصلة عن تيار الفكر الاسلامى الأصيل، لفظهم المجتمع الاسلامى وأعلن أنهم لايمثلونه فى شىء ، ورأى التلميذ أن الفلسفة الاسلامية الحقيقية إنما تتمثل فى كتابات علماء أصول الدين (المتكلمين) وعلماء أصول الفقه (الأصوليين) .

وقد أثبت فى كتابه مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ونقد المسلمين للمنطق الارسطاليسى أن المسلمين لم يقبلوا المنطق اليونانى على الاطلاق وأنه كان له منهج خاص فى جميع علومهم العقلية والأدبية واللغوية بل وفى علومهم العملية وكشف خلال أبحاثه: «المنهج التجريبى الإسلامى» فى صورته الكاملة عند المسلمين وسبق المسلمين للأوربيين فى معرفة هذا المنهج وفى تطبيقه فى شتى علومهم نظرية أو عملية وفى ضوء هذا فسر الروح الحضارى للأمة الإسلامية وتوصل إلى أصالتها الكاملة .

غير أن أهم عمل قام به فى إشاعة آرائه هو نقل تلك الآراء — خلال الهيئات الإسلامية القوية فى مصر — إلى جمهرة المسلمين، وإلهام تلك الهيئات

كثيراً من عناصر فكرته إذ كان كاتبها ومفكرها فى بدأ جهادها العنيف لتحرير العقلية المصرية من سيطرة المدرسة الأولى فانبثقت الدعوة الإسلامية قوية فياضة تنادى بالعودة إلى (الكتاب والسنة) والأخذ بالأصول الإسلامية فى جميع درجات الحياة - سياسية واقتصادية وثقافية - وأن نلتمس الفكرة الحضارية بمعناها الواسع فى أصولنا القديمة التى ذخرت بها حياة أسلافنا ، والتى ارتفعت بهم إلى مصاف القوة والمجد حتى رسخ فى عقول المصريين وقلوبهم كل (المعنويات القديمة) ولكن على أساس واضح قوى وتنوسيت تصورات مريضة أشاعتها المدرسة الأولى :

تصورات (الوطنية الاقليمية) و (المثل الفكرية الأدبية) و (الأدب الأوربى) و (الحضارة الأوربية) وسرى فى الناس احتقار (أوربا عامة) أوربا حضارتها وفكرها ، أما منهج أوربا العلمى فكان هو منهجنا ، وكنا نحن أساتذته الأولين واتضح للناس مؤامرة أوربا القذرة - فى تحطيم المعنويات القديمة - أو تحطيم الصرح الأشم الذى أقام حياتنا ، وهو القوام والمظهر والجوهر : الإسلام .

إنتشرت آراء المدرسة الإسلامية فى الشرق فزخرت بها سوريا وليس ثم غرابة أن تنتشر تلك الآراء فى هذا الحصن الجميل من حصون الإسلام وإنما وجه الغرابة أن تظهر هذه الآراء فى العراق على يد « كاتب ممتاز » هو : محمد بن بديع شريف عراقى درس فى باكورة شبابه بمصر ولاشك أنه تأثر بالروح العامة التى سادت مصر فى ذلك الحين .

ولا مناص من الاعتراف بالواقع : أن مصر - عقل النسر القوى وجسمه - أخذت أفكار المدرسة الإسلامية وانقدحت فيها أعظم انقداح ، ومن هنا تسرى إلى جناح النسر الأيمن وجناح النسر الأيسر والنشوة تسرى شيئاً فشيئاً ثم يكون الإنقضاض ، ثم الوثبة الكبرى .

الفصل التاسع

نحو علم اجتماع إسلامي

محمد المبارك

لقد تسلل الفكر الغربي في فلسفاته الفكرية ومذاهبه العقائدية بما فيها من حق وباطل وصحيح وزائف وصدق وإفك وخير وشر من خلال التعاليم وعبر جميع فروع المعرفة والثقافة إلى عالمنا الإسلامي يحمله الإستعمار بجيوشه والغزو بشتى أنواع جنوده ودخل دخول القوى المستعلي بقوة الظاهر وفتنة الباطن ، وقد اتخذ هذا الفكر الغربي جميع خصائصه من جميع العلوم وفروع المعرفة جسراً يعبر عليه من العلوم الطبيعية التي أحلت فيها الطبيعة محل الإله الخالق فهي التي تعطي للمخلوقات مالها من صفات وتزودها بالخصائص ، وهي الناعلة الخالقة المقدرة المدبرة ، وهي نفسها كذلك المخلوقة المدبرة ، حتى العلوم الإنسانية التي جعلت من الإنسان - بصفته إنساناً متميزاً عن بقية الكائنات - موضوعا لبحثها كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والتربية والأخلاق والأدب والحقوق التي تبحث عن المعرفة الإنسانية والنفسية الإنسانية والمجتمع الانساني وتاريخ الانسان وطرق تثقيفه (تعليمه وتهذيبه) ومقاييس الجمال والحق لديه وقد كانت أقوى شحنة من تأثير الفكر الغربي عن طريق هذه العلوم الانسانية ، ذلك لأن لها خلفيات عقائدية فهي تنطلق في تصور معين للوجود كله وتشتمل على مقاييس الحق والخير والجمال ، والمنبثة عن هذا التصور وتختفي هذه وراء ظاهرها العلمي .

فالتصور العام الذى انتهى إليه الفكر الغربى بتأثير عوامل مختلفة تفاعلت للكون (الطبيعة) وللإنسان فرداً .

علم النفس وجماعة علم الاجتماع وتطور (التاريخ) ولمقاييسه للحقيقة (الفلسفة) وللحق (الحقوق) والخير (الأخلاق) والجمال (الأدب) هو الأساس الذى تقوم عليه والصعيد الذى تنطلق منه فى فروعها وجزئياتها .

وهذا التصور العام للوجود ـ فى الثقافة الغربية ـ والخلفية العقائدية لفروعها المختلفة تجرى فى كل منها مجرى الحقائق المسلمة التى اصطلح أهلها على الإيمان بها والتسليم بها جيلا بعد جيل تسليما لا يقل عن تسليم أهل الأديان لعقائدهم ، ولا سيما بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة منهم ، فهم فى قبول هذه العقائد التى يزعم أنها علمية أو عقليه ـ مقلدون لا يقبلون وضعها موضع البحث والنقد فضلا عن أن تكون موضع شك أو إنكار فتنساب فى الكتب المقررة وفى الحديث فيما بينهم على أنها من البديهيات المسلمة أو من الحقائق الثابتة ، هكذا هى عند أجيال الغربيين أو أكثرهم وجمهرتهم الآراء المتعلقة بالدين والإله والوحى والنبوات وأصل خلق الإنسان ونهاية الحياة والخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والفرق بينهم وبين أهل الأديان ولا سيما المسلمين منهم ، إن هؤلاء إنما قبل أوائلهم الحقائق الدينية بعد محاكمتها عقلياً وبعد التدقيق فى أصول قائليها وهم الأنبياء وسيرتهم وتطبيق مقاييس النقد فى صدقهم وسلامة عقولهم لتصديقهم فى ادعاء الوحى الإلهى وجميع الأجيال اللاحقة تعاود المحاكمة نفسها يكون إيمانها عن قناعة عقلية لا عن تقليد .

ونستطيع أن نلخص هذه الخلفية العقائدية المشتركة بين فروع المعرفة والثقافة الغربية بقولنا « الوجود كله منحصر فى الإنسان والطبيعة وهو جزء منها ونوع من أنواعها . والطبيعة وجدت هكذا بنفسها وكذلك سننها أو قوانينها فهى مقدرة بنفسها من غير مقدر لها .

العقل وحده طريق معرفة الحقائق ، وليس ثمة طريق آخر ، وليست المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقوقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية ، نشأت وتطورت فهي ليست ثابتة. والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعي مفكر فحسب ، وليست النفس الإنسانية إلا مجموعة من الغرائز .

هذه هي جذور العقائد الغربية سواء عند العقلانيين أم عند الماديين ، ولا يشذ عن الإيمان بها واتخاذها أساساً ومقياساً إلا فئة قليلة جداً هي بقية باقية من المؤمنين بالتفكير الديني المسيحي ، ليس في هذه الفلسفة أو الأساس الاعتقادي أو التصور الوجودي مكان للإله ، وصلته بالكون ونظامه السببي وبالإنسان ولا الوحي ولا النبوات ولا للجزاء والحياة الخالدة ولا المثل العليا الأخلاقية ولا سيما ما كان مصدره الدين ولا لسائر الغيبيات (ما وراء الطبيعة)

إن هذه المفاهيم منبثة متفرقة في مختلف العلوم التي تعلم في نظم التعليم السائدة في العالم الإسلامي وتتكون في مجموعها (مركب فكري عقائدي) يخالف الإسلام مخالفة جذرية وتكون أساساً يتجافى ويتنافى مع الإسلام ، وحصتان أو ثلاثة لتعليم الدين في التعليم الابتدائي وحصة أو حصتان في الثانوي ، ولا سيما إذا كان المنهج ناقصاً والأسلوب غير صالح لا تقف مطلقاً أمام هذا الشحن الفكري المستمر خلال سنين طويلة في أكثر من ثلاثين ســـاعة أسبوعية في الابتدائي وأكثر من عشرين ساعة في الثانوي ، وقريباً من ذلك في التعليم الجامعي وما فوق الجامعي مع ما تلقيه دور النشر والمطابع من كتب ودوريات مشربة بالروح نفسها .

إن هذه المشكلة هي أكبر المشكلات كلها بالنسبة إلى العالم الإسلامي لأنها تفقده ذاتيته وشخصيته . ويخسر رأس مال يملكه ويمكن أن تسعد به الإنسانية كلها وأن هذا النوع من الغزو أشد أنواعه فتكا ولم تعرف الأمة الإسلامية في كارثة

أشد من هؤلاء وأفظع فى نتائجها منها ، ولا تعدلها كارثة التتار ولا الحروب الصليبية ولا حروب الاستعمار بل إن جميع المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية فروع لهذه المشكلة الأساسية .

لقد كان من نتائج هذا الغزو الثقافى الفكرى خاصة فى ميادين العلوم الإنسانية إلغاء التشريع الإسلامى الخالد ذى المعالم الثابتة فى أهدافها الأخلاقية والإنسانية والصيغ المرنة المتبدلة فى مواجهة الأوضاع المستجدة والأحداث النازلة وإحلال القانون الغربى مكانه ، وكان من نتائجه أن يستبدل بالثقافة الإسلامية بمعناها الواسع المستوعب الثقافة الغربية ويكتفى برقعة تلصق بها يسمونها التعليم الدينى ليزداد المنظر تنافراً والتناقض النفسى شدة ، وكان من نتائجه كذلك بناء الحكم السياسى على أسس غير إسلامية ، يسمونها علمانية تزييناً لها وإمعاناً فى الخداع ويسخرون لها صنائع ممن صنعوا على أعينهم وربوا فى أحضانهم ويجعلون منها إبطالا لأوطانهم ترويجاً لصنيعهم فى أقصاء الإسلام باسم الحياد الدينى فى المرحلة الأولى ، وكان من نتائج هذا الغزو إعداد جيش من المثقفين ليكونوا المختصين لتنفيذ عملية تغريب الحكم والدولة السياسية ، وخرجت جيوش الاستعمار باحتفالات كبيرة للترحيب بجيوش التغريب من أبناء المسلمين أنفسهم للتخطيط لإقصاء الإسلام ثم لحصره وتطويقه فى كل ميدان ، فى حصة الدين فى التعليم وفى الأحوال الشخصية ، وفى التشريع ، وفى مراسم حضور صلاة العيدين ، فى ميدان الحكم وسياسة الدولة ، ثم لإزالته من جميع الميادين وإتمام عملية التغريب والإلحاق ، وقد تمت المراحل كلها فى بعض البلاد الإسلامية وهى سائرة فى طريقها إلى النهاية إذا لم يتم التدارك فى البلدان الأخرى .

إن حل المشكلة ليس بطرد هذه العلوم وإيصاد الأبواب أمامها وهى فى الأصل علوم لنا نحن فضل السبق فى العمل فى ميادينها والتجديد فيها فى

تاريخنا الإسلامى الويطل والشعوب الإسلامية إسهام فى تقدمها ، وإنما الحل الذى نطرحه وندعو إلى الأخذ به هو : (صياغة العلوم جميعاً صياغة إسلامية) أو بعبارة أدق : إقامتها على أسس إسلامية والسير بها من منطلقات إسلامية أى بناؤها على التصور العام للوجود الذى يقدمه الإسلام .

إذ ما الذى يرجح التصور الغربى للوجود وهو ليس حقيقة علمية ، جاءت بها المختبرات أو المعامل أو المراصد ، بل إنه لا يثبت أمام النقد العقلى وما أكثر ما تلون أو تغير فى الغرب نفسه بتغير المذاهب حتى أصبح مجرد مبرر لغايات وأهداف عملية وهو كما يرى كثير من المفكرين الغربيين أنفسهم مجرد فرضية ليس عليها ولا على غيرها دليل قاطع ، ولو قابلت هذا التصور الغربى للوجود بالتصور الإسلامى العام لوجدنا التصور الإسلامى مستوعب له ومتمم لنقصه وبه من الحجج العقلية ما يجعله الأرجح ومن النتائج العملية ما يجعله الأفضل .

ويمكن أن نلخص هذا التصور الإسلامى العام فى مقابل تلخيصنا السابق آنفاً للتصور الغربى فيما يلى :

أولا : إن الإنسان والكون (الطبيعة) الذى يعيش فيه ليسا وحدهما فى الوجود بل كلاهما يبتدىء من الله خلقاً ووجوداً وينتهيان إليه مصيراً وهو المهيمن عليهما .

ثانياً : الطبيعة لم تخلق نفسها ولم توجد بنفسها بل أوجدها الله وهى تسير على سنن مطردة وفق نظام مترابط الأجزاء والله الذى خلقها هو المقدر لسننها ونظامها .

ثالثاً : العقل الإنسانى ليس وحده أداة الوصول إلى الحقيقة بل هناك طريق آخر هو الوحى ولكل منهما ميدانه واختصاصه فالعقل أداة الوصول إلى حقائق الطبيعة وهو معرض مع ذلك للخطأ ، والوحى أداة معرفة ما وراء الطبيعة (عالم الغيب) .

رابعاً : الانسان ليس حيوانا مفكراً فحسب ، بل إن عناصر تكوينه تتجاوز ذلك فتزيد على العضوية والتفكير .

خامساً : إن الله (تبارك وتعالى) هو المشرع للانسان كما قدر للطبيعة سننها وهو المحدد عن طريق الوحى للمعالم الثابتة للأخلاق والحقوق ، والمجال مفتوح أمام الانسان فيما وراء هذه المعالم الثابتة مما هو قابل للتغير والتبدل .

سادساً : النبوات منذ بداية خلق الانسان : هى الصلة بين الانسان والله لتزويده بالقيم الثابتة وبما ينبغى أن يعرفه من عالم الغيب ، وقد ختمت هذه النبوات بمحمد بن عبد الله ﷺ وأنهيت سلسلة الرسالات السابقة المتفرقة فى الشعوب برسالة خاتمة جامعة هى الإسلام الذى بلغه خاتم الرسل .

(٢) لابد من إعادة بناء علم الاجتماع على أساس سليم فى إطار النظام الإسلامى للتعليم ، ومن منطلق التصور الإسلامى للوجود وللطبيعة والانسان والمجتمع الانسانى .

إن من الخطورة بمكان أن تلقن نتائج بحوث علماء الاجتماع الغربيين للطلاب المسلمين بما قد يكون فيها من أخطاء وانحرافات وتشويهات على أنها حقائق علمية أو نظرية مسلمة مقبولة ، ولما كان لكل باحث أفكاره ، وعواطفه ، وعصبياته وأهواءه فانه من الصعب جداً أن يتجرد أوربى يدين بالكاثوليكية ويتعصب لها ، أضف إلى ذلك أن الباحثين لايتمتعون جميعاً بالاستقامة والأمانة التى يستوجبها البحث العلمى .

لقد كثرت النظريات وتعددت واختلفت ولا سبيل بإلزامنا بإحدى هذه النظريات ، فليست هى الحقائق العلمية التى لا يختلف فيها ، بل إن مثل هذه البحوث يمكن اعتبارها من قبيل « ميتا فيزيك علم الاجتماع » أى من قبيل القسم الغيبى الذى يكون اقتحامه عن طريق العقل وحده منفرداً دون الاستعانة

بمنهج خاص ضربا من الحدس والتخمين والظن .

وفى مثل هذه البحوث تندس العناصر الشخصية غير العلمية سواء أكان الباعث عليها فكرة سابقة يعتقد بها صاحب النظرية ثم يحاول أن يلبسها حلة علمية ظاهرة بتطبيقها على بضع حوادث من غير استواء أم كانت غرضا يقصد إليه صاحبه أو تدفعه إليه حكومة ذات سياسة خاصة ، أم كانت أيضاً تتجه لتفسير خاطىء بعدم التمييز بين السحر والدين أو عدم التمييز بين وجود الله فى ذاته وفكرة الانسان عن الله وعقيدته به .

ويريد بعض الباحثين أن يقنعوا الناس بالحرية الجنسية فيجندون أنفسهم وتلاميذهم لبحوث يريدون أن يصلوا منها إلى أن الارتباط بالزواج أمر آخذ بالتطور نحو الزوال وأنه من صفات أطوار معينة تمر بها البشرية ، وهكذا يزينون الاباحية باعتبارها مرحلة المستقبل وان حتمية التطور تؤدى إليها وهذه الأغراض الخبيثة تخفى على أكثر الناس من خلال البحوث ، ويحسنون الظن بهؤلاء الباحثين بسبب انتسابهم للعلم ودوائره مع أنهم من أنواع المجرمين المستترين المستأجرين لمثل هذه الأغراض وكثيرا ما استأجرت حكومات الاستعمار علماء من بلادها لأغراض استعمارية كإثبات أن البحر الأبيض بحيرة أوربية وأن أفريقيا امتداد لأوربا وأنهما قارة واحدة فى الأصل وأن سكان الجزائر من العرق الأبيض الأوربى ومن الصعب جداً فى البحوث الاجتماعية أن يتجرد الباحث من أفكاره وعواطفه وأهوائه الشخصية ومن تأثير بيئته حتى ولو كان فى نفسه مستقيما أمينا .

ويلاحظ الدارس لعلم الاجتماع فى عصرنا هذا لمؤلفيه والباحثين فيه إتجاهات مذهبية مختلفة وأن لكل من هذه الاتجاهات المذهبية أثراً واضحاً فى صياغة علم الاجتماع واتجاه النظريات ووضع الافتراضات والتعليلات .

وأبرز هذه الاتجاهات التى قد تختص وراء البحث : الاتجاه العقلانى والاتجاه الماركسى والاتجاه المسيحى وخاصة الكاثوليكى .

ولما كان لكل مذهب من هذه المذاهب فلسفة للوجود خاصة به يدافع عنها أو ليس للإسلام نظرة وتصور عام للوجود عبر عنه القرآن الكريم بوضوح ، وهى نظرة متميزة دقيقة أشمل وأكثر استيعاباً من جميع النظريات الأخرى ولها من سلطان الحجة فى الدفاع عنها ما يجعلها متفوقة على جميع النظريات الأخرى فلماذا تنطلق المذاهب الأخرى التى ينتمى إليها الباحثون فى علم الاجتماع جميعا من متطلعاتها المذهبية ولا ينطلق الباحثون المسلمون من منطلق الإسلام فى نظرته الدقيقة الصحيحة .

(٢) فى علم الاجتماع نوعان من الموضوعات والحقائق يوضعان فى قرن واحد أمام الباحث العادى وهما جد مختلفتين فى نظر الموقفين . ومن علماء الاجتماع أنفسهم ومن المهم جداً التفريق بينهما. الأول : منهما الحوادث الاجتماعية التى هى تحت سمعنا وبصرنا مما يمكن مشاهدته وجمعه ودراسته ووصفه وتصنيفه واستخراج سننه المطاردة. هذا القسم من علم الاجتماع هو الذى يمكن أن يكون علما إلى حد كبير وإن كانت درجة هذه العلمية لا تبلغ ما تبلغه البحوث فى الحوادث الطبيعية لتعقد الحوادث الاجتماعية واستحالة إخضاعها لما تخضع له الحوادث الطبيعية من مناهج وتجارب ولذلك كان من الصعب الوصول إلى قوانين ثابتة يقينية وإلى تنبؤات علمية لا تتخلف .

أما النوع الثانى : من مباحث علم الاجتماع فهى ما يتناول البحث فى أمور لا يمكن إخضاعها لطرائق البحث العلمى الدقيق وذلك كالبحث فى أصل اللغات ونشأة الأديان وما إلى ذلك . إن البحث فى تطور اللغات وسنن تطور أصواتها ومعانى مفرداتها وتراكيب جملها بعد ظهور هذه اللغات هو من النوع الأول الذى

يمكن بحثه ، أما البحث فى أصل نشأة الدين فلا سبيل للوصول إليه ، وكذلك أصول اللغات لبعده عن خير المشاهدة وتنائية فى الزمن واستحالة إخضاعه للتجربة والموازين العلمية ، ولابد هنا من استعمال التأمل والتفكير المجرد .

إن تجاوزات النظرية الفلسفية الغربية لعلم الإجتماع وقعت بالبشرية إلى المهالك ومن هنا كان على المفكرين المساهمين العمل على تأسيس علم اجتماع إسلامى وتأصيل قواعد منهجه لعلم اجتماع جديد فى إطار التصور الإسلامى كما وضع علم الاجتماع الذى فى إطار التصور الغربى وفلسفته .

إن الإسلام بناء على ما تبين من القرآن والحديث من تحرك المجتمع وتغييره بسبب عوامل التغيير يدعو إلى تطبيق عملى لعلم الإجتماع أو إلى القسم الأخلاقى التطبيقى فيدعو المسلم إلى تغيير المجتمعات بعيداً نحو الأفضل ابتداء من تقويض عقائد الوثنية والشرك ذات النتائج الضارة فى جميع المجالات إلى تقويض النظم الفاسدة والجائرة النظم السياسية والإقتصادية عن طريق الدعوة أولا ثم عن طريق الجهاد بأنواعه إذا اقتضى الأمر ، إن قانون التعبير الاجتماعى كأمر وجودى واقع نص عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الأنفال .

الفصل العاشر

الشريعة مقارنة بالقانون الوضعي

(عبد القـادر عوده)

حين أقارن بين الشريعة والقوانين الوضعية لن أتبع القانون فى أطواره الأولى بالمقارنة والموازنة ، ولن أقارن بين القانون فى القرن السابع الميلادى وبين الشريعة التى أنزلت على محمد ﷺ فى أول هذا القرن ، فإن القانون فى هذه العهود لم يكن فى مستوى يسمح له أن يقارن بالشريعة الإسلامية ، ولكنى أقارن حين أقارن بين القانون فى عصرنا الحاضر وبين الشريعة ، وحين أفعل هذا إنما أقارن بين (قانون متغير متطور) يسير حثيثاً نحو الكمال حتى يكاد يبلغه كما يقال وبين شريعة نزلت منذ ثلاثة عشر قرناً لم تتغير ولم تتبدل فيما مضى ولن تتغير أو تتبدل فى المستقبل ، شريعة تأبى طبيعتها التغيير والتبديل لأنها من عند الله ولا تبديل لكلمات الله ، ولأنها من صنع الله الذى أتقن كل شيء خلقه فليس ما يخلقه فى حاجة إلى إتقان من بعد خلقه .

فنحن إذن حين نقارن إنما نقارن بين أحدث الآراء والنظريات فى القانون وبين أقدمها فى الشريعة ، أو نحن نقارن بين الحديث القابل للتغيير والتبديل وبين القديم المستعصى على التغيير والتبديل ، وسنرى ونلمس من هذه المقارنة أن القديم الثابت خير من الحديث المتغير ، وأن الشريعة على قدمها أجل من أن تقارن بالقوانين الوضعية الحديثة ، وإن القوانين الوضعية بالرغم مما انطوت عليه من الآراء واستحدث لها من المبادىء والنظريات لا تزال فى مستوى أدنى من مستوى الشريعة .

وليعجب من شاء من هذا القول ، فإن الحق فى هذه الأيام أصبح غير مألوف بحيث يعجب منه أكثر الناس، ولكن العجب لن يستبد بمن كان له عقل يفكر ويقدر ويقارن ويوازن ويميز الخبيث من الطيب .

إن الحديث قد يكون خيراً من القديم إذا قورن ما صنعه الناس قديماً بما يصنعه الناس اليوم ، ولكن الحديث لن يتهيأ له أن يصل إلى مستوى القديم إذا قورن مايصنعه الناس بما صنعه رب الناس . لقد صنع الله موسى وعيسى ومحمداً وأوحى إليهم التوراة والإنجيل والقرآن فهل جاء قبلهم أو بعدهم من غير الرسل من يصح أن يوضع معهم موضع المقارنة ، وهل استطاع البشر أن يأتوا بمثل ما أتوا به ، وإذا استساغت عقول البشر أن تصنع ما يصنعه مخلوق فى مستوى ما صنعه مخلوق آخر فإن هذه العقول لا تستسيغ بأى حال أن تصنع ما يصنعه المخلوق فى مستوى ماصنعه الخالق لأنهاتدرك الفرق بين الصناعتين وتحس المدى الواسع بين الصانعين ولا شك أن العقول التى تدرك هذا جديرة بأن تدرك الفرق بين الشريعة الإسلامية وهى من صنع الله وبين القوانين الوضعية وهى من صنع البشر فإذا عجزت بعض العقول عن إدراك الفرق بينهما فأولى بأصحابها أن لا يعجبوا مما نقول وعليهم أن يعجبوا من أنفسهم كيف لا يدركون الواقع المحسوس وكيف لا يفهمون الأوليات والبداءة .

(٢) لقد دفعنى لسلوك هذا الطريق الحرص على أن يفهم كل قارىء ما أكتب ، ولعلى بهذه الطريقة أكون قد سهلت لمن درسوا دراسة مدنية فهم الشريعة دون حاجة للرجوع إلى كتبها بل لعلى أكون قد سهلت لهؤلاء فهم الشريعة دون حاجة للرجوع إلى كتبها .

لقد بدأت بالقسم الجنائى لأنه القسم المنبوذ المظلوم فى الشريعة ، فنحن معشر القانونيين لا ندرس من الشريعة إلا الجزء الخاص بالأحوال الشخصية وما عدا ذلك فهو مهمل إهمالا لا يكاد يكون تاماً وبخاصة القسمين المدنى والجنائى

وقد أدى نبأ هذا الإهمال إلى نتيجة لا بد منها وهى أنا نجهل أحكام هذه التسمية جهلا فاضحاً ، ولكننا بالرغم من ذلك نعترف بأن الشريعة قد بلغت فى المسائل المدنية مستوى لا يقل عن المستوى الذى بلغته القوانين الوضعية .

وقد ساعدنا على هذا الاعتراف من وجه أن رجال القانون يرجعون إلى الشريعة مجبرين فى قليل من المواضع المدنية ، لأن نصوص القانون المدنى التى تحكم هذه المواضيع أخذت عن الشريعة الإسلامية ، وهذه النصوص على قلتها يمكن أن تعطى فكرة لا بأس بها عن الشريعة ، كذلك ساعد على هذا الاعتراف من وجه آخر أن المرحوم محمد قدرى باشا سهل بكتابه (مرشد الحيران) المقارنة بين القسم المدنى من الشريعة على مذهب أبى حنيفة وبين القوانين الوضعية حيث نظم أحكام المذهب الحنفى فى المسائل المدنية فى مواد وأبواب متتالية على غرار مواد وأبواب القانون المدنى المصرى فمكن رحمه الله بعمله هذا لكل من يطلع على كتابه أن يقارن بسهولة بين أحكام الشريعة وأحكام القانون وأن يعرف دون الرجوع إلى الكتب الفقهية مدى الائتلاف والاختلاف ، وإن كانت هذه المعرفة وتلك المقارنة لا تنتهى فى الغالب إلى نتائج صحيحة ما دام المطلع يجهل كل الجهل الأصول والقواعد العامة التى قامت عليها الأحكام الشرعية .

أما القسم الجنائى فهو فى عقيدة جمهور رجال القانون لا يتفق مع عصرنا الحاضر ولا يصلح للتطبيق اليوم ولا يبلغ مستوى القوانين الوضعية ، وهى عقيدة خاطئة مضللة ، ولذا حاول أى شخص منصف أن يعرف الأساس الذى قامت عليه هذه العقيدة فسيعجزه أن يجد لها أساساً سوى الجهل وسيدهشه أن يعلم أننا نحكم على القسم الجنائى بنص الشريعة بعدم الصلاحية ونحن نجهل كل الجهل أحكام الشريعة الجنائية مجملة ومفصلة .

ومن المؤلم للنفس أن تروج هذه العقيدة الخاطئة أو الأكذوبة الكبرى وأن يلقاها الطلبة على أنها عقيدة حكم بها من أولى العلم والقائمين على أمر التشريع

بالرغم من أنها قائمة على مخالفة الواقع وإنكار الحقائق ، والجهل الفاضح بأحكام الشريعة ، ومن أراد أن يعرف مدى خطأ هذه العقيدة وضلالها فعليه أن يرجع إلى كتب الشريعة الإسلامية ليرى أن كل مبدأ أو كل قاعدة وكل نظرية فى الشريعة الإسلامية تنادى بخطأ هذه العقيدة وبعدها من الصواب . وقد رأيت من الواجب على بعد أن تبين لى ذلك أن أحارب هذه العقيدة الخاطئة الظالمة ، وأن أبدأ بالكتابة فى القسم الجنائى الذى نبذناه دون حق وجهلناه دون عذر لأعرف الناس بهذا القسم على حقيقته ، ولأبين لهم أن الشريعة تتفوق على القوانين الوضعية تفوقاً عظيماً فى المسائل الجنائية عامة وأن القسم الجنائى فى الشريعة صالح كل الصلاحية للتطبيق فى عصرنا الحالى وفى المستقبل كما كان صالحاً كل الصلاحية فى الماضى .

وأعترف للقارىء إنى لم أبدأ دراسة الشريعة الإسلامية إلا فى سنة ١٩٤٤ وقد أدهشنى إنى لم أجد قضاء أو حكماً أو تشريعاً إسلامياً إلا روعيت فيه المبادىء والنظريات الجنائية الحديثة التى قيل لنا فى المدارس إنها من ابتداع القوانين الوضعية وأن العالم لم يعرفها إلا فى القرن التاسع عشر على أثر الثورة الفرنسية ، فحملنى هذا التناقض الظاهر بين ما سمعت وبين ما لمست على أن أدرس القسم الجنائى فى الشريعة الإسلامية دراسة منظمة وقد خرجت من دراستى بأن العيب الوحيد فى هذا القسم أن الناس يجهلونه كل الجهل وأنه فيما عدا ذلك خير من أى قانون وضعى على وجه الأرض ، بل هو المثل الأعلى الذى يجب أن يأخذ به ويحتذيه كل مشرع وضعى فى أى بلد غير إسلامى .

وحين لمست المجهود الذى يجب على رجل القانون أن يبذله ليلم بأحكام الشريعة ، ورأيت النتائج الباهرة التى وصلت اليها واكتشفت الأخطاء المضحكة المبكية التى وقعنا فيها شعرت بأن على واجب عاجل الأداء نحو الشريعة ونحو زملائى من رجال القانون ، ونحو كل من درسوا دراسة مدنية ، وهذا الواجب هو أن أعرض على الناس أحكام الشريعة

فى المسائل الجنائية فى لغة يفهمونها وبطريقة يألفونها وأن أصحح لرجال القانون معلوماتهم عن الشريعة وأن أنشر على الناس الحقائق التى حجبها الجهل عنا زمنا طويلا .

وقد تبين لى من دراسة الشريعة أن القائلين بأن الشريعة لاتصلح للعصر الحاضر لا يبنون رأيهم على دراسة علمية أو حجج منطقية لأن الدراسة العلمية والمنطق يقتضيان القول بتفوق الشريعة الإسلامية على القوانين الوضعية ولصلاحية الشريعة لهذا العصر ولما سيتلوه من عصور وفوق هذا، فالقائلون بعدم صلاحية الشريعة للعصر الحاضر فريقان : فريق لم يدرس الشريعة ولا القانون ، وفريق درس القانون دون الشريعة ، وكلا الفريقين ليس أهلا للحكم على الشريعة لأنه يجهل أحكامها جهلا مطبقاً ومن جهل شيئا لا يصلح للحكم عليه .

ووجه الخطأ فى قياس الشريعة بالقانون ، أنهم سووا بين القوانين الوضعية التى وضعها البشر وبين الشريعة الإسلامية التى تكفل بوضعها خالق البشر فهم حين يقيسون إنما يقيسون الأرض بالسماء والناس برب الناس فكيف يستوى فى عقل عاقل أن يقيس نفسه بربه وأرضه بسمائه .

إن الشريعة لاتماثل القانون ولاتساويه ولايصح أن تقاس به ولولا أن طبيعة الشريعة تختلف عن طبيعة القانون الوضعى لما جاءت على الشكل الذى جاءت به .

(٣) الاختلافات الأساسيه بين الشريعة والقانون :

الوجه الأول : أن القانون من صنع البشر أما الشريعة فمن عند الله .

الوجه الثانى : أن القانون عبارة عن قواعد مؤقتة تضعها الجماعة لتنظيم شئونها وسد حاجاتها فهى قواعد متأخرة عن الجماعة أو هى فى مستوى الجماعة اليوم ومتخلفة عن الجماعة غداً لأن القوانين تتغير بسرعة تطور الجماعة ، وهى

قواعد مؤقتة تتفق مع الجماعة المؤقتة ، وتستوجب التغيير كلما تغيرت الجماعة أما الشريعة فقواعد وضعها الله تعالى على سبيل الدوام لتنظيم شئون الجماعة، الشريعة تختلف عن القانون فى أن قواعدها دائمة ولا تقبل التغيير والتبديل .

الوجه الثالث : إن الجماعة هى التى تصنع القانون وتلونه بعباراتها وتقاليدها وتاريخها أما الشريعة فهى ليست من صنع الجماعة ولم تكن نتيجة لتطور الجماعة وتفاعلها كما هى الحال فى القانون الوضعى وإنما هى من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

(٤) المميزات الجوهرية التى تميز الشريعة عن القانون :

الكمال ـ السمو ـ الدوام

مبادىء الشريعة الإسلامية :

(١) نظرية المساواة (٢) نظرية مساواة المرأة بالرجل (٣) نظرية الحرية (٤) حرية التفكير (٥) حرية الاعتقاد (٦) حرية القول (٧) نظرية الشورى (٨) نظرية تقييد سلطة الحاكم (٩) نظرية الطلاق (١٠) نظرية تحريم الخمر (١١) نظرية تعدد الزوجات (١٢) نظريات فى الإثبات والتعاقد (١٣) نظرية الإثبات بالكتابة (١٤) نظرية إثبات الدين التجارى (١٥) نظرية حق الملتزم فى إملاء العقد (١٦) نظرية تحريم الامتناع عن تحمل الشهادات .

من مقدمة كتاب التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى
(جـ ١ ٨١٨ فرع ٧٥٤)

الفصل الحادى عشر

استكشاف المؤامرات المحيطة بالإسلام

(الدكتور محمد البهى)

واقع المسلمين اليوم أثر من آثار الاستعمار الأوروبى الصليبى الذى عاث فساداً فى أقطار العالم الإسلامى ، وفى المجتمعات الإسلامية طوال قرن من الزمان ، فمنذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين لم يكن هناك قطر من أقطار العالم الإسلامى خالياً من الوجود الاستعمارى ، فالاستعمار الأوروبى الصليبى كان موجوداً فى كل مكان فى الشمال الإفريقى (تونس ومراكش والجزائر) فى المشرق العربى (فى مصر والشام والعراق) وفى الهند . وفى أندونيسيا استعمار انكليزى واستعمار فرنسى واستعمار هولندى ، واستعمار أسبانى ، واستعمار بلجيكى . وهؤلاء المستعمرون جميعاً كان لهم أسلوب واحد اتبعوه فى كل الأقطار الإسلامية هو أسلوب تشويه الإسلام لاستئصال شأفته واقتلاع جذوره من قلوب المسلمين ، وإضعاف الصلة بينهم وبينه ، ولا تزال آثار هذا الأسلوب الاستعمارى الصليبى الحاقد باقية حتى الآن ، وللأسف لم تبــذل الجهود الواجبة - لا على المستوى الفردى ولا على المستوى الجماعى - حتى الآن لتنظيف هذا الواقع من هذه الآثار السلبية التى خلفها لنا الاستعمار .

والواقع الإسلامى مشوب بواقع آخر ، هو الواقع الوافد إلينا من أوروبا ، سواء الواقع الفكرى أو الواقع المادى المحسوس فيما بيننا ، فالحضارة التى نعيشها ليست حضارة إسلامية خالصة ، والفكر الذى نتحدث عنه ونتحدث فى جوه

ليس فكراً إسلامياً خالصاً ، كما أنه ليس فكراً غربياً خالصاً أيضاً ، وإنما هو خليط من هذا وذاك ، بل أستطيع أن أقول : إن الفكر الأجنبى الوافد فى كثير من مجالات المجتمعات الإسلامية هو الغالب ، وتأثيره فى واقع حياة المسلمين أكثر بكثير من الرواسب القائمة والباقية من المبادىء والقيم الإسلامية التى لا تخرج مسلماً قوياً يؤمن بالإسلام إيماناً صحيحاً ، ويطبق الإسلام تطبيقاً صحيحاً ، وإنما بعضها قد يتأثر به بعض الشباب ، وبعضها قد شابه شىء من الجمود وشىء من عدم الحيوية .

(٢) كيف يمكن تغيير هذا الواقع ؟

يمكن تغيير هذا الواقع بالتأكيد على الاتجاه التربوى فى العمل الإسلامى بين الشباب وفى استمرار هذا العمل دون أن يواجه بعقبات ، ودون أن توجه إليه الضربات .

صحيح هناك يقظة إسلامية قوية فى مجتمعاتنا الإسلامية ، وهناك أيضاً القوى الخفية المعادية التى تراقب وترصد هذه اليقظة حتى إذا رأت أنه قد اشتد عودها تصدت لها . ووقفت فى وجهها ، ووضعت فى طريقها العراقيل ! !

فأنا موقن أن الوقوف فى وجه المد الإسلامى فى أى قطر من أقطارنا الإسلامية هو وقوف مدبر ومرتب ، وكلما قويت اليقظة الإسلامية ، وكلما ازداد النشاط الإسلامى والعمل للعودة إلى تطبيق الإسلام ، كلما ازدادت حركة المراقبة والرصد ، وازدادت القوى المعادية للإسلام فى التدبير والتخطيط والتآمر لمواجهة هذه اليقظة والعمل على إماتتها ، لكنها لن تموت ، وهم يعلمون هذا لذلك يعملون على إضعافها وإجهاضها كلما أحسوا أنها قويت .

هكذا نرى فى عالمنا الإسلامى أن هناك خطين ، أحدهما واضح وظاهر ،

هو خط النشاط الإسلامى ، وآخر خفى هو خط الوقوف فى وجه النشاط الإسلامى ، وهو فى تقديرى من خارج هذه المجتمعات ، وينتمى إما إلى الصليبية الدولية وإما إلى الإلحاد الماركسى . وهذه وتلك وراءهما اليهودية العالمية ، لأن العقلية اليهودية ليست منعزلة عن الصليبية ، وليست منعزلة عن الإلحاد الماركسى وهى كما ذكرت فى كتابى « خمس رسائل إلى الشباب المسلم » التى تمسك بالزمام ، فلو تصورنا أن الصليبية كفرس أبيض وأن الماركسية كفرس أسود فتكون العقلية اليهودية هى التى تمسك بعنان الفرسين ، فتترك للأبيض فترة ثم توقفه ، وتترك للأسود فترة ثم توقفه ، وهكذا هى تسيرهما فى الاتجاه الذى تريد !!

(٣) والعقلية اليهودية مسيطرة على مجالات كثيرة فى عالمنا المعاصر ، ومن بين تلك المجالات ما يسمى بالعلوم السياسية . فهذه العلوم السياسية هى تقريباً من صنع يهود ، فقلما تجد نصرانياً أو مسلماً كتب كتاباً فى السياسة إلا مردداً ما قاله يهود فى هذا المجال ، وأضرب لذلك مثلا . هو بمثابة الدليل القاطع : فى مجال العلوم السياسية لا تجد من يؤيد اتصال الدين بالسياسة ، بل الجميع يقولون بالفصل بين الدولة والدين ، فإذا كان الحديث عن دولة الاغتصاب الصهيونى (إسرائيل) تجدهم متحمسين يؤيدون قيام (إسرائيل) على أساس اليهودية !! فلماذا يكون تدخل الديانة اليهودية فى السياسة مستساغاً هنا . ويكون تدخل أى دين آخر ، وبالذات الإسلام فى السياسة غير مستساغ .

إنهم يرون تدخل اليهودية فى مجال السياسة الإسرائيلية . وهذا تحيز واضح . ولو لم تكن العلوم السياسية من صنع يهود لما كانت متحيزة هذا التحيز . ولوجدنا موقفاً واحداً من علاقة الدين بالسياسة والحكم إما تأييداً لتدخل الدين — أى دين — فى السياسة ، وإما رفضا لتدخل الدين — أى دين — فى السياسة ، ولكن أن تكال العلوم السياسية بمكيالين ، فتفرق بين الأديان . فترى اليهودية صالحة ومؤهلة للتدخل فى السياسة ، بل تكون الأساس الذى

تقوم عليه الدولة الإسرائيلية ، أما الإسلام فتراه غير مؤهل وغير صالح للتدخل في السياسة أو الحكم ! ! فهنا العجب .

كما أن الأمر أيضاً ليس كذلك بالنسبة للنصرانية لأنه في الدول النصرانية تتدخل النصرانية في السياسة . . فالأحزاب الديمقراطية النصرانية موجودة في معظم الدول النصرانية موجودة في ألمانيا الغربية . . وموجودة في فرنسا . . وموجودة في دول أمريكا اللاتينية ، وموجودة في أمريكا الوسطى . . وهذه الأحزاب لها وزنها ولها ثقلها في ساحة العمل السياسي هناك ، فما معنى هذا ؟ !

معناه أن هناك أحزاباً تقوم على أساس استلهام الديانة النصرانيه في مجال السياسه ، وهذه حقيقة ، فالجانب النصراني تلحظه دائماً في سياسة تلك الدول . فهناك مراعاة للنصرانية من جانب السياسيين ، وهناك أيضاً رعاية للسياسيين من جانب الكنيسة النصرانية .

ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الكنيسة وراء الحركة البولندية ، فالحركة العمالية البولندية التي تمردت على الحكم الشيوعي ، إنما تكمن وراءها وتساندها الكنيسة الكاثوليكية . وهكذا نرى النصرانية تتدخل في السياسة عنوة وقصداً .

ولكن ـ للأسف الشديد ـ الدين الوحيد الذي يخشى تدخله في السياسة هو الإسلام، وكأن القول «بالفصل بين الدولة والدين» مقصود به الآن الإسلام وحده وأي جماعة . وأي دعوة تعمل « لأسلمة » السياسة والحكم تتعرض للعنف والاضطهاد وتكال لها التهم وتفترى ضدها الأكاذيب ! !

(٤) عندما وصل يهود إلى أوروبا كان استقبال الأوروبيين لهم استقبالا غير مرض . وعندما سافرت إلى ألمانيا قبل هتلر وبعد هتلر ،كنت أرى أن قيمة اليهودي الألماني أقل من قيمة النصراني الألماني . كان اليهودي

مواطناً من الدرجة الثانية ، وكانت هذه المنزلة لليهودى ، فى كل أوربا ، ولكن اليهود استطاعوا عن طريق التدبير والتخطيط الخفى أن يفرضوا أنفسهم على هذه المجتمعات بعد أن أعملوا معاول الهدم فيها ، وفرغوا الشخصية الأوربية من « نصرانيتها » لقدكان يهود ولا يزالون يفرضون توظيف يهود فى المؤسسات الصناعية والمؤسسات الإعلامية . لقد حارب يهود معركتهم فى هذه المجتمعات بمعاول ثلاثة هى : الماسونية ، والعلمانية ، والماركسية . وكان الهدف الكبير أمامهم : عزل الدين أى دين عن التأثير فى حياة الناس فالماسونية تناولت الرؤوس سواء رؤس الاقتصاد ، أو العلماء ، أو رؤس الدول ، فأغرتهم بالانضمام إليها ، والماسونية تقوم على أساس تغليب فكرة « الإنسانية » أو « العالمية » على العقيدة الدينية وعلى فكرة القومية . وعلى فكرة الوطنية . وتغليب فكرة « الإنسانية » التى تقوم عليها الماسونية يعنى إلغاء هوية الإنسان الحقيقية التى تتمثل أول ماتتمثل فى عقيدته الدينية ، وتجريده من انتمائه الوطنية وقد استطاعت اليهودية عن طريق الماسونية أن تقضى على النظرة الدونية لليهودى فى المجتمعات الأوربية !! بل لقد استطاع يهود أن يشغلوا نسبة كبيرة من الوظائف فى الهيئات الدولية ويحضرنى هنا مثل كان قبيل معاهدة سنة ١٩٣٦ م مدير مصلحة الجوازات والجنسية فى وزارة الداخلية إنكليزياً ، وبعد تمصير وزارة الداخلية حل محل الانكليزى لبنانى مارونى ، فكان يعطى جوازات سفر لليهود باعتبار أنهم مصريون . فلما قامت هيئة الأمم المتحدة تقدم يهود لوظائف هيئة الأمم ، وحصلوا على نسبة كبيرة من وظائفها ، وعندما اعترض مندوب الحكومة المصرية لدى السكرتير العام ، كان جوابه على هذا الاعتراض : إنهم مصريون قبل أن يكونوا يهوداً ، لأن بأيديهم جوازات سفر مصرية !!

والمعول الثانى الذى استخدمته اليهودية فى معركتها مع المجتمعات الأوربية هو معول العلمانية ، وكان ميدان الهدم هو ميدان الثقافة .. وميدان التعليم . وتقوم العلمانية على أساس فصل الدولة عن الدين ، فجعلت للدين وظيفة خاصة ، وجعلت

للدولة وظيفة سياسية أخرى ، وقصرت الدين على العلاقة بين العبد وربه ، وأعطت الفرصة كاملة للدولة تصرف شئون المجتمع بعيداً عن الدين ، حتى إذا نظرت الدولة إلى رعاياها من أفراد المجتمع ، فلا تنظر إليهم على أن هذا نصرانى وهذا يهودى ، وإنما تنظر إليهم على أساس أن كلا منهم إنسان !! وكسب اليهود الكثير من وراء إنتشار العلمانية.

ثم جاء كارل ماركس وهو يهودى ، وأنا لاأبرئه من تأثير اليهودية على تفكيره لأن تفكيره ليس تفكيراً منطقياً ، وإنما هو تفكير حماسى يثير الحماس عند من يخاطبه ، وكان هدفه أيضاً : عزل هذا القطاع الكبير من العمال عن الدين ، فالماركسية — وهى المعول الثالث فى يد اليهود — ليست فكرة إجتماعية ، وليست فكرة إقتصادية ، بدليل واقع المجتمعات التى تدعى تطبيق الماركسية ، فالاتحاد السوفييتى مثلا هل رأى الجنة التى وعدته الماركسية بها فضلا عن أن يدخلها ؟ ! إنه لم ير شيئاً إلا أنه ينتقل من جحيم إلى جحيم هناك ! !

وهذه أيضاً بولندا تتمرد على وصاية الحزب الشيوعى على النقابات العمالية بعد أن ذاقت الويلات من جحيم الماركسية .

فالماركسية استهدفت تبغيض هذا القطاع الكبير من العمال فى الدين ، وأن تباعد بين الدين وبينهم حتى لايكون للدين أى سلطان على الحياة ، فإذا ابتعدت المجتمعات الأوربية عن النصرانية ، ولم يعد لها السلطان الذى كان من قبل ، عادت لليهود منزلتهم وتساووا مع غيرهم فى المنزلة ، ولم يعودوا مواطنين من الدرجة الثانية كما كانوا قبيل الحرب العالمية الثانية .

ويضيف الدكتور محمد البهى :

ومن الموجع للقلب أننا نرى المعاول الثلاثة ذاتها تستخدم أيضاً لتخريب مجتمعاتنا الإسلامية .

(٥) اليقظة الإسلامية أو المد الإسلامى :

فى الواقع أنا أرى شباباً متحمسين للإسلام وللدعوة الإسلامية ، لكن أخشى ما أخشاه أن يكون هذا المد الإسلامى على غير أساس سليم . لأن من الخطر على المد الإسلامى واليقظة الإسلامية نفسها ألا ينطلقا من الفهم الصحيح للقرآن وللسنة الصحيحة، ولا يفهم القرآن الكريم ولا تفهم السنة النبوية الشريفة من كتب معينة . إنما يفهم القرآن من القرآن نفسه مع الاستعانة بالكتب التى تساعد على هذا الفهم الصحيح السليم وكذلك السنة .

وعلى العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية أن يتنبهوا لما يمكن أن يوضع فى طريقهم من معوقات بصورة أو بأخرى ، وما يمكن أن يوجه إليهم من اتهامات باطلة ومصطنعة ومزيفة ومزورة ومدبرة تهدف إلى إيقاف هذا المد ، أو تجميده أو احتوائه ، أو الانحراف به ، وإذا حدث شىء من هذا ستكون له آثار سلبية على الناشئة ، ولكن سرعان ما تنجلى الغمة . إذا ثبت الدعاة وصمدوا أمام هذه التحديات ، ويكون لهذا الثبات وهذا الصمود آثار إيجابية تفوق الآثار السلبية السابقة ، ولأن الأوضاع السياسية فى الأقطار الإسلامية غير مستقرة . فلا يستطيع أى مفكر أن يحدد النتائج أو يقوم الإيجابيات والسلبيات لحركة المد الإسلامى .

إن الأعداء يراقبون ويرصدون حركة هذا المد ، ويدبرون ويخططون لضربه أو تعويقه أو تجميده أو إجهاضه .. ولكن أقول للمشتغلين بالدعوة الإسلامية: احذروا هذا التعويق المبيت والمرسوم قبل أن يقع ، أو لا تعطوا لأعدائكم المبرر لمواجهتكم ، كما أنبه القائمين على الحركات الإسلامية أن يأخذوا أنفسهم بالتربية حتى يعطوا القدوة الحسنة من أنفسهم لغيرهم من الأجيال الناشئة حتى إذا ما تكاثرت القدوات الحسنة . عندئذ يصبح المد الإسلامى قوياً ، ولا يوقفه

ما يوضع أمامه من عقبات ، وتفشل المخططات المعادية فى تجميده أو إجهاضه .

(٦) تحدثت عن اتجاهين: اتجاه ممالىء الاستعمار واتجاه مقاوم له. ما هو التقويم لكلا الاتجاهين الآن ؟

« الاتجاه المقاوم للاستعمار أقوى من ذى قبل كثيراً . لأن حركة المد الإسلامى واليقظة الإسلامية ركزا عند الشباب عقدة الاستعمار ، وفضحا مخططات أعداء الإسلام التى تقوم على إضعاف صلة المسلمين بإسلامهم ، وتشويه مبادىء الإسلام فى نظرهم . . . إن الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين أدركوا حقيقة الوجه الشائه للاستعمار قديماً وحديثاً ، وأنه عامل مفرق بين المسلمين بعضهم بعضاً ، وأنه ينهب ثروات المسلمين ويبدد قواهم كى يبقوا متخلفين أبد الدهر .

إن اتجاه أحمد خان فى الهند ، وهو مثال للاتجاه الممالىء للاستعمار لم يبق على قوته التى كان عليها فى القرن التاسع عشر ! ! وكلية عليكره وقد أنشئت للمساواة بين الإسلام والنصرانية لم يعد منهاجها اليوم هو المنهاج ذاته . الذى قامت عليه . فالاتجاهات التى مالأت الاستعمار فيما مضى لم تبق على ماهى عليه لأن الأجيال الجديدة لم تعد تؤمن بها .

أما الاتجاهات المقاومة للاستعمار فقد ازدادت قوة . فاتجاه جمال الدين الأفغانى واتجاه الشيخ الإمام محمد عبده كان يمكن أن يكون أقوى من هذا لو لم يتصد المستشرقون لهما بأقلام شباب المسلمين الذين ربوا على أيدى المستشرقين .

كما أن المستشرقين لم يعودوا من الحمق والبجاحة مثلما كانوا فى الماضى . فلم يعودوا فى مواجهتهم للإسلام يستعملون الأسلوب الاستفزازى المباشر لكنهم صاروا أشد خبثاً ، وأمامى كتاب لمؤلفة إنجليزية بعنوان : « الإسلام والعصر

الحديث ، وللأسف إن هيئة الكتاب ترجمته وطبعته ونشرته على حسابها رغم مافيه من طعن على الإسلام ، وفيه من الخبث مالا يدركه إلا إنسان متخصص. تقول المؤلفة : إن بعض المسلمين يفرقون بين الإسلام وبين النصرانية وبين اليهودية ، ويجب عليهم ألا يفعلوا ذلك . لأن الديانات الثلاث من بيئة واحدة ومن أصل هليني واحد .

والتيار المعادي للاستعمار تحول إلى العلمانية . فالدعوة إلى العلمانية دعوة طاغية اليوم ، وهى تنتشر بيسر وسهولة . وهى تحاول ـ كما سبق أن قلنا ـ إبعاد الإسلام وعن شؤون التربية وعن التشريع وعن العلاقات الاجتماعية وعن العلاقات الأسرية . لقد وصل الحال إلى أن تتزوج الفتاة المسلمة بشاب نصرانى يتخذ له إسماً إسلامياً آخر بجانب إسمه النصرانى ، ولكنه أكثر إصراراً وأكثر تحدياً بالنسبة للإسلام ، وربما كان الدافع للزواج من الفتاة المسلمة هو الانتقام . لأن الكراهية للإسلام كراهية مجسدة فى نفوس الكثيرين ، ويريدون أن ينتقموا بطريقة أو بأخرى فى شخص المرأة أو البنت المسلمة ، وهى بطبيعتها ضعيفة .

(٧) هناك من يقول : إن الفكر الإسلامى فى أزمة ، وإن المفكرين الإسلاميين المعاصرين يعيشون عالة على مفكرى القرون الماضية ، وإنهم عاجزون عن إيجاد حلول إسلامية لقضايا العصر .

ولكنى لست مع هذا القول . صحيح أن كثيراً من المفكرين يعتمدون على القرون الماضية ، ولكن عندهم استقلال ولهم شخصيتهم الفكرية فى الاستنباط والاستدلال . هذا شيء واضح ، فمثلا أنا لا أتهم الشيخ محمد عبده بأنه عاش عالة على من سبقوه . صحيح هو لم يخرج خروجاً واضحاً ولم يكن بين اجتهاده واجتهاد من سبقه فجوة ، ولكن لا شك أن له استقلاله . ومثال آخر : الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم . أعتقد أن لكل واحد منهما فكره واستقلاليته

وعشرات غيرهم ،فهؤلاء جميعاً علماء ومفكرون لهم استقلالهم واجتهادهم ولكن في إطار معين ، وهذا هو الواجب لأن المفكر الإسلامي يختلف عن غيره من المفكرين غير المسلمين الذين قد يستقل الواحد منهم استقلالا تاماً عمن سبقه ، وقد يقف ضدهم ولكن المفكر الإسلامي لابد وأن يحتاط حتى لا يخرج على مبدأ من مبادىء الإسلام أو أصل من أصوله،وأن يلائم بين فكره وبين القرآن والسنة الصحيحة، هذه الملاءمة تحتاج إلى احتياط كبير ، فقبل أن أفسر آية أو أستنبط رأيا لابد أن أستوعب الآراء القائمة وأن أستوعب مرة ومرة ومرة آيات القرآن الكريم ، وأحاديث السنة الصحيحة . .

(٨) ـ ما الرأى فى القول بأن باب الاجتهاد أغلق ؟

ـ كيف يغلق باب الاجتهاد وهو حركة إنسانية،والإسلام يحض عليه لأن من المقرر أن من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فهذا دليل على الحض على الاجتهادوكأنه يقول للمجتهد لاتخف فباب الاجتهاد لا يغلق لأنه عمل إنسانى وحركة إنسانية دائمة فالاجتهاد أساسى وضرورى ومن ديمومة الإسلام وديمومة الفقه الإسلامى وجود الاجتهاد فعملية الاجتهاد عملية بشرية إنسانية وظيفتها تغطية المبادىء الإسلامية للأحداث المتجددة وهذه الأحداث المتجددة أحداث بشرية تتصل بخصائص الطبائع البشرية وكل ما علينا وكل ما لنا هو أن نفهم ما يريده الإسلام فى حكم من أحكام الفقه وندرج هذا الحدث أو ذاك ، نعم للاجتهاد شروطه وقلما تتوفر هذه الشروط فى المعاصرين وأنا لا أقول إن الكثرة الكاثرة من المفكرين المعاصرين تتوفر فيهم صفات المجتهد ولكنها توجد حتما ولو فى قلة من العلماء وباب الاجتهاد لم ولن يغلق .

أجرى الحديث الأستاذ جابر رزق ١٩٨٢

الفصل الثانى عشر

العقيدة الإسلامية العسكرية

(محمود شيت خطاب)

على الذين يعيدون كتابة تاريخ المعارك الإسلامية المحافظة على حقائق التاريخ وأصالة المعارك بأسلوب حديث ومنهج واضح وأن يبقوها عربية إسلامية ولا يمسخوها أعجمية أجنبية، فالمعارك العسكرية الإسلامية هى التطبيق العملى للعقيدة العسكرية على الأرض وفى ميادين القتال. والمؤرخون المحدثون غير ملتزمين بالمثل العليا التى كان يلتزم بها المؤرخون المسلمون القدامى، هذه المعارك هى التى أثبتت عملياً بأن العقيدة العسكرية الإسلامية مبادىء قابلة للتطبيق العملى بنجاح وقادرة على إحراز النصر، لقد قاد الرسول ﷺ ثمانى وعشرين غزوة وبعث سبعاً وأربعين أثمرت توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام.

(٢) إن سر ثبات الإسلام أمام التيارات الجارفة التى تعرض لها أمس واليوم وغداً يكمن فى (القرآن الكريم) لغة وعقيدة وتشريعاً ومثلا عليا وكل مسلم حق مكرر فى الحاضر والمستقبل يستبسل دفاعاً عن القرآن الكريم بما يستطيع من قوة وأن يحذر مكايد أعداء الإسلام فى محاولاتهم السرية والعلنية للقضاء على أثره وتأثيره على العقول والقلوب معاً لأن بقاء الإسلام قويا شامخاً رهن ببقاء القرآن الكريم قويا شامخاً.

(٣) تفنن أعداء الإسلام بمحاولاتهم فى إضعاف لغة القرآن الكريم فدعوا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية والتخاطب والكتابة بالعامية وأشاعوا أن العربية

أصعب اللغات وزعموا انها لا تستطيع مجاراة العلوم وفرض المستعمرون لغتهم على الدراسات العلمية وتخلصوا من تدريس القرآن فى المدارس والمعاهد وهونوا من شأن اللغة العربية وهدف كل ذلك محاصرة القرآن الكريم وعزله، والاذاعات المرئية والمسموعة تعمل عملها التخريبى فى هذا المجال، والمسئولون الكبار لا يلتزمون بإلقاء خطبهم بالفصحى وقد تفنن أعداء الاسلام فى إحلال القانون الوضعى مكان شريعة الله فانتشرت السرقة وشاع الفسق والفجور وتفككت أواصر العائلة

(بينما قضى (على) عامين قاضيا لعمر لم يراجعه خصمان)

وبالاضافه إلى التشكيك فى العقيدة جرت محاولة الغاء المثل العليا الإسلامية ومحاكاة الأجانب كما اختار المستعمر الامعات والتافهين ، وفتح باب الحانات وأقام المراقص وأباح الزنا وشجع على الميسر.

(٤) أعداء المسلمين أربع :

(العدو الأول) : الاستعمار (القديم والجديد) استعمار سياسى ، اقتصادى عسكرى ، اجتماعى فكرى وأخطرها الاستعمار الفكرى

(العدو الثانى) الصهيونية : فالصهيونية تدعم الارساليات التبشيرية فى أفريقيا وبلاد المسلمين لا حباً فى المسيحية ولكن كرها فى الاسلام

وفى الوقت الذى تقرر فيه احياء التوراة عقيدة ولغه ، بدأت الحملة على الفصحى والدعوة إلى العامية وكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، قال هرتزل فى مذكراته : انه كان وراء التشنيع على السلطان عبد الحميد وعزله وإن الكتب التى صدرت للإساءة الى سمعة السلطان مولت من الصهيونية لأنه رفض عرضاً لتخصيص جزء من أرض فلسطين ليكون وطناً قوميا لليهود ، وستظهر حقائق مذهلة عن تمويل الصهيونيه للأصوات الناشزة المريبة التى دعت إلى محاربة القرآن الكريم والصهيونية سخرت الاستعمار لمحاربة القرآن الكريم : لغة وعقيدة وتشريعاً

ومثلا عليا وسخرت الماسونيين من المسلمين لهذا الغرض

(العدو الثالث) هى المبادىء الوافدة الهدامة القائمة على تعطيل الجهاد والقول بأن الدين أفيون الشعوب .

(العدو الرابع) التبشير: الذى روت أحقاد الحروب الصليبية وبقى التبشير داعياً لحضارته المسيحية ومروجاً لمبادئه وصلة الاستعمار بالتبشير معروفة جداً ولاتحتاج إلى دليل فلا عجب أن تموله المصارف الأجنبية والشركات الاحتكارية.

(٢) منذ توقف الفتح الإسلامى العظيم لأن المسلمين غيروا ما بأنفسهم حتى اليوم، جرت معارك دفاعية انتصر فيها المسلمون لأن قادتهم خافوا الله فوهبهم النصر، يكفى أن أذكر من القادة المنتصرين : قاضى القضاة - أسد بن الفرات - فاتح صقلية، وصلاح الدين الأيوبى الذى استعاد القدس من الصليبيين، وقطز قاهر التتار ومحمد الفاتح فاتح القسطنطينية .

إن كل القادة الذين نجحوا فى صد المعتدين أو أضافوا فتحاً جديداً على الفتوحات الإسلامية كانوا متدينين إلى أبعد الحدود وكانوا أمثلة شخصية لرجالهم فى التدين والاستقامة والعمل الصالح .

وخبا نور المسجد بعد تفسخ المسلمين، ولكن بقى شىء من نوره يشع قليلا كالذى يعالج سكرات الموت حتى غزا أعداء المسلمين بلاد المسلمين فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى فأجهز الاستعمار على بقية النور فى محاولة طمسه إلى الأبد ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ كان هدف الاستعمار القضاء على القرآن الكريم : عقيدة وشريعة ولغة فقد خطط لويس التاسع ملك فرنسا الذى أسره المصريون فى المنصورة) وهو أسير وكان مجمل تخطيطه القضاء على القرآن الكريم عقيدة وتشريعاً ولغة .

وكانت الأسباب الموجبة لتخطيطه: أن المسلمين لا يستعبدون أبداً ما داموا

متمسكين بهذاا القرآن وشبت ثورات عارمة فى الهند على الإمبراطورية البريطانيه وكان الموجه الأول لأوار تلك الثورات هو التمسك بالدين الحنيف .

وضاق جلادستون رئيس وزراء بريطانيا حينذاك ذرعا ، فوقف خطيباً يكاد يتميز من الغيظ حقداً على الإسلام والمسلمين فقال :

لن يستقر للإستعمار قرار ما دام هذا القرآن يتلى صباح مساء بين المسلمين فيجب أن نمزقه لنثبت أقدامنا فى البلاد الإسلامية) ومزق الله الامبراطورية البريطانية وحفظ الله القرآن الكريم وصدق الله العظيم : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولكن هل أخفق الاستعمار فى تحقيق أهدافه كلها؟ الحق أنه لم يخفق كل الإخفاق ، بل حقق بعض أهدافه فى بذر الشكوك بجدوى القرآن عقيدة وشريعة ولغة ، لقد بذل قصارى جهده فى بذر هذه الشكوك تمكينا للإستعمار فى ديار المسلمين وتمهيداً لخلق دولة اسرائيل .

وبذلت الصهيونية العالمية قصارى جهدها دعماً للاستعمار ، خدمة لمطامعها التوسعية الاستيطانية وتحقق حلمها من النيل إلى الفرات .

فى سنة ١٨٩٧ م عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة (بازل) بسويسرا تحت رئاسة هرتزل نبى الصهيونية ، كما يسميه الصهيونيون ومن لف لفهم ، وكان من مقررات هذا المؤتمر: احياء التوراة عقيدة ولغة ، ورصدت الصهيونية العالمية لتحقيق هذا الهدف ملايين الجنيهات الذهبيه — كما ذكر هرتزل فى مذكراته لإحياء الدين اليهودى وغرسه فى نفوس اليهود وعقولهم معاً ، ولإحياء اللغة العبرية الميتة ، فى ذلك الوقت ، بالذات وبتأثير المال الصهيونى ظهرت أصوات ناشذة أمريبة فى الغرب تشكك فى القرآن لغة وعقيدة وتشريعاً ،

ولكن هذه الأصوات قوبلت بالرفض المطلق من العرب والمسلمين .

وفى عام ١٩١٧ م صدر وعد بلفور الذى غرز الأطماع الصهيونية وبعث آمالهـا فاشتدت عزائم الصهيونية والاستعمار لتحقيق أهـدافها فى التشكيك بجدوى القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعا فى هذا الوقت بالذات ظهرت أصوات عربية ناشزة ،تدعو إلى العاميه تارة وتدعو إلى كتابة العربيه بالأحرف اللاتينيه ، ليصبح هذا القرآن مهجوراً ولتصبح اللغه العربيه التى تربط العرب من المحيط إلى الخليج بإخوانهم المسلمين من الخليج إلى المحيط ، لغة المقابر والكهوف ، كما عبر عنها أحد المربين من العرب المسلمين ومن العرب غير المسلمين أيضاً مع الأسف الشديد .

وأتساءل والأسى يذيب قلبى : هل كانت صدفة من الصدف أن تطرح فكرة بعث التوراة لغة وعقيدة بإماتة القرآن لغة وعقيدة وتشريعة ، الذين يدعون أن الصدفة عملت عملها ، لا بد أن يكونوا قد ألغوا عقولهم والذين يصدقون هذا الادعاء لابد أن يكونوا من المغرر بهم كل التغرير أو من الجهلاء كل الجهل أو من العملاء كل العمالة .

إن وراء إماتة القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعه ، الاستعمار أولا ووسيلتهم لذلك نفوذهم وعملاؤهم والصهيونية العالمية ثانياً وسيلتها فى ذلك الماسونية والمال الصهيونى والدعاية الصهيونية فلا تعجبوا بعد ذلك أن يصبح سلامة موسى من قادة الفكر العربى ، وأن يسمى الذى شارك فى افتتاح الجامعه العبرية فى القدس سنة ١٩٣٩ عميد الأدب العربى (أى الدكتور طه حسين) .

لقد اكتشفت إن الذين دعوا إلى اللغة العاميه وإلى كتابة العربيه بالحروف اللاتينية من الماسون وإن الذين رفع ذكرهم بين الناس هم الماسون والاستعمار ودليلى على ذلك هو وجود أسمائهم فى المحافل الماسونيه فى الشرق وهو كتاب

مطبوع فى بيروت . إن أصابع الماسونية وراء هؤلاء الإمعات الخونة الذين لم يدخلوا فى حياتهم مسجداً ولم يؤدوا فيه صلاة أبداً .

ولعل أطرف مناقشة جرت بين المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى والأستاذ عبدالعزيز فهمى الذى تولى كبر الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية مخلد فى مصر بإطلاق إسمه على أكبر شارع فى مصر الجديدة بالقاهرة وبالمترو الذى ينطلق من ساحة التحرير فى القاهرة إلى نهاية شارع المنتزه بمصر الجديدة .

قال الشيخ عبد العزيز البشرى لعبد العزيز فهمى : لماذا تريد أن تكتب العربية بالأحرف اللاتينية قال عبد العزيز فهمى : أريد أن أعممها ، فقال البشرى عليه رحمة الله : إنك تريد أن تقيدها ولا تريد أن تعممها ، هكذا يخلد العرب المربيون ، أما المخلصون فلهم الله .

وأذكر بهذه المناسبة أنى شهدت جنازة المرحوم الشيخ محى الدين عبد الحميد ومن الأقدار العجيبة أن أحد الفنانين مات فى نفس اليوم الذى مات فيه الشيخ محى الدين ، كان سرادق الميتين متجاورين ، وكان فى سرادق الشيخ عشرات وكان فى سرادق الفنان الآلاف. وشيع الشيخ عدد قليل وشيع الفنان أكثر من عشرة آلاف ويومها سالت من عينى دمعات وما خفى فى نفسى كان أعظم .

قلت لنفسى : إن هذا الشيخ كان أكبر محقق للتراث العربى الإسلامى وخدم العربية والإسلام خدمة باقية، أما الفنان فقد عمل ثلاثين سنة على إفساد الأخلاق وتشجيع التخنث والانحلال. هكذا يجازى العرب بخاصه والمسلمون بعامة من يخدم العربية والإسلام ومن يحارب الأمة أخلاقها .

إن أكثر الذين تلقوا العلم فى الغرب أشرف عليهم مستشرقون يهود أو جواسيس، وقد نزل أكثرهم إلى مستوى الخادمات اخلاقياً ولا أزيد ، وكانت

وسائل أكثرهم هدما لمبادىء الدين الحنيف وتاريخه .وقد نال بعضهم شهاداتهم برسائل منها التناقض فى القرآن الكريم وسبينوزا اليهودى .

إنى أتمنى أن يستيقظ العرب والمسلمون ، وحينذاك ستتغير مفاهيمهم وإلا فاقرأ السلام على العرب والمسلمين.

وعاد هؤلاء المستشرقون من العرب والمسلمين لينفثوا سمومهم فى المعاهد والجامعات ،كل مصادرهم وثقافتهم أجنبية ، وكل عملهم ترجمة أفكار الأجانب من مصادرهم ، لأنهم لا أسس ثقافيه لديهم من المصادر العربية الإسلاميه فلا عجب أن يدعى أحدهم : أن الفتح الاسلامى كان لأسباب اقتصادية وأن العرب قبل الإسلام كانو أغنياء فأصبحوا بعد الإسلام فقراء ولا عجب أن ينهار التعليم فى المعاهد والجامعات وأن يتنكر أكثر المتخرجين فيها لمبادىء الدين الحنيف لاعتقادهم إن التنكر (تقدمية) وأن التمسك بالدين (رجعية) ولا ريب أن يعجز أكثر المتخرجين العربية والإسلام بأفكار معادية للعربية والاسلام .

ولست بحاجة أن أنوه بأهمية العسكريين ضباطاً وضباط صف وجنوداً ومراتب أخرى ،لأن بيدهم القوة الضاربة وصلاحهم صلاح الأمه كلها وفسادهم فساد لبلادهم ، لذلك ركز الاستعمار وساعدت الأيدى الخفية من ماسونية وصهيونية على العسكريين بخاصة وعملت على تربيتهم تربية فاسدة .

وكانت الكليات العسكرية وكليات الأركان العربية والاسلام تدرس تاريخ حرب المستعمرين وتدرس تاريخ القادة الذين استعمروا بلاد المسلمين بأسلوب يجعل الطلاب يؤمنون بتفوق المستعمرين وبضرورة الاقتداء بهم منهاجا وتصرفا، وكان الطلاب العسكريون يتخرجون ضباطاً وهم يعرفون عن الجنرال مود والجنرال اللنبى ، أكثر مما يعرفونه عن الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام وعن خالد بن الوليد .

وكان أكثرهم لا يعرفون عن قادة الفتح الإسلامى شيئاً مذكوراً . ومن المذهل أن نسأل الضابط العربى المسلم عن إسم القائد العربى المسلم الذى فتح مدينته ونشر فيها العربية لغة والإسلام ديناً فلا يعرف هذا الضابط لهذا السؤال جواباً ، يدرس فى الكليات العسكرية وكليات الأركان ، الفكر الغربى للسائرين بفلك الغرب ، والفكر الشرقى للسائرين ، بفلك الشرق من الناحيتين التعبوية (التكتيكية) والاستراتيجية ، وقد تكون الأفكار الشرقية الغربية هـذه لا تلائم الطبيعة العربية والإسلام وقد تكون على طرفى نقيض من هذه الطبيعة أما الفكر العسكرى العربى الإسـلامى فغائب عن تلك الكليات ، أما التدريب العسكرى فهو إتدريب شرقى أو غربى ولا دخل للتدريب النابع من فكرنا وطبيعتنا فى تدريب الطلاب العرب والمسلمين .

كل هذا التعليم والتدريب يدرس بلغة عربية ركيكة ، تشيع فيها المصطلحات الإنكليزية والفرنسية والتركية ، وحتى الروسية أيضاً ، تأكيداً للاستعمار الفكرى البغيض .

ولله الفضل وحده فى توجيه المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ، وذلك بصدور أربعة معجمات عسكرية موحدة ، ولكن أفظع من كل ذلك — السلوك اللاأخلاقى الذى فرضه الاستعمار بكل أشكاله شرقياً أم غربياً ، قديماً أو حديثاً .

لقد أشـاع هذا الاستعمار أن الدين والعسكرية على طرفى نقيض وأن المتمسك بدينه متخلف لا يمكن أن ينجح فى مسلكه العسكرى فعليه إما أن يترك دينه أو يتخلى عن عسكريته ، وأن من صفات العسكرى الممتاز أن يكون فاسقاً فاجراً ، يعاقر الخمر ، ويلعب القمار ، ويصادق الغيد الحسان .

وقد سألنى (أرسيتى) فى أول لقاء به : هل تعاقر الخمر ، هل تلعب القمار

هل تغازل الفتيات ، فلما أجبته بالنفى قال لى : لماذا تعيش إذن ، الأفضل أن تموت .

وقد تحمل العسكريون المتدينون وهم قلة قليلة ما تحملوا من عناء ليبقوا فى مسلكهم العسكرى وأكثرهم تخلوا عن العسكرية أو جرفهم التيار الوسخ ، وأقلهم ثبتوا على عقيدتهم بعد جهد جهيد ، وكان من يمارس الصلاة والصوم من العسكريين ويطبق تعاليم الدين الحنيف ثقيل الظل غير مريح .

وكان فى كل وحدة من الوحدات مقصف للخمور ، وكان فى كل ناد للضباط مقصف للخمور ، وكانت الحفلات تقام لأتفه الأسباب وهى حفلات داعرة خليعة يراق فيها الخمر وتقترف المحرمات .

تلك لمحات عن السلوك اللاأخلاقى الذى فرضه الاستعمار على الضباط العرب المسلمين ، فهل يستغرب أحد بعد ذلك لانتصار مليونين ونصف المليون من اليهود على مائة وعشرين مليوناً من العرب وستمائة مليون من المسلمين . ونسأل هؤلاء : هل يحارب الدين العلم ، هل يدعو الإسلام إلى الجهل ، ماذا يعيبون على العقيدة الإسلامية منهجاً للحياة وسبيلا للفضيلة والخير ، لماذا إذن التنكر للدين ولمصلحة من هذا التنكر ، إن هذا التنكر لمصلحة الاستعمار وإسرائيل ما فى ذلك أدنى شك .

إن الأيدى الخفية التى لا تريد الخير للعرب والمسلمين هى التى عملت وتعمل على إشاعة المفاهيم الخاطئة الهدامة عن الدين والمتدينين من العسكريين حتى لا تقوم قائمة للعرب والمسلمين وحتى ترسخ إسرائيل أقدامها فى الأرض المقدسة (فلسطين) إنى أتحدى كل من يستطيع أن يذكر قائداً عربياً واحداً منتصراً لم يكن يتحلى بالتدين العميق ولم يكن يؤمن بالمثل العليا النابعة من صميم تعاليم الدين الحنيف .. لن يستطيع أحد أن يذكر قائداً عربياً واحداً كان له فى ميدان

النصر تاريخ إلا وهو متدين إلى أبعد الحدود .

وقادة الفتح الإسلامي العظيم كلهم من صحابة رسول الله ﷺ ومن التابعين رضوان الله عليهم ، لقد أحصيت عدد القادة الفاتحين فكانوا (٢٥٦) قائداً عربياً مسلماً منهم (٢١٦) من صحابة رسول الله ﷺ و (٤٠) من التابعين عليهم رضوان الله .

وكل القادة المنتصرين بعد الفتح الإســـلامي كانوا متدينين غاية التدين كما ذكرت سابقاً ، فمن أين جاء المستعمرون بفرية التناقض بين التدين والعسكرية ؛ وإذا كان من حق الاستعمار والصهيونية أن يفتروا خدمة لمصالحهم فلماذا يصدقها العرب والمسلمون ولماذا يرددونها باقتناع .

الفصل الثالث عشر

الأصالة فى الأدب والفكر واللغة

(محمد محمد حسين)

إن التغريب قد كبل الفكر الإسلامى بسلاسله ، فلم يدع مجالا من المجالات إلا ووضع قيوده وحواجزه حتى يحتوى الفكر الإسلامى فى دائرة مغلقة . فلا يستطيع تحقيق ذاتيته أو التماس مصدره القرآنى الأصيل . وهى محاصرة شملت عدة ميادين ، أهمها وأخطرها ميدان الشريعة الإسلامية .

أولا : تطوير الشريعة الإسلامية :

هذا مجال بذلت فيه القوى الاستعمارية وذات النفوذ فى البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية جهوداً كبيرة من أجل احتواء الشريعة الإسلامية تحت إسم التطوير بحيث تصبح أداة لتبرير القيم الغربية ، وتقريب إما بين الشعوب الإسلامية والغرب ، فهى الغاية الأخيرة والهدف المقصود الذى تسعى إليه . ومن أساليبهم فى هذا التطوير أن يستدرجوا المسلمين إلى مؤتمرات للكلام فى نقط معينة من نظم الشريعة التى تخالف ما استقر عليه عرف الغربيين مما يجرى باسم المدنية . وذلك لكى يلجئوهم إلى تحريف نصوص القرآن والحديث والميل بها إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة .

وأكثر ما نجد هذا التحريف فى قضية (المرأة) وما يتصل بشئونها مثل ما يدعى بعضهم من أن الإسلام قد أسس للمرأة حقوقاً فى الحكم أو الكلام عن الحجاب والنقاب وتعدد الزوجات والربا .

ولقد يطلب من أحدهم أن يتحدث عن هذه الموضوعات ، فيشغل نفسه بتبرير الأساليب العصرية السائدة مما يخالف الشريعة الإسلامية ، فينتحل لها الأعذار ويخترع الحيل لتحريمها ومحاولة الميل إلى أقصى ما تحمله النصوص نحو القيم الغربية إرضاء للداعين له ، وبذلك يقع فى الأحبولة التى دبرها له ولأمثاله دهاقين المستشرقين ، فهو فى سبيل دفع تهم الجمود التى يلصقها الغربيون بالشريعة ينجرف إلى أقصى الطرف المناقض فى بيان ما تنطوى عليه الشريعة من مرونة التطبيق حتى يبلغ بهذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات التى تجعلها صالحة لأن تكون ذيلا لأى نظام وتبعاً للأهواء . وبذلك ينتهى إلى إلغاء وظيفة الدين ، لأنه بدلا من تقويم عوج الحياة بنصوص الشريعة يحتال على نصوص الشريعة حتى يبرر عوج الحياة المعاصرة .

وتجرى دراسات المستشرقين فى مؤتمراتهم نحو هذه الغاية الخطيرة ، وهى تهدف إلى محاصرة (الدين) لتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شؤون العبادات وإلغاء المعاملات التى يقوم عليها تنظيم المجتمع .

كذلك فإن من محاذير أعمالهم مع بعض من يؤيدهم من علماء المسلمين فكرة إعادة النظر فى الدين وتطويره . ومنهم من يطالب بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث ، وإخضاعها لقوانين علم النفس الحديث التى تقوم على الحدس ، والتى تخضع للتغيير والتبديل .

ثانياً : تبعية التعليم للغرب :

إن حصوننا مهددة من داخلها ، إن وزارات التربية والتعليم هى أهم المعاقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها ، لأنها هى المؤتمنة على أثمن ما تمتلكه الأمة من كنوز ، وهى الثروة البشرية بما تنطوى عليه من قوى مادية ومن ملكات عقلية وخلقية ممثلة فى رجال الغد الذين تشرف على تربيتهم ، وهى

ثروة تتضاءل إلى جانبها كل كنوز الأرض . لأن كنوز الأرض لاتساوى شيئاً بدونها ، فالعقل هو الذى يستخرجها ، والخلق الدينى هو الذى يدفع الناس إلى بذل الجهد وإلى إعمال هذا العقل فيما وكل إليه من أمور ، ولا ريب أن اتصال القائمين على شؤون التربية والتعليم فى هذه البلاد العربية بالمؤسسات الغربية التعاون معها فى ترويج مبادىء وأساليب يقال : إن المقصود بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح شؤون الجيل الجديد أمر لا يصدقه عقل ولا يتفق مع مايبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها .

إن التقدم الصناعى لا يغنى شيئاً إن غفلنا عما حفظه التاريخ من دروس وعظات . فتفرقت بنا السبل ، ودب فينا دبيب الخلاف ، ومزقتنا الدعوات المتنافرة التى ينقض بعضها بعضاً .

والدين واللغة هما أهم دواعى الألفة والتماسك فى كل مجتمع إسلامى ، والدين هو الذى يوحد العادات والأمزجة ، فيجمع الناس فيما يحبون وفيما يكرهون وفيما يألفون وفيما يعادون على ألوان معينة من الأساليب البيانية . لذلك كانت المعاهد والمؤسسات التى تقوم على صيانة الدين واللغة هى بمثابة الحصون والمعاقل التى تسهر على حمايتنا وسلامتنا .

وتحاول بعض الدول الغربية أن تجمع رجال التربية فى مؤتمرات لاحتوائهم وتوجيههم وجهتها هى ، والمركز الدولى للتربية الأساسية فى العالم العربى لا عمل له إلا سلخ الريف العربى من دينه وخلقه وعروبته ، وطبعه بالطابع الغربى إتماماً لما بذله الغرب من جهود فى (فرنجة) هذه المنطقة بعد أن أعلن المستشرقون إن تأثير الفرنجة أو التغريب لم يتجاوز المدن ، وهو احتيال خبيث لدخول الريف بعد أن عجز التنصير . وعجزت الأساليب الإستعمارية عن إقتحامه إلى ما بعد

الحرب العالمية الثانية ، وها هو يقتحم اليوم تحت ستار ما يسمى بالتربية الأساسية .

وهى بهذا تهدف إلى تغيير الأفكار والنزعات والإتجاهات على أسس غربية خالصة تروج باسم العلم . هذا التغيير لايبالى أن يخالف الإسلام وتعاليمه . لأن القائمين على هذا التغيير هم مجموعة من الخواجات الذين يختفون خلف الشخوص العربية التى تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها ، وهى تسير وراء خطوط مرسومة .

وتهدف هذه المؤسسات إلى إفساد المرأة الريفية وفرنجتها واستئصال حيائها وخلط الذكور بالإناث ، وإخراج المرأة للأسواق ، وامتهانها بين الرجال مما يعرض المجتمع كله للفساد والانحلال والاندثار ، والهدف الخفى هو استقاء معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها تخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة .

وكذلك يرمى إشراك البنين والبنات فى الرحلات ، وهو ما تدعو إليه الماسونية يتحول إلى أنظمة عملية .

إننا إذا احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب وتفوقه فى الصناعات الآلية التى كانت سبباً فى مجده وسيادته ، فمن المؤكد أننا فى غير حاجة إلى استيراد قواعد السلوك والتربية والأخلاق التى تدل الأمارات والبوادر على أنها ستؤدى إلى تدمير حضارته ، والقضاء عليها قضاء تاماً فى القريب العاجل .

ثالثاً — بعث التاريخ القديم :

هذا خيط من الخيوط الأساسية التى تكون الشرك الذى يراد به احتواء المسلمين : مجتمعهم وفكرهم فإن المستشارين الغربيين اليوم فى البلاد العربية يدعون إلى العناية بالتاريخ القديم ، وإلى أن يبذل علماء الآثار الغربيون جهداً

مشتركا لتدريب علماء المسلمين ، وهو هدف يرمى إلى تلوين الحياة المحلية فى كل بلد من بلاد دار الإسلام بلون خاص يستند فى مقوماته إلى أصوله الجاهلية الأولى وبذلك تعود الحياة الإجتماعية التى وحد الإسلام مظاهرها إلى الفرقة والتشعب برجوعها إلى أصولها القديمة السابقة على الإسلام فيستريح المستغلون من احتمال تكتل المسلمين .

علينا أن نكشف خصائص هذه الدعوة ونبين خطورة أهدافها التى لاتخدم إلا مطامع الغرب التى يتوسل إليها فى البلاد العربية وفى العالم الإسلامى بتقطيع أوصالها ، وبث روح التنافر والتدابر والتقاطع بين أفرادها وجماعاتها ، استدامة للوضع الراهن الذليل الذى كانت فيه ، وتحاشياً لا تحادها الذى يؤدى إلى قوتها وقد ظهرت الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام فى وقت واحد فى تركيا ، والشام ، ومصر ، والعراق ، وشمالى أفريقيا ، والهند ، وأندونسيا بمظهر واحد وأساليب متشابهة .

ومن ذلك إستخدام الفلكلور لهذا الغرض أيضاً ، والبحث عن كل مايتصل بعادات الشعوب وتقاليدها وخرافاتها وأساطيرها ومعتقداتها وفنونها ، وكل مايجرى على ألسنتها من أغان وأمثال أو شتائم وأهازيج ، وتهدف من وراء ذلك إلى التعمق فى تحليل نفوس أصحابها وإدراك دوافعها ونوازعها ، وفهم ما ينتظم عواطفها من منطق بغية الوصول إلى أمثل الطرق وأحذق الخطط للتمكن من هذه الأمم واستغلالها وإدامة عبوديتها .

رابعاً — تدمير المجتمع الإسلامى :

إن هناك هدفا مبيتاً هو فرنجة المرأة الشرقية وحملها على أساليب الغرب فى شتى شؤونها . فى الزواج والطلاق ، وفى المشاركة فى العمل والإنتاج ، وفى شتى الميادين ، وفى الزى والمحافل .

هذا الاتجاه هو بدوره جزء من اتجاه أكبر يراد به سلخنا من أدب إسلامنا وتشريعه، وإلحاقنا بالغرب فى التشريع والأدب والموسيقى والرسم وسائر شؤون الحياة من جد ولهو، وأبرز جوانبه ناحيتان : إختلاط النساء بالرجال واشتغال النساء بأعمال الرجال .

وأحب أن أنبه أن هذه الخيوط كلها تجرى فى اتجاه واحد : هو خطة الصهيونية الكبرى للسيطرة على العالم من طريق هدم كل ما فيه من قوى ، ومن قولهم فى البروتوكولات : إن لفظة (الحرية) تجعل المجتمع فى صراعه مع جميع القوى بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها ، وقولهم : نحن الذين هيأنا لنجاح (داروين ، وماركس ، ونيتشه) إن ماينادى به على أنه حقوق المرأة لا يهدف إلا إلى مخالفة عرف راسخ وتحطيم قاعدة مقررة ، وإقامة عرف جديد فى الدين والأخلاق والذوق ، وخلق المبررات والمقومات التى تجعل إنسلاخنا عن إسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا أمراً واقعاً، كما يجعل دخولنا فى دين الغرب ومذاهب الغرب وفسق الغرب أمراً واقعاً كذلك ، وأخطرها فى هذه الدعوة وأمثالها مما يراد به حملنا على كل فاسد من مذاهب الغرب يهدف أصحابها إقحامها على إسلامنا زاعمين أنها لا تعارضه .

وقد كان قاسم أمين هو أول من جرأ الناس على تحريف النصوص حين طلع علينا بطائفة من المزاعم التى تقوم على المخارق ، وعلى النصوص المحرفة عن مواضعها والمخلوعة عن سياقها خلعاً يخرجها عن مدلولها ، وحين تصيد من كتب التاريخ ورواياته على اختلاف درجاتها ودرجات مؤلفيها كل شاذ غريب فحشدها فى حيز واحد ، وضم بعض أشتاتها إلى بعض حتى خيل إلى قارئها على أنها — على شذوذها وقلتها — شىء مألوف كثير الوقوع .

إن كثيراً من النصوص التاريخية والفقهية التى اقتطعها ناقصة الدلالة. غامضة

العبارة ، وقد استطاع أن يروج ذلك كله بين الناس بمرور الأيام بفضل قوة حزبه الذى كان ينوه به اللورد كرومر فى تقريره ، وهو الحزب الذى علق كرومر عليه الآمال فى رعاية المصالح الإنجليزية عن طريق إنشاء علاقات الود والتفاهم بين الإنجليز والمسلمين فى مصر .

وقد تبين من بعد فساد الاستدلال بهذه النصوص حتى إن شوقى قال فى قصيدته رثاء قاسم أمين ما يدل على ذلك .

ولك البيان الجذل فى أثنائه العلم الغزير
من مطلب حسن كثير فى مزالقه العثور
ما بالكتاب ولا الحديث إذا ذكرتهما نكير
حتى ليسأل هل تغار على العقائد أو تغير

خامساً : سموم التغريب فى الجامعة المصرية :

إن المؤلفات المسمومة التى أخرجتها اللجنة الثقافية للجامعة العربية كانت من عمل الدكتور طه حسين الذى تشهد كتبه إنه لم يكن إلا بوقاً من أبواق الغرب وواحداً من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير .. يروج ثقافاته ويعظمها . ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم .

طه حسين الذى لم يمل الكلام عن جامعة البحر المتوسط التى دعت إليها فرنسا بالأمس والتى تدعو إليها أمريكا اليوم . طه حسين الذى زعم لمصر أنها جزء من البحر المتوسط فى مقومات شخصيتها وليست جزءاً من عرب نجد واليمن والبحرين والعراق والسودان . طه حسين الذى لم ير العرب فى وهمه أمة لأن قوام الدول فى زعمه المنافع المادية . ولأن تطور الحياة الإنسانية قد قضى من عهد بعيد على وحدة الدين ووحدة اللغة وجعلها لا يصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول . طه حسين الذى لا يؤمن بهذه الحقيقة لأنه

يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم ولكن السبيل إلى نهضتهم أن يذوبوا فى الغرب، وهذا عمله فى الجامعة العربية بعد عمله فى الجامعة المصرية .

سادساً : تطوير قواعد اللغة العربيـة :

إن الدعوة التى يسمونها تطوير قواعد اللغة العربية .. أو تهذيبها أو تيسيرها أو إصلاحها أو تجديدها . تعنى شيئاً واحداً هو التحلل من القوانين التى صانت اللغة العربية خلال ألف عام أو يزيد ، وقد اقترنت هذه الدعوة بصعوبة قواعد اللغة العربية وتوقفها عن النمو والتطور . وتخلفها عن مسايرة العصر والانتفاع بما استحدثه الدارسون فى الدراسات ، وهى دعوة باطلة من وجهين : هى باطلة أولا لأنها تتجاهل سنة الله من خلق الناس شعوباً وقبائل ، وكان من آياته وسننه فيهم اختلاف ألسنتهم . وطبيعى حين تختلف الألسنة أن تختلف قواعدها ، لأن القواعد التى تنظم لغة كل مجتمع تنبع من واقعها وتلائم طبيعتها ونظامها .

ومحاولة توحيد القواعد والنظم فى اللغات أو فى الجماعات البشرية على وجه العموم غرض خبيث يعلم الداعون بها أو لا يعلمون أنها فرع من محاولات متعـددة تتجه كلها إلى هدف واحد هو طمس الفوارق المميزة بين الأجناس والجماعات البشرية ، دينية كانت هذه الفوارق أو قومية ، أو فنية جمالية مما تسعى إليه الصهيونية العالمية حتى تنحل الروابط التى تقوم عليها المجتمعات البشرية المختلفة ، فلا يبقى على وجه الأرض مجتمع متماسك غير المجتمع الإسرائيلى .

والوجه الآخر أن أصحابها حين عاينوا الداء لم يصيبوا الدواء ، رأوا ضعف الجيل الناشىء فى اللغة العربيـة وانصرافه عن تراثها وعجزه عن تذوق أساليبها وروائع أدبها فظنوا أن العلة فى قواعد هذه اللغة ، والحقيقة أن العلة فى الذين يعلمون القواعد أو يتعلمونها، فكلاهما مقصر وكلاهما مما ابتليت به الأمة العربية

فى سائر مناشطها من العجز والتفريط وضعف الهمم . وقد ظلت هذه اللغة قروناً طوالا تزيد على ألف عام . صلحت فيها لمواكبة الأجواء الحضارية التى تقلبوا بين مشارق الأرض ومغاربها ، لم تضق بشىء منها ، ولم ينتبهوا إلى وجود هذا النقص فى اللغة إلا فى نصف القرن الأخير تقليداً لدعاة المستغربين الذين أخذوا يؤلفون الكتب فى اللهجات العامة ، واقترحوا هذه اللهجات لغات لتحل محل العربية الموحدة فى تدوين العلوم والآداب ، كما اقترحوا كتابتها بالحروف اللاتينية .

وخطر هذه الدعوات على التراث الإسلامى وعلى الأجيال التالية بين أبناء المسلمين وأبناء العرب خاصة واضح لا شك فيه ، فكلها ترمى إلى عزل هذه الأجيال عن تراثها بتغيير رسم الخط تارة ، وبتطوير اللغة تارة أخرى ، وبتغيير مصطلح العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة تارة ثالثة ، وهو مصطلح يشيع استعماله فى كل كتب التراث من تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف وشرح النصوص الشعرية والنثرية .

ثم جاءت بعد ذلك خطوات لتطبيق أساليب جديدة منقولة من دراسات اللغات الغربية . أو ما يسمى (علم اللغة العامة) واقترنت هذه الدعوة بالعناية باللهجات العامية وآدابها ، أو ما يسمونه بالأدب الشعبى . ونشأت باقتراح بعض المستشرقين من رجال الاستعمار حين جمعوا طائفة من الأغانى والمراثى والمواويل والأناشيد العامة تروج لدعوتهم ، واتخذوا بعض ما يسمونه الأدب الشعبى فى ألف ليلة وليلة موضوعاً للدراسة . هذه الدراسات نشأت نشأة فاسدة فى حضانة الاستعمار .

لنكن صرحاء مع أنفسنا من أين جاءتنا هذه الدراسات .

هل نشأت لحاجة تنبعث من واقعنا ، إنها اقترحت بواسطة أجهزة الاستعمار

والتنصير، وقد كانت فى أول الأمر فى الصحف والمجلات . أما الآن فقد دخلت إلى نطاق المعاهد الدراسية والجامعات حين أرسلوا بعثتين إلى انجلترا لدراسة اللهجات واللغويات على طريقة الغربيين . وعاد كل هؤلاء وكل بضاعتهم التى لا يحسنون سواها هى دراسة اللهجات . وسارت دراسات الأدب الشعبى مواكبة لهذا الاتجاه فى الوقت نفسه فى كليات الآداب ودار العلوم .

زعم المخدوعون والمفسدون أن الغرض من دراسة اللهجات تعليم المنهج . فلأى غرض نريد أن نتعلم منها دراسة لهجات العربية العامة ووضع قواعد لها . إذا لم يكن ذلك تمهيداً لإكسابها شيئاً من الاحترام ورفع قدرها عند عامة الناس توطئة لاتخاذها لغة للأدب والتدوين أو تطعيم العربية الفصحى بها على أقل تقدير وللوصول إلى ما يسميه بعضهم اللغة الثالثة أو اللغة الوسط ؟ !

والحقيقة أن لنا منهجنا الخاص الذى أثبت ألف عام أو يزيد صلاحيته . ولا حاجة لنا بهذا المنهج الوافد ، فقد صان منهجنا اللغة العربية بحمد الله ولا يزال ، وواجه احتياجاتها وما جد من شعوبها طوال تلك القرون فاضطلع بها ولم يعى ولم يضق بضبط تطوراتها وتوسعاتها من بغداد شرقاً إلى أقصى بلاد المغرب والأندلس غرباً .

وإذا استحدثت مناهج جديدة ومصطلحات جديدة فقد حكمنا بالإعدام على تراثنا ، لا على تراثنا النحوى والصرفى واللغوى وحده ، بل على التراث كله الذى يستعمل هذه المصطلحات فى تفسير القرآن وفى شروح الحديث ، وفى شرح دواوين الشعر ومختاراته ، وهو تراث سوف يتمسك به المسلمون من غير العرب ويتفرد بمخالفته العرب .

فلنضع السؤال الصريح الذى فيه فصل الخطاب ، هل نريد أن نظل مسلمين تحكمنا أصول الإسلام ، وتتعرف وجوه النفع والضرر من وجهة نظر إسلامية

أم أننا نخدع أنفسنا وننافق الناس، ليتنا نعرف أننا لا نخرق الناموس ولا نهرب من حكم الله ، وأن الذى يرفض أن يعمل عملا مأجوراً من الله والناس يضطر فى آخر المطاف أن يعمل لعدوه مستعبداً دون أجر .

سابعاً ـ كتابات الأدباء عن الإسلام :

وماذا عن كتابات العقاد وطه حسين الإسلامية:

ـ إن طه حسين والعقاد لا ينتميان أصلا إلى المدرسة الإسلامية من الناحية الفكرية ولكنهما ينتميان منذ نشأتهما الأولى إلى المدرسة الليبرالية المتحررة التى تعتبر (لطفى السيد) أستاذها الأول فى جيلهما والمدرسة الليبرالية تحكم العقل المجرد المتحرر من كل المواريث الفكرية والسلوكيه فى كل شىء ، ولا تبالى أن تلتقى مع الدين فى كل وجهات النظر أو فى بعضها أو تتعارض معه وتخالفه، ولكن كان طه حسين أكثر عنفاً وأكثر جرأة فى معارضة الدين، وفى المجاهرة بما يثير الناس ليلفت إلى نفسه الأنظار ، لقد هاجم طه حسين أباه فيما كان يتلوه من أوراد فى أعقاب الصلاة وفى الليل (فى كتاب الأيام)

إن طه حسين والعقاد قد اكتسحتهما الموجة الإسلامية العارمة فتتابعت كتبهما بعد أن أصبح ذلك هو البدع الشائع الذى يغمر الأسواق ، ولم يعد التشدق بالكفر ونظرياته المستوردة سمة من سمات المفكرين تستهوى الأغرار من الشباب كما كان فى العشرينيات .

ويرجع هذا الانقلاب الفكرى إلى عدة عوامل عدلت بالناس وبكثير من المفكرين عن طريق احتذاء الحضارة الغربية والفكر الغربى ، وردتهم إلى طريق الإسلام : موجة التنصير ، هجرة اليهود إلى فلسطين ، سقوط الخلافه على يد الكماليين ، ظهور جمعيات إسلامية عظيمة .

قاعدة أساسية ينبغى أن توضع فى الحسبان حين يوزن الأدباء والمفكرون من وجهة النظر الإسلامية ، وهى أن الإسلام نظرية فى السلوك بمثل ما أنه نظرية فى المعرفة ، ولذلك كان من المهم أن لا يقبل فكر إسلامى أو أدب إسلامى من مفكر أو أديب لا يمارس الاسلام ولا يلتزم به ومعروف أن طه حسين والعقاد لم يكونا ممارسين للإسلام فى أصوله الأصلية .

ثامناً ـ موجة الشعر الحر :

الشعر الحر فى أصل نشأته شعبة من اتجاه عام يدعو إلى تقليد الغرب فى فكره وحضارته. فإطلاق الشعر من القافية التى ظل يلتزمها طوال هذه القرون منذ عرفنا الشعر العربى دعوة تستمد حجمها ومبرراتها من الشعر الغربى الذى لم يعرف القافية إلا فى حدود ضيقة من آثار احتكاكه وتأثره بالأدب العربى فى الأندلس ، ولماذا الحرص على تسمية هذا النوع من الأدب شعراً ، إنه أدب نثرى ! ولم يقل أحد إن الأدب النثرى يخلو من التصوير ، ومن التأثر والتأثير العاطفى ، بل إنه حين يخلو منهما لا يصح أن نعتبره أدبا على الإطلاق .

إن هذا الحرص على تسميته شعراً لم يجىء إلا من اعتباره شعراً عند الغربيين وهو على كل حال آخذ فى التراجع والتقلص وقد بدأت موجته فى الانحسار بعد أن بلغت ذروتها فى العقدين السابقين من هذا القرن وكان كل ما تركته من أثر هو ضعف هذا الجيل وعجزه عن تذوق الشعر العربى الأصيل فى تراثه الطويل وكان مما فتن به أصحابه أنهم تصوروا أنفسهم أنهم أصبحوا شعراء عالميين بعد أن ترجم بعض شعرهم للغات الأوربية كأنهم يكتبون للغرب ولا يكتبون لقومهم من العرب وكأن شرطاً من شروط الأدب الجيد أن يكون مقبولا عند غير أهله ولعل هذه الترجمات كانت وجها من وجوه المخطط الذى يغرى بترويج هذا الاتجاه الذى ينتهى إن نجح إلى قطع ما بين حاضرنا الأدبى

وبين تراثنا من صلات ولقد كان أصحاب هذا الاتجاه يدافعون عن مذهبهم بحجج أبرزها اثنتان :

الأولى : أن القافيه قيد يلتزمه الشاعر على حساب عناصر الشعر الأخرى من فكر وصور وعاطفة.

الثانية : أن إغلاق باب التجديد وتقييد حرية الفنان فى ابتكار ما يناسبه من قوالب وأساليب يشل انطلاقه وينتهى إلى حال من الركود والجمود يتخلف معها الشعر ويتراجع .

والرد على الحجتين سهل ويسير أما الحجة الأولى فهى تعلة الضعفاء الذين يعجزون عن النهوض بأعباء الشعر من كل جوانبه وعناصره . وقد نهض بها الفحول من الأقدمين ، فما رأينا فى شعرهم جوراً على الفكر والصور بسبب التزام القافية . وفن الشعر للقادرين عليه ..

وفى النثر متسع لغير القادرين.والبعد عن ميدان الأدب جملة أولى بالعاجزين أما عن دعوى التجديد وحرية الفنان فقد توافرا دائماً على مدار القرون . وفى مختلف العصور والبيئات لجدد شعراء العرب وابتكروا ما ابتكروا وأضافوا ما أضافوا فى حدود طبيعة الشعر العربى ومع التزام مقوماته الأصيلة فاختلفت ألوانه باختلاف العصور والبيئات ومع ذلك فقد كان هذا الابتكار فى أشكال الشعر وقوالبه وقوافيه قصير العمر ولم يلبث الشعر أن عاد إلى النبع الأصيل وحين بدأت نهضة الشعر المعاصر بعد ركود طويل منذ ما يقرب من قرن عاد رواد النهضة إلى النبع الأصيل يستقون منه ويسقون .

ثم إن دعوى الحرية بلا قيود فى أى جوانب من جانب الحياة هى دعوى تقوم على سذاجة الداعى إليها أو سوء قصده فليس هناك حرية مطلقه للإنسان

ولا لشيء من خلق الله وليست الحرية المطلقة إلا الهوى :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)

نعم : لو كان للأرض اختيار لدارت كما تهوى ولو كان للشمس ولسائر الكواكب اختيار لجرت على ما تهوى ولو كان للكائنات التي تخضع لسنن الله الكبرى القاهرة من تجاوب وتنافر من اختيار لفسد الكون وبطلت الحياة . ومن سنن الله الكبرى أن يكون الناس شعوبا وأمما وأن يكون لكل أمة لسانها الخاص ومزاجها وتقاليدها والفنون على اختلافها لها انتماء قومى شرطها الأساسى أن تجمل عند قومها أولا وقبل كل شيء وليس مهما بعد ذلك أن تجمل أو تحسن عند غيرهم والكلام عن الإنسان فى هذا المجال وعن العالمية صار هادماً لأسباب النهضة عند الأمم الضعيفة بنوع خاص لأنها لا تقوم لها نهضة إلا على مغارسها وأصولها الأولى والنهضة على غير هذا الأساس فناء لذات العنصر الأضعف فى العنصر الأقوى.

الفصل الرابع عشر

هزيمة المناهج الغربية

(الدكتور يوسف القرضاوى)

العلمانية : دعوى أصبحت قديمة وممجوجة وقد جربت البلاد الإسلامية العلمانية بوجهيها ، الوجه البيدالى اليمينى الرأسمالى والوجه الآخر اليسارى الاشتراكى الثورى وفعلا لم تستطع العلمانية أن تسعد الناس من شقاء ولا تطعمهم من جوع ولا تؤمنهم من خوف فى شتى أنحاء البلاد الإسلامية ، والواقع أن البلاد الإسلامية تحتاج إلى الإسلام فالإسلام هو الشيء الوحيد الذى لم يجربه الناس ، جربوا ما استوردوه من الشرق وما استوردوه من الغرب ، لجأوا مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار فما حققوا ما يريدونه ، إن أول دولة علمانية فى البلاد الإسلامية كانت تركيا التى طاردت الإسلام مطاردة قوية حتى الحجاب كان ممنوعا حتى الحروف العربية التى تذكر الناس بالإسلام وبالقرآن وباسم الله الرحمن الرحيم ، هذه منعت وأصبحت لا شيء ، حتى الآذان (الله أكبر) كان ممنوعا باللغة العربية والقوانين وخاصة فى الأحوال الشخصية رفضوها واستوردوا قوانين علمانية ولكن هل أفادت هذه العلمانية تركيا ، وهل أصبحت بالعلمانية عظيمة ، تركيا التى كانت دولة الخلافة وكان اسمها على كل لسان ، كانت مصدراً الرعب فى أوربا فى وقت من الأوقات فانظر إليها تجدها فى ذيل القافلة الغربية يعنى ليس لها شأن فى الفكر الغربى ، واحدة ضمن حلف الأطلنطى ولكن ما قيمتها فى المجتمع العالمى وهل حققت نجاحاً فى مجالات معينة مثل كوريا واليابان ؟ أما تركيا فلا تقدمت صناعياً ولا زراعياً ولا تكنولوجياً ولا رأيناها حققت شيئاً ذا بال.

هـــذه الدولة العلمانية التى أمامنـا كل ما فى الأمر أنها أضعفت الروح الإسلامية مدة طويلة فأضعفت قوة المقاومة عند الأمة وأخمدت جذوة الأمة المستقلة ولكنها لم تستطع أن تميت هذه الروح التى ظهرت من بعد فى شكل مدارس قرآنية بالآلاف، ومعاهد دينية للأئمة والخطباء بالعشرات، صحوة إسلامية فى كل مكان فوجىء بها هؤلاء العلمانيون لآن هذه فطرة الشعب ورصيد التاريخ لا يمكن بحال من الأحوال أن يلغى بجرة قلم.

العلمانية : لا يمكن أن تنفع عندنا، يمكن أن تقبل فى مجتمع غربى، لكن هذا المجتمع لا يؤمن بأن لله وجوداً خلق العالم وتركه، حتى أن المسيحية يمكن أن تقبل العلمانية فهى تقول (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) أما نحن فى الإسلام فقيصر وما لقيصر لله الواحد القهار فليس لقيصر جزء ولله جزء، كلها مملكة الله سبحانه وتعالى :

(ولله ملك السموات والأرض)

فلا تقبل الحياة عندنا القسمة ولا الانشطار ولا الازدواج، بعض يكون للدين وبعض للدولة .

لدينا نحن المسلمين أحكام شرعية لابد أن تنفذ، وليس عندنا سلطتان فى الإسلام، يفصل السلطة الروحية عن السلطة التنفيذية، فليس عندنا طبقة من رجال الدين يتوارثون كالأديان الأخرى، بل كل مسلم رجل دين، عندنا علماء الدين، وعلماء الدين هؤلاء ليس لهم سلطة خاصة على ضمائر الناس، ولهذا لو فصلت الدولة عن الدين فى هذه الحالة ذبحت الدين لأنه ليس هناك سلطة تقوم به.

ومن هنا فإن العلمانية فى نظر الإسلام مرفوضة ثم أن العلمانية معناها أنك تعرض الأمة إلى تناقض فى العقيدة وفى الواقع .

(٢) أمتنا الإسلاميه إذا عزفت لها على نغمة القومية أو الإشتراكية أو أى نغمة تشاء، فلن يستطيع أحد أن يحرك ساكناً فيها، ولكن إذا قدتها

بالله أكبر فستجد أنك لمست أوتار الإيمان فى قلوبها ، ستسير وراءك الملايين ، ستضحى بالنفس والنفيس ، ستصنع العجائب ، وستخوض البحار وهذا لمسناه فى التاريخ والواقع .

انظر هزيمة يونيو ١٩٦٧ وانظر للعاشر من رمضان .

فى ٦٧ كانوا يقولون (مدفعنا يتحدى القدر) وهذا المدفع لم يفعلوا به شيئاً بل تركاوه غنيمة لليهود ، أما فى (١٠ رمضان) لحينما نادى المنادى (الله أكبر) هبت على الجنود والناس نفحات رمضان ، وكان العبور واقتحام خط بارليف حيث حطمت أسطورة القوة التى لا تقهر ، وأخذنا من النصر على قدر ما كان عندنا من إيمان ، ولو كان عندنا إيمان أكبر لكنا توسعنا وتوغلنـــا أكثر ، إنما على قدر إيماننا أخذنا .

(أعطنى إيماناً أعطك نصراً)

إن هؤلاء الذين يريدون لهذه الأمة أن تـــكون علمانية إنما يريدون أن يخمدوا شعلة الإيمان والحماس الموجود فى شعب هذه الأمة ، والتى يمكن بها بإذن الله أن يجعلها تصنع العجائب .

وإنى أقول أن ما ينادى به خصوم الإسلام من جعل هذه الأمة علمانية إنما هو حكم عليها بالضعف والتمزق والجمود الذى ينتهى للفناء والعيش ذليلة للأقوياء .

(٣) إن الحملة على اللغة العربية وبخاصة اللغة الفصحى: لغة القرآن الكريم هى جزء من الحملة على الإسلام لأنه لا انفصال بين العربية والإسلام ، العربية هى لسان الإسلام والعروبة وعاء الإسلام ولا يمكن أن نفهم الإسلام بغير العربية ولا يمكن أن نفهم القرآن والسنة المطهرة وتراثنا العظيم بكل محتوياته إلا إذا أتقنا اللغة العربية وملكنا ناصيتها .

واللغة العربية لا تعنى فقط أن تعرف نحوها وصرفها، بل لابد أن تتذوق

معانيها وبلاغتها ، تلك اللغة التى كرمها الله عز وجل فأنزل كتابه الحكيم بها.
وأقول أنه لا انفصام بين العربية والإسلام ولذلك فهؤلاء إذا لم يستطيعوا أن ينقذوا الإسلام مباشرة فهم يلفون ويدورون ليضربوا الإسلام بضرب اللغة العربية فأحياناً يهاجمون الفصحى وأحيانا يهاجمون الشعر العربى والعمودى وأحيانا يهاجمون النحو والصرف، وأحيانا وأحيانا ، وكل هذا القصد منه النيل من الإسلام من ناحية وتمزيق شمل الأمة العربية من ناحية أخرى، لأن الأمة العربية ليست اللهجات العامة الدارجة وإنما اللغة الفصحى ، وهم يدعون لإحياء هذه اللغات ويدعون لكتابتها مستهدفين تعميق الهوة والخلاف بين الشعوب العربية بعضها البعض .

إننا لو سرنا وراء هذه الأهداف ما استطاع مصرى أن يفهم مغربياً أو عراقياً، وبالعكس لننظر إلى أكثر من هذا.أحيانا يكون هناك بين المصرى فى الشمال والمصرى فى الجنوب من الفرق فى اللهجة ما يجعل أحدهما لا يفهم ما يقوله الآخر تماماً .

نحن لا ندعو إلى لغة التقعر والتشدق ، إنما ندعوا إلى لغة ميسرة ، القرآن لغة قال رب العزة فيه :(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) فما يسمع عامى القرآن إلا ويفهمه مع أنه ذروة الفصاحة والبلاغة ولكن مفهوم ومبين فنحن نريد الفصحى الميسرة المفهومة، وهذه اللغة هى التى وسعت العلوم المختلفة فى عصر الحضارة الإسلامية وازدهارها ، وكتبت بها كتب الطب والتشريح والرياضات والفيزياء .كل هذه العلوم كتبت بلغة عربية ، بل هى اللغة الوحيدة التى كانت لغة الإعلام لعدة قرون فى العالم وتلك الكتب التى كتبت باللغه العربية كالطب لابن سينا وغيرها نجدها صارت مراجع عالمية فى جامعات أوربا .

(٤) إن الجانب التربوى فى حياة المسلمين يحتاج إلى إعادة نظر ، فنحن نعلم أن التربيه والمعارف فى البلاد الإسلامية ظلت زمناً طويلا تحت سلطان الاستعمار وكان هو الذى يوجه وزارات المعارف ويضع مناهجها وبرامجها ويضع لها فلسفتها

ولهذا فالتربيه فى البلاد الإسلامية ما زالت تعانى من آثار الإستعمار وتعانى خاصه من آثار الإزدواج ، لأن هناك خصيصا مثلا للدين ومواد أخرى تدرس ما تنافى الدين ، هذا هو التناقض الذى نشعر به ، وحصة الدين للأسف كثيراً ما تكون حصة اختياريه غير إلزاميه .

لا بد أن يدرس الدين فى الطبيعه والكمياء والأدب والتاريخ فهو فى الطبيعه يحدث عنه قانون الطبيعه لأنها سنن الله فى الكائنات وبدلا من أن نقول الطبيعه زودت هذا المخلوق بكذا ، نقول : إن الله زوده بهذا ليؤدى مهمته ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وحينما يربط مدوس الطبيعه أو الكمياء وما إلى ذلك شرحه بالدين لحديثه يجد صدى فى طلابه أكبر أثراً مما يجده مدرس الدين ، لأن الكلمة حينما تأتى من غير المتخصص تكون أوقع وخاصة أنها ترتبط بقوانين وسنن وأشياء يلمس فيها الإنسان عظمة الله عز وجل .

فإذا أريد أن تخدم كل المواد التربية الإسلامية وليس الفصل فقط هو الذى لم الدين ليقوم بالتربية الإسلامية ، النشاط المدرسى يجب أن يوجه لخدمة الدين فيجب أن يكون هناك مسجد ، الإدارة المدرسيه نفسها يجب أن تهتم بمراعاة التقاليد الإسلامية والأخلاق الإسلامية والقيم الإسلامية وهكذا .

(٤) إن قصة النشوء والإرتقاء ، لا مانع من تدريسها ، ولكن أدرسها على أنها رأى من الآراء ، رأى لواحد فيه نشوء الحياة وارتقاؤها خالفه من العلماء ، علماء الأحياء ممن هم مثله وأفضل منه ، ممن عاصروه وجاءوا بعده ، حتى أن داروين نفسه جاء من تلاميذه من عدل من نظرية (الداروينه الحديثه) للإنسان باعتباره مخلوقاً منفرداً وليس كسائر الحيوانات فيجب أن يعطى كل شىء حجه وينبغى أن يكون هناك تكامل بين المقررات الدراسيه بعضها مع بعض بحيث لا يهدم بعضها بعضاً .

تلك هى المشكلة التى أقول أنها تحدث فى تفسير الطالب المسلم تناقضات فهو

لا يعرف أيهما على صواب فيما يقول : مدرس الدين أم الطبيعه أم التاريخ ، تناقض فظيع يحدث، نحن بحاجة كما قلت آنفا لتربية إسلامية صحيحه تعنى بإنشاء الإنسان المسلم المتكامل ، المربى عقله بالثقافه وروحه بالعباده وخلقه بالفضيلة وبدنه بالرياضة والذى يربى اجتماعياً على المشاركة والتعاون وعسكريا على التدريب والخشونة ، عندئذ سيتكون لدينا إنسان شاب قوى يخدم وطنه ودينه وليس شاباً لا يصلح لدين ولا لدنيا .

نحن فى حاجة إلى هذه التربية تنشىء رجالا نربيهم فى ظل الإيمان وتحت راية القرآن ، وفى ظلال السيرة النبوية وبطولات سلف هذه الأمة الصالحين الذين جمعوا بين اليقين والقوة ، وهم يعيشون فى الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويعيشون فى الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء ، يحيون مع الناس ولكن أفئدتهم مع الله عز وجل .

نحن نريد هذا الجيل المسلم القوى الذى لا يتأتى إلا بإيجاد نظرة تربوية جديدة ، مناهج جديدة ، كتب جديدة ، وروح جديدة ، أهم من هذا كله روح يهيمن على المدرسة ، على الأستاذ ، على المنهج ، على الإدارة ، على التفتيش والتخطيط ، روح يقتبس من القرآن الكريم ومن رسولنا ﷺ فمثلا فى كلية التجارة أو الاقتصاد يمكن أن أدرس لهم المذهبين :
لا يجوز أن أنقد الشيوعية وأترك الرأسمالية فيظن الشاب أنى متحيز للرأسمالية ، لا أنا لست شيوعياً ولا رأسماليا ،أنا حنيف مسلم .

فى كلية الآداب مثلا فى الفلسفة أنقد الفلسفات الوجوديه والماركسية وما إلى ذلك وأبين فلسفة الإسلام ، أو أكبر الفكر المادى التاريخى لا آتى إلى الصبى اللبيذ طرى العود ، وأحدثه عن مبادىء الشيوعية ، ولكن نأتى بطريقه غير مباشرة وفى لمسات معينه وبصوره عابرة يخطط لها التربويون وبهذا نكون قد وقيناهم أخطار الشيوعية .

الفصل الخامس عشر

الربا والاقتصاد الإسلامي

(الدكتور عيسى عبده)

عنيت بالبحث فى أمر الربا والقواعد التى تحكم النشاط الاقتصادى كما وردت فى الغرب وكما جاءت فى إطار عام وقواعد كلية فى القرآن الكريم منذ سنة ١٩٢٥ أى منذ أن بدأت أدرس التجارة وقد أفزعنى أن بعض المسلمين إلى الآن يظنون أن الفائدة شىء آخر غير الربا كما يظنون أن هناك ما يبرر حساب الفائدة ، وقد يكون من باب الغيرة على دين الله فحسب ، إننى أقرر بصراحة أن كثيرين ممن تعرضوا لهذا الأمر لم يدرسوه دراسة كافية وبخاصة من ناحية المال ومن ناحية سلوك الفرد حال تدبير معاشه .

إن الربا كما عرف فى الجاهلية وكما عرف فى القرون الوسطى ، كتب عنه المؤرخون ومنهم كولتون وهو من أحسن ما كتب فى التاريخ فى انجلترا، وانجلترا منذ أن عرفت الرأسمالية ظهرت فيها أنظمة الفوائد ودافعت عنها طويلا وهناك إجماع فى كتب التاريخ الاقتصادى ودوائر المعارف على أن الفائدة هى الربا ولذلك أعجب كثيراً إذا بقى من المسلمين من يناقش الصلة بين الفائدة والربا فهذه الصلة مقطوع بها حتى ممن ابتدعوا الفوائد أنفسهم فالصلة إذن قصة مسلم بها فلا يجوز أن تثار.

وأجد الآن أن لورد منيرو كينز أحد الاقتصاديين الإنجليز (توفى ١٩٤٦) وأعجب به حقا لأنه يبرر إلغاء الربا بأسباب فى غاية القوة ويقول أن العمالة الكاملة

هى الواجب الأول للدولة ولا تتحقق إلا إذا نزل سعر الفائدة إلى الصفر ، أو ما يقرب من ذلك فيربط بين العمالة الكاملة(وهى أن يجد كل راغب فى العمل قادر عليه فرصته) وبين نزول سعر الفائدة إلى الصفر ربطاً علمياً لا ينبغى أن نجهله. وأجد هذا فى سورة طه فى قوله تعالى: (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) . لأنى وجدت أن لفظة (فتشقى) فيها إفراد الخطاب لآدم بعد أن كان الخطاب بالتثنية فى كل المشهد العظيم الذى وصفته الآيات الكريمة فى سورة طه ، وقد دلنى هذا على أن المراد هو أن آدم هو الذى يشقى ويشقى فى سبيل أمر معين وهو تدبير المعاش بدليل قوله تعالى(إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ثم أستأنس بآراء المفسرين والفقهاء الذين تكلموا عن النفقة قالوا صراحة بأن نفقة المرأة تلزم الرجل ونفقة الأسرة كذلك والأبناء إلى أن يتكسبوا .

وقد أسعدنى ما قاله مثل(شارل رست)زميل (شارل جيد) وكلاهما يعتبر فى تاريخ المذاهب الإقتصادية حجة ، وخير من كتب فيها فى مقدمة الطبعة الإنجليزية خلافا لا يكاد يختلف عن الذى بدأت حصره فى صورة مسودات ، يقول (رست) بعد أن تخطى الثمانين ويفخر هو وجيد بأنهما أصحاب فكر وأصحاب مدرسة لا نظير لها فى العالم يقول: أريد أن أوصى الجيل الأصغر منا سناً، أن ينظروا فى القضية الآتية : لقد أصبحت الآن بعد هذه الجهود الطويلة فى بلبلة مستمرة فكلنا يسعى بسبب توزيع الثروة وتوزيع الدخل سواء ما كان فيها جزئياً مثل قضية الربا والفائدة أم ما كان مثل تفاوت الطبقات أم كانت المسألة مسألة تنازع بين العوامل النفسية .

وأشار رست إلى لعنة العمل التى أنذر بها ولد آدم أن الإنذار الذى وجه لآدم ولولد آدم ، والذى أقرؤه فى التفاسير وفى الأثر أن آدم عليه السلام بعد أن أخرج من الجنة شقى فى سبيل تدبير معاشه قبل أن يشقى ولده .

يقول رست : إن اللعنة التى كتبت على ولد آدم من حيث اضطرارهم إلى الشقاء، فى سبيل العيش هى منحة من الله وهى نعمة، لأن العمل هو أضمن وسيلة للمحافظة على الصحة وبناء الجسم بناء طيباً . وأهم من ذلك المحافظة على المعنويات وعلى القيم المعنوية فى المجتمع بحيث لا تتحلل .

ومعنى هذا أن العمل ليس لعنة وإنما هو نعمة . وإن الشقاء فى سبيل تدبير المعاش هو أمر مفروض على الآدمى، ومن ثم لا يكون الإسلام دين تبطل ولا بلادة .

(٢)

إن علماء الاقتصاد الاجتماعى يقولون : إن أول علة لدفع الربا فى القرون الوسطى ثم الفائدة إلى يومنا هذا هى الانتظار، ويعبرون عن هذا تعبيراً صريحاً لا حياء فيه، ويقولون المقرض بفعل الانتظار والانتظار ليس شقاء والآدمى كتب عليه أن يشقى أى أن يجتهد ويترتب على هذا أن إقبال الإنسان على تدبير معاشه ومعاش أسرته هو عبادة، وهو واجب، ومن حق الفرد على المجتمع أن يهىء له الفرصة لكى يعمل .

يقولون إننا ندفع الفائدة على رأس المال لسبب ندرته النسبية والقول بذلك جهل بالاقتصاد ومن حيث أن ندرة رأس المال هى مجرد وهم لا يصح فى الفهم إلا فى النظام الرأسمالى الذى يحتكر فيه الناس رءوس الأموال ويحرمون غيرهم نتيجة لسوء التوزيع ونتيجة لقعود الهمة فإن هذه الحال تعالج بالمزيد من الإنتاج وبتفضيل التوزيع .

إن الفائدة يقال لها ثمن استعمال رأس المال الحاضر، ورأس المال الحاضر ليس ملكا لصاحبه، فالفائدة كجزاء لرأس مال خبيث لا يمثل إلا الانتظار وثمن التبلد ثم إنها فريضة على المقترض، فالمقترض الذى يريد أن يقرن عمله

بعض مواد الطبيعة يلتزم برد الأصل ورد الثمرة سواء أربح أم لم يربح ، وليس فى هذا عدالة من حيث التوزيع ، والمقرض الذى يعطى وينتظر لكى يأخذ الفائدة لا يسهم فى الإنتاج ، وإنما ينتظر حتى تجيئه الثمرة ، وكل كسب ليس له أساس من الشقاء بمعنى شقاء البدن ، أراه ربا . إذ يجب أن يكون للكسب ما يبرره من التعب والإجهاد .

والربا حرم فى الإنجيل وكتب عنه بعض القساوسة ، كالأب توما الاكويثى حول سنة ١٢٧١ وحرموه حتى جاءت الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر وعدلت الجامعات والأوساط العلمية عن تحريم الربا ومالت إلى إباحته مع تخفيفه .

والأسباب التى عدلت لعلماء الغرب عن الأخذ بفكرة الدين عندهم فى تحريم الربا وجعلوا يبيحون الفائدة التى لا وجود لها إطلاقاً عندنا ، لا فى بلادنا ولا فى ديننا منذ أن جاء محمد عليه الصلاة والسلام وأفهم من تحريم الربا فى كتاب الله أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون للدولة الإسلامية القبضة على المال فى صورته الميسرة لأنه يعلم أنى إذا ادخرت مبلغاً وأعطيته لزيد فلن يعيد لى بعد سنة نفس المبلغ الذى أخذه ، فالصيرفة من سك النقود إلى الصيرفة ملكا للدولة وبغير مقابل ، فإن هذا ينشط الاقتصاد على نحو لم تعرفه أى صورة من صور الاقتصاد التى عرفت ، وهى وحدها التى تخلق العمالة الكاملة .

(٢) ليست المشكلة (الفائدة على رأس المال) ومحاددة الله جل شأنه وعصيانه بأكل الربا ، ليست المشكلة فى هذه السطحية وإن كانت جد خطيرة بل المشكلة أعمق وأخطر لأنها تتصل بموارد هذه الأمة الإسلامية كلها - عبر الحدود السياسية الطاغية ، التى قطعت أوصال الجسد الواحد - إنها مشكلة دفينة وذات شعب . إن المعاملات الربوية وإن كانت من الكبائر ليست إلا جانباً واحداً من المنهج الخارج عن الكتاب والسنة . إن الربا على فداحة وزره جر على المسلمين

ما هو أخطر على الدين والدنيا جميعاً ، إن التأويل إرضاء للحاكم أو نزعاً من أن يقال إن الإسلام قد توقف عن مسيرة الحضارة المادية ، هذا وهم أفزع فريقاً من الكتاب فذهبوا كل مذهب لتطويع أحكام الشريعة لعلها تتسع المعاملات المعاصرة ، فما كان منها خارجاً عن حكم الشرع فى جرأة صارخة ، ذلك أن الربا هو مصدر تمزق أرض الإسلام ونهب مواردها وسبباً لما هى فيه من ذلة وهوان حتى أصبح المال الذى هو مالنا غريباً عنا ، وهو فى أرضنا ، وحرباً علينا ، والأصل أن يكون عدة لنا، تقرأ للمحدثين من المثقفين ثقافة غربية خالصة فيخيل إليك أن قضية الفائدة قد استقرت وطويت سلطانها منذ زمن مضى ، ومن ثم يكون الكلام عنها عبثاً والحق غير ذلك ، الحق أن الأوساط المالية التى تذل لها أعناق الجامعات الأجنبية لا تزال تبحث عن أساس علمى أو أساس قانونى تقوم عليه الفائدة ، وتطالب الباحثين أن يتابعوا ، ومضى مائتا عام إلى يومنا هذا ، وليس منها نص واحد يقول بأن القوانين ترتكز على قاعدة إسلامية .

إن الفرنجة أعلنوا فشلهم فى إرساء الفوائد على قاعدة علمية أياً كانت ، فلماذا نحن المتخصصين الذين نحمل عن الأمة الإسلامية أمانة البحث نسكت عن الخوض فيها . علينا أن نخرج من هذا الإطار الفكرى المحكم الذى أخضع العقلية العلمية المعاصرة فى البلاد الإسلامية لكل ما هو خصم للإسلام ، حرب عليه حتى وصلت بنا الحال إلى اعتبار البعد عن العبادات وعن النظر فى التراث من علامات النضج العلمى .

إن الإصالة هى التى تدعونا إلى أن نعلن عن أن علماء الغرب كشفوا الحقيقة التى تقول : إن أمر الفوايد مجرد خطأ يجرون إليه الشباب المثقف وإن هذا الاقتناع من علمائنا المستغربين هو مجرد إقرار بسلامة النظام الربوى وأن هذا الإقرار خطأ .

إننا نعيب على التغربيين إجلالهم للمنهج الغربى لحد التقديس، وخاصة من

قال منهم أن الإسلام عاجز عن تقديم نظرية متكاملة للنشاط الإقتصادى .

إن ما يسمى الإقتصاد السياسى ، الذى يخضع له المسلمون ويدرسونه على أنه علم:هذا العلم لا يزيد على مر الأيام إلا غموضاً وبعداً عن الحقيقة الاقتصادية فما جاء جيل إلا ينتقص من جهود سابقه وما جاء حاكم إلا وله نظرية وفكر وسياسة ومن ثم كان الصراع بين درجات المجتمع الواحد وفيما بين القبائل والشعوب حتى إذا اختلف بعضها على بعض فإن هذا الاختلاف يجىء جزئياً وتؤدى إلى ظهور معارضين له فى الفكر والعمل ومن ثم كانت التكتلات والحروب الباردة والصدام المسلح كرة بعد أخرى،أما حصاد هذا الفكر المرهق المضطرب فهو زحام وركام ، وهو حصاد قليل الغناء ومع ذلك لا مفر لنا نحن المسلمين من النظر فى كل واحدة من هذا القبيل،لأن دار الإسلام لم تعد معزولة أو محصنة فى الثغور والحدود، بل أصبحت كغيرها أرضاً تهب عليها رياح الفكر ونزوات الهوى على موجات الأثير وفى الصحف والمجلات والكتب وغيرها من وسائل الإعلام ، فكان لزاماً أن ينظر المسلمون وأن يوازنوا بين الأصيل الذى عندهم وبين البديل الذىهو وافد بغير دعوة ولكنه وافد ثقيل مقيم ومن أجل دفعه ومطاردته يتعين علينا أن نعرف الشىء الكثير عنه وما صح عندنا أن الاقتصاد ليس علماً فى كلياته وتفصيلاته بل أقله علم وأكثره رأى وفكر إلى آخر ما هو معروف .

ويرجع الخطأ إلى تأثر المثقفين العرب والمسلمين بالنزعة العلمانية التى تفصل الدين عن الدنيا فى أوربا وهم ينقلون ذلك إلى محيط الأمة الإسلامية بزعم أن التقدم التكنولوجى وما صحبه من ثراء مادى فى الغرب الرأسمالى والشرق الإشتراكى إنما كان من ثمرات النزعة اللادينية التى بدأت بوجه خاص منذ عهد نابليون ومعلوم أن هذا خطل فى الرأى بالغ الجسامة ومما زاد فى خطورته أن طائفة ممن تقدم ذكرهم قد وصل إلى مركز السلطة وإلى الجامعات وساعدوا فى تعميق هذه النزعة ودعمها بأجهزة الإعلام ومناهج التعليم وبرامج التدريب .

الفصل السادس عشر

المذهبية الاسلامية تشكل نظام الاقتصاد الاسلامي

(الدكتور محمود ابو السعود)

الاقتصاد احد أوجه الحياة الجماعية التى يحياها الناس فى ظل فلسفة مثالية أو مذهبية معينه ، وهو ينصب على دراسة الانسان حين يعرف جهوده لزيادة رفاهيته المادية ، وليزيد من طاقته الانتاجيه اشباعا لحاجاته المادية عن طريق التبادل والمعاملات تحقيقاً لمذهبيته ومثله الأعلى وهدفه فى هذه الحياة ، من أجل هذا اختلف النظام الاقتصادى فى المذهبية الرأسمالية عنه فى المذهبية الشيوعية، واختلف نظاما هذين عن النظام الاقتصادى الإسلامى أو لكل وجهة هو موليها وقاعدة متميزة ، ينطلق منها ولكل غاية تتطلب أنماطاً معينة من النظم يتجه إلى تحقيقها وينصب اقتصاد أية دولة على دراسة المعاملات المادية للإنسان فى مجتمعه ليحقق هدف المثالية التى يعنيها ذلك المجتمع ، من أجل هذا يستحيل علينا أن نتبين معالم الاقتصاد فى الدولة الإسلاميه دون أن ندرك ادراكا كاملا (المذهبية الاسلامية: فلسفتها التى تنبنى عليها وأهدافها البعيدة والقريبة وقواعدها الأساسية التى ترمى عليها أحكامها) . فالاقتصاد الشيوعى والاشتراكى يقوم أساساً على فكرة فلسفية مضمونها أن كل حوافز الإنسان نابعة من حاجته لإشباع غرائزه المادية وأن أهم هذه الغرائز هى حفظ الذات بالقوت والأمن بالمأوى والنوع بالتكاثر أما أن تشمل الغرائز المعنوية كغريزة الانتماء والحب والتسامى وما إلى ذلك فهذا ما لا تعترف به الاشتراكية العلمية وما لا يدخل عندها فى حساب وإذ كانت الثروات محدودة ومطالب الناس المادية لا حد لها فلا معدى

إذن من التكالب على هذه الثروات ولا عن الاحتراب من أجل الحصول على أكبر قدر منها ، ولا عن عداوة طبقة غير مالكة لطبقة مالكة ثم تستطرد الشيوعية لتبني فوق هذه المقدمة الخاطئة نتائج خطيرة ، ولعل أبرزها أنه مادام الناس طبقات يتحاربون ، ومادامت السعادة والأمن والسلام تشوقهم فى الحياة فن الواجب إذن إلغاء مبرر العداوة والحرب ألا وهى المالكية الخاصه لعناصر الطبيعه ولرأس المال المنتج فى مختلف صوره إذ ما أن تصبح هذه المالكية مشاعة بين الجميع حتى تختفى الطبقات المتصارعه التى كان يستغل القوى منها ضعف الضعيف وحتى يعيش الناس فى مجتمع فاضل لا تمايز فيه بحكم المالكية والغنى بل لا يوجد فيه حاكم ولا محكوم .»

وهذا هو جوهر فلسفة الماركسية التى تفرعت بهم إلى كثير من صور الاشتراكية والتى شطت بهم إلى تيه الإلحاد وانكسار الأديان السماوية والتى اضطرهم تطبيقها إلى فرض نظام استبدادية فردية وجماعية وإلى ظلم إعامة الناس والتفريق الجائر بين (عضو الحزب) الذى يعلن الولاء لهذه المذاهب وإن أضمر غير ذلك وبين الفرد العادى الذى تفرض عليه هذه المذهبية ويساق إليها سوق الانعام دون طواعية أو اختيار بدعوى تحقيق رفاهيته المادية وتحريره من ربقة الاستعباد الذى يفرضه النظام الرأسمالى .

أما الإسلام فإن المذهبية الإسلامية تدعو إلى التوحيد والإيمان بوحدة الخالق ووحدة الحق فهذا الكون موجود ولابد له من موجد وهو كون متسق متصل ، مطرد الحركة فى انتظام واتزان ، تحكمه قوانين أزلية غاية فى الدقة والكمال ولا يتصور أن يكون ذلك ما لم تكن القوة الخالقة ذات ارادة ووعى وإدراك . والإنسان جزء من هذا الكون لا ينفصل عنه ، يتأثر به ويؤثر فيه ، ولكنه وهب الإرادة والوعى من لدن خالقه دون غيره

من الكائنات وبهذا أصبح أكرم ما فى الدنيا وأصبحت الدنيا مسخرة له .

والغاية من حياة الإنسان أن (يعبد) خالقه والعبادة عقيدة تقر فى القلب ويصدقها العمل، والعمل هو الجهد الذى يبذله الإنسان (لمنفعة) البشرية حسب القوانين الأزلية والشرعية الحنيفة .

والمنفعة هى الصفة التى إذا توافرت فى شىء جعلته صالحاً لإشباع رغبة مشروعة، ليست القضية فى المذهبية الإسلامية مجرد قضية عمل لتحقيق ربح مادى ولإشباع غرائز حسية ، لأن الإنسان بحكم خلقه مركب من مادة وروح ، والأصل أن يتسامى الإنسان بروحه ليتصل بنور خالقه ويستعين على هذا الإتصال حتى يستزيد من العلم بحقائق الوجود والمعرفة بالقوانين الأزلية التى تحكم علاقات الخلق وسائر المخلوقات، وكلما زاد علم الناس بهذه القوانين وكلما اتبعوا سنتها ، كلما ازداد رخاؤهم وسعدت نفوسهم .

القوانين الأزلية هى معيار الحق ، والفيصل بينه وبين الباطل ، وبين الخير والشر واتباع هذه القوانين (تسبيح) بحمد الله وعبادة له واستجلاب لمرضاته وسير على هديه ، واستشراف لرائع نوره ، والحجة الساطعة التى إن سلكها الخلق ولا حياة سعيدة لهم إلا باتباعها فإنهم بذلك ينطلقون فى الحياة الدنيا فى يسر يجنبهم الاحتراب والتباغض والتمايز المادى وينأى بهم عن خرافة الماركسية واستبداد الرأسمالية ويطهرهم من عبادة (المادة) و (المال) و (الأشخاص) .

والمذهبية الإسلامية بهذا المدلول تقرر أن الخلق جميعاً (تسبح) لخالقها والإنسان ضمن هذا الخلق، ومقتضى التسبيح أن تسير المخلوقات حسب القوانين الأزلية فلا تحارب بين الأفراد والطبقات والاستغلال لفئة فقيرة من قبل فئة غنية ، ولا ظلم لمحكوم من حاكمه ، ولا تعارض لمصلحة فئة أو فرد من الناس مع فئة أخرى وإنما يكون كل ذلك حين يتنكب الناس هذه القوانين وحين يحاولون عدم التقيد بمضمونها وحين يتجاهلونها ويصنعون بدلا منها قواعد

أخرى من صنع عقولهم القاصرة وخيالاتهم المريضة .

مقتضى (المذهبية الإسلامية) ألا تساق والسير المطرد نحو الغاية ، بحيث لا يصطدم الأفراد فى ركبهم وأنى لهم الاصطدام والكل يتبع القانون ويلتزم به ، ومقتضى الإسلامية أن الكون كله متآلف متساند وأن فكرة الأضداد نسبية بحتة إذ هى فى صميمها وصف لطرفين متباعدين وليست وصفاً لنقيضين ، كما يزعم (هيجل) الذى أوحى إلى ماركس بنظريته الخاطئة : الحرارة والبرودة طرفا طاقة حرارية تبدأ من أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه الإنسان من خفض لهذه الطاقة إلى أقصى ما يتوصل إليه من رفع لها حين تنعكس على غيره ، وليستا نقيضين .

والنور والظلام انعكاس للضوء فى أقل وأعظم صورة وليسا فى إطلاقهما نقيضين ، والحكمة والسفه وصفان لتصرف الإنسان من أدنى وأسمى حالات الالتزام بالقوانين الأزلية الصحيحة وليسا فى كنههما نقيضين ، والخير والشر والحياة والموت واليقظة والنوم ، وكل ما نعرف فى هذه الدنيا إنما هى خطوط ممتدة يسمى أولها باسم ويسمى نهايتها باسم آخر ، وكل منها فى الحالين جزء من ظاهرة واحدة ممتدة من طرف إلى طرف فى تدرج واستطراد دون تحارب أو تناقض .

وحين نفهم (الإسلامية) على حقيقتها يتبين لنا هذه الحقيقة الأزلية واضحة جلية ، إذ تقول هذه المذهبية بوحدة الخالق ووحدة الخلق ، والخالق لا يناقض نفسه إن توحد ، والمخلوقات لا تتوحد إذا تعارضت ، بل إن المتمعن فى طبيعة الكائنات يرى أن جوهر الأجسام لا يمكن أن تنفصم ذرات كهاربها المكونة لها ، وأن كل محاولة لكسر قانون وحدتها يؤدى إلى انفجار ذرى مدلوله انطلاق تلك التجارب لتتحد مع غيرها دون هوادة ولا إبطاء .

الإسلامية إذن تقرر وحدة الخلق ووحدة البشرية وتنكر مبدأ التناقض والتجارب وترسى فكرة الاتساق والاتزان النابعة عن اتباع قوانين الفطرة

الأزلية ، والوحدة والاتساق والاتزان تعنى الكثير ، إنها تعنى السلام والأمن ، والتعاون والتحارب ، والقسط والعدل ، إذ حينما تكون الوحدة فثم التضام بين الناس ، وهناك الوشائج مترابطة والنفوس آمنة ، وحينئذ فلا تعارض ولا ملاحاة ولا إضراب .

«(الإنسان قلب وروح لا مسمار ولا عجلة)»

وحينما تكون الوحدة يكون التعاون والتساند وهما موجبان للعمل المشترك فى سبيل الغاية ولئن كان تعاون وتساند فلا بد من عاطفة كريمة ومحبة إذ ليس الإنسان مسماراً أو عجلة ، فى آلة ، ولكنه قلب ينبض وروح تخفق ، فى جسد يتحرك ، إنه شعور لطيف قبل أن يكون رغبة حسية ، والحب والائتلاف بين الأرواح يدفع إلى عمل الخير لذاته ونداء إلى التعاون والاتحاد .

وقانون الوحدة الأزلى يفرض قيام ميزان القسط والعدل إذ تستلزم وحدة المجتمع أن ينال كل ذى حق حقه ، وأن يخضع الجميع لما يستتبعه هذا القانون الرئيسى من قوانين فرعية ، وليس للعدل مدلول غير ذلك .

وحين قررت المذهبية الإسلامية أن هذا الكون مرده إلى خالق واحد بارىء مصور مبدع متقن ، وأنه تعالى وحده مالك هذا الملك بما فيه من مادة وروح ، ارتضت استخلاف أشرف المخلوقات على ما فى السموات وما فى الأرض ووضع الأمانة بين يديه .

والإسلامية لا تنظر إلى الإنسان باعتباره (مالكا) أصيلا لأى شىء ، لا لذاته وجسده ، ولا لزرع أو ضرع ، ولا لأرض أو ماء أو هواء .

الإنسان فى الإسلامية « خليفة » الله سبحانه فى ملكه و « وكيل » مكلف برعاية خلقه ، مأمور باتباع أوامر خالقه ومالكه وسيده .

وهذا الشق من فلسفة المذهبية الإسلامية ، بالغ الأهمية والخطورة واجب التأكيد والاعتبار إذ على أساسه وفى إطار التوحيد والوحدة ، يعبد المسلم ربه ، ويحدد نطاق عمله ومعاملاته ، ويرسم معالم علاقاته بإخوانه فى مجتمعه ، وبأسرته

ومن يعول ، ويحكامه ورعيته ، بل تحدد كل مجموعة بشرية علاقاتها بغيرها من المجتمعات .

جاء « الاستخلاف » نتيجة طبيعية لنعمة الله على الإنسان ولما وهبه من إرادة وإدراك وحس وشعور . إذ لا بد لهذه الهبات من موضوعية تنعكس عليها لتظهر بها ، وإذ كان الإنسان نفسه مخلوقاً لا يملك خلق نفسه ، وإذ كانت الكائنات كلها من خلق الله وليس من خلقه ، اقتضت حكمة الخالق أن يستعمل الإنسان إرادته وحسه فيما سخر له من كائنات وجرى قانونه الأزلى على أن يتصرف الإنسان فى هذا الخلق كله حسب القوانين الأزلية التى كشف الله للناس عن بعضها والتى فطرهم على استقصاء ما لم يكشف لهم عنها .

المالكية إذن فى كل صورها وفى كل ما اشتملت عليه راجعة إلى الله وحده وليست حقاً ولا صفة يختص بها الإنسان . من أجل هذا كان التعبير الصحيح لما يكتسبه المسلم بماله الحلال من طيبات هو (الحيازة) وليست (المالكية) وإن جرى العرف تجاوزاً على إطلاق لفظ المالكية والتملك .

إن مقتضى الاستخلاف أن يتصرف الإنسان فى نفسه وفى غيره وفى كل ما تحته أى تصرف إلا بحقه . وواضح أن هذا الحق المقيد للتصرف مرده إلى صاحب النفس وما كسبت يمينه إلى من عهد إلى الإنسان أن يكون خليفة له جل شأنه فى خلقه .

مثلنا الأعلى أو مذهبيتنا الإسلامية تقتضى منا أن نرسى اقتصاداً ينظم نشاطنا المادى لزيادة رفاهية البشرية بحيث تكون هذه الرفاهية وسيلة أبداً ودوماً لغاية قصوى هى عبادة الله ، وهى المحاولة الذاتية للاتصال بنوره والسعى المثمر الذى لا يفتر للانخراط فى هذه الوحدة الأزلية عن طريق اتباع قوانين الخليفة . وبهذا وجب أن يسير الناس فى درب الاستكمال البشرى ويستمتعون بالسعادة التى هى مرادف للحق والعدل والجمال .

الفصل السابع عشر

المشروعية الإسلامية العليا

الدكتور مصطفى كمال وصفي

نشأت الحاجة العارمة الشديدة إلى تحديد الأصول المنضبطة لوصف النظام الإسلامى ـ مقارنة بنظم العصر وموصوفه بعباراته ومعاييره ـ منذ سنوات قليلة للأسباب الآتية :

أولا : ظهور الصراع الفكرى فى المنطقة التى يعمرها المسلمون وهى الشرق الأوسط ، فمن قبل كانت السيادة الإسلامية مستتبة فى العالم كله بلا منازع ، ولم يكن بالسلف الصالح حاجة إلى مثل هذا البحث ، فلم تكن هناك حاجة إلى تعريف نظام الإسلام وبيان أوصافه ، وظلت الوحدة الإسلامية ناشرة لواءها على المسلمين ـ حتى بعد أن ضعفت ـ هذه السيادة حتى أواخر القرن الميلادى الماضى .

ولكن بظهور الأفكار الوضعية (العلمانية) فى العالم الإسلامى وظهور النزعات القومية فى الدول الإسلامية وظهور التعصب للجنس إلى جانب جامعة الإسلام وبدأت الأفكار الإسلامية تتبلبل بين هذه الاتجاهات المختلفة ، وخاصة لما اعتنقت بعض حكومات الدول الإسلامية النزعة الليبرالية الرأسمالية ، واعتنق بعضها الآخر النزعة الاشتراكية ، ونادى كل فريق بأن الإسلام أقرب إليه عند ذلك وضحت ضرورة المقارنة والمفارقة والفصل بين الإسلام وما سواه .

ثانياً : إنه ترتب على تعدد الاتجاهات فى البلاد الإسلامية أن ظهر تمزق خطير

فى الكيان الإسلامى وخلل جسيم فى الوحدة الإسلامية العامة ، وهذا التمزق أدى إلى آثار خطيرة فى التكامل الإسلامى .

•(إرادة السلطة فى الإسلام مقيدة بالمشروعية وليست مطلقة)•

إذ أنه من المقرر أن التكامل الاقتصادى أو التاريخى أو غيره لا يكفى وحده لإحداث التكامل الحقيق ، بل لا بد من تكامل سياسى ووحدة حقيقية فى النظرية والرأى حتى يتأتى التكامل المنشود والمثل الواضح لذلك فشل السوق العربية المشتركة مقارناً بالنجاح الساحق للسوق الأوربية المشتركة فإن الأولى لم تعن بالتقارب النظرى والفكرى ففشلت ، والثانية عمدت إلى انشاء حكومة موحدة وبرلمان موحد ومحكمة موحدة فأوشكت الآن أن تنشىء فيما بينها حكومة فيدرالية وأن تنتقل من التقارب الدولى والاقتصادى إلى الاندماج الدستورى الحقيقى . لذلك فقد ظهرت الآن اتجاهات إسلامية واضحة ، وخاصة بظهور رابطة علماء المسلمين عامة والمؤتمر الإسلامى بجدة ، وإنشاء مؤسسات إسلامية حقيقية كصندوق التضامن الإسلامى والبنوك الإسلامية ونحو ذلك .

إن سائر الشعارات التى اتخذها المسلمون فى هذه المنطقة لم تؤت ثمارها ، فإن دعوى القومية ، والتفرقة بين الأمة بإحياء ذكرى الماضى البعيد المنقرض « من فرعونية وكلدانية وحيثية ونحو ذلك » باءت بالفشل الذريع واختفت عقب ظهورها مباشرة ، كما أن الوحدة العربية — أيضاً — لم تؤت ثمارها إذ نشأ النزاع الحاد بين بعض هذه الأمم بسبب اختلافات المذاهب والعقائد . وبذلك برزت أهمية الاتجاه إلى الأصل الإسلامى والتعرف على حقيقته وماهيته لأنه لا حاضر لأمة لا تقوم على ماضيها الحقيقى .

وأصبح من المقرر الآن أن تجرى المقارنة فى كل بحث جديد لتقييم النظم فى هذه المنطقة ، بين النظام الإسلامى والنظم العصرية المطبقة وأصبح أساتذة الجامعات يقتضون ذلك كجزء أساسى فى الرسالات التى يشرفون عليها بحيث

يعتبر عدم التعرض لها نقصاً خطيراً ، بل أصبح اهتمام الدول غير الإسلامية بالإسلام ونظمه واضحاً وتأسست فى الجامعات الأوربية أقساماً ومجلات متخصصة فى الدراسات الإسلامية ، وجرى الاعتراف بها مصدراً رسمياً من مصادر التشريع ولها مقعد فى محكمة العدل الدولية ، وصدرت بحوث مشتركة بين علماء الغرب والإسلام فى موضوعات حيوية كثيرة ، وعقدت مؤتمرات عديدة لهذا الغرض كان آخرها مؤتمر الحوار حول حقوق الإنسان فى الإسلام الذى عقد فى جدة عام ٩٧٤ .

فإذا لم يكن الإسلام ليبراليًا أو اشتراكيًا فما هى حقيقة وصف النظام الإسلامى وما هى خصائصه الذاتية وأصوله الخاصة ؟

ونقرر أولا : إن النظام الإسلامى من نوع النظم المذهبية أو العقيدية وإنه بذلك يتشكل فيه المجتمع ، فالنظام الإسلامى إيمان موحد هو عقيدة التوحيد قولا وعملا — بالوسائل والأوضاع الإسلامية — وهذه الوحدة الإيمانية تؤدى إلى قيام قاعدة شعبية متضامنة هى الأمة ، ويقوم بينهما — بطبيعة الحال — توازن دستورى كما هو الشأن فى جميع النظم الدستورية .

وبذلك نقرر أن عناصر النظام الدستورى ثلاثة :

(١) العقيدة والإيمان والأمة (٢) التوازن الدستورى بين العقيدة والأمة.
النظام الإسلامى بصفة عامة ، وكنظام دستورى ثلاثة عناصر هى :

الإيمان والأمة والتوازن :

العنصر الأول : الإيمان ، وهذا العنصر هو أساس النظام الإسلامى . وقد ظهر ذلك جلياً فى قولنا (إن حفظ الدين هو أول الضرورات فى المصالح والمقاصد الشرعية) فإن الدين هو منبع الأحكام فى النظام الإسلامى لكونه أول مصادر هذا النظام هما الكتاب والسنة المحمدية ، وجلب المصالح ودرء

المفاسد والمعايير الشرعية ، وهذا الايمان هو عقيدة التوحيد كما جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم .

ولذلك فالمذهبية الاسلامية تتمثل فيما جاء من أحكام الله تعالى بكتابه وسنة رسوله والمصالح الشرعية المعتبرة ، والايمان بهذا الوصف كعنصر دستورى له أربع وظائف اجتماعية :

الوظيفة الأولى : إنه ينشىء مشروعية عليا تخضع لها الأمة الإسلامية ، فإن الإيمان بالوصف المتقدم يصير معيار العدل والحق والصحة (ضد البطلان) والجوار والإباحة والآداب والعادات فما طابق ما أمر الله به كانت له السيادة والريادة بين المسلمين ونتيجة لذلك فإن الوسائل والأوضاع فى المجتمع الاسلامى تستمد من الشريعة الاسلامية بدون منازعة .

والمشروعية الاسلامية يتميز بها مشروعية عليا شاملة فوق جميع النصوص الوقتية والوسائل والأوضاع ، وأنها تؤدى إلى إقرار العدل والسلام وتصفية الظلم والصراعات على طول قاعدة العلاقات الانسانية .

الوظيفة الثانية : إنه يؤدى إلى إنشاء تضامن فى الأمة فإن وحدة الايمان بين المسلمين تؤدى إلى وحدة الفكر ، ووحدة الفكر تؤدى إلى وحدة الوسائل والأوضاع فى ظل الأحكام الشرعية أو فى ظل العادات والآداب .

الوظيفة الثالثة : إنه ينشىء ضميراً ذاتياً لدى كل مؤمن إذ تصير أحكام الله مقياس الحظر والاباحة لدى كل منهم ويتوحد هنا الضمير الذاتى فى أذهان جميع المسلمين ، بحيث ينشىء الايمان ضميراً اجتماعياً عاماً يسود الجماعة الاسلامية كلها .

الوظيفة الرابعة : وهى أن قوة الايمان تؤدى إلى قوة الدافع للعمل الايمانى فمن كان إيمانه قوياً كان سعيه قوياً ودافعه إلى العمل بما يعتقده شديداً .

(٢) العنصر الثانى للنظام الدستورى : الأمة

والأمة الاسلامية جماعة متماسكة متضامنة تضامناً حقيقياً بسبب ما قررنا من انعكاس وحدة الايمان على قاعدة الأمة بالتضامن والتماسك ، ويزيد ذلك بسبب ما يعرف باسم (فروض الكفاية) و (الإثم العام) الناشىء عن عدم القيام بهذا النوع من الفروض ، ففرض الكفاية هو واجب عام على كل قادر ، إن لم يقم به أحد أثمت به الأمة كلها ، وهذا الواجب العام يقابله حقوق عامة لله تعالى وللناس . ومن أمثلة هذه الفروض : الجهاد كل سنة فيما لم يدهم العدو بلاد المسلمين فإن هذا الفرض يؤدى إلى تحقيق الهيبة الاسلامية والعزة اللازمة التى تحقق للمسلمين حرية اختيار نظامهم الاسلامى أى على أساس عقيدتهم .

ومنه : إقامة موسم الحج كل سنة لأنه من أهم الوسائل العملية لتحقيق الكيان الدولى الاسلامى وتجسيده وتدعيمه ، ومنه إقامة علوم الشريعة : أى جعلها صالحة للفتوى والقضاء والتطبيق ، ومنه إقامة القضاء والفتوى والامامة ومعاهد العلم وسائر الوسائل اللازمة لإقامة علوم الشريعة ومنه حماية مصالح المسلمين ودفع الضرر عنهم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحرف المهمة ، وهى لازمة لانتظام الحياة الادارية والمصالح الخاصة . ومنه الانفاق العام كلما دعت الظروف لهذا الانفاق .

وهذا التضامن إيجابى يضع على عاتق كل مسلم فرض القيام بالمصالح الاسلامية العامة وتجنيد امكانياته وتحويلها الى تكاليف ووظائف اجتماعية للصالح العام وليس للتمتع الشخصى الخاص .

والأمة الاسلامية تتكون من عنصرين متميزين :

الأول : وهى الجماعة وهم أهل العلم (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وهم أهل الاختيار وأهل الحل والعقد فى جماعة المسلمين ويتميز كبارهم بذواتهم

فى كل عصر وتتميز عامتهم بين كل مسجد بثقتهم فيهم .

وأهم الوظائف الدستورية لهذا العنصر هى : البيعة والشورى والدعوة والتوصية .

ومن هذه الطائفة تختار أولى الأمر ، فالسلطة والشعب فى الإسلام وعاء واحد لتكاملهما وتوازيهما فى عرض واحد هو اعلاء الإيمان وخدمته ، وهذا يجعل الإسلام نظاماً شعبياً فى المقام الأول . فإن الإمام تفوضه الأمة فى الإمامة بالبيعة ، وهو يفوض من يقلدهم طبقا للأحكام الشرعية .

والسلطة فى الإسلام قوامها إمام وأهل شورى ، وللإمام أن يشكل أهل شوراه فى صورة وزراء وأمراء أو نحو ذلك - فإن الأشكال الرسمية والإدارية هى من المصالح المرسلة التى تتخذ قوالبها حسب الملاءمات فى حدود الإطار الإسلامى الحاكم وهى مقيدة فى الإسلام أشد التقييد ، وذلك بسبب أن النظام هو الذى ينشىء السلطة عندنا ، وليست السلطة هى التى تنشىء النظام كما فى النظم الوضعية ، وبسبب أن الشريعة خطاب عام للحاكم والمحكوم على وجه السواء ، وبسبب أن للفرد نوعا من الولاية العامة فى الإسلام فهو يشارك فى السلطة فى اختصاصات الوظيفة العامة .

والثانى : عامة المسلمين ، وبابهم مفتوح إلى أن يكونوا من الجماعة فإن الإستزادة من العلم فرض ، وأهم وظائفهم الدستورية : النصح والنصرة والقيام بفروض العين والكفاية وإقامة الإسلام — بقوائمه الاربعة - فيما بينهم ،وهذه القوائم هى التى حددها البخارى فى أول كتاب الإيمان بقوله : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً .

العنصر الثالث للنظام الدستورى الإسلامى : التوازن

وهذا التوازن يرى رأسيا بين عنصرى الإيمان والأمة ، فهو يختص بأنه

التزام الأمة للإيمان أو العقيدة العامة .

وبذلك فهو يشبه « الوحدة الوطنية » فى النظم العصرية لأنها جامعة التضامن والتماسك فى القاعدة الشعبية ، بخلاف التوازن فى النظام الليبرالى فهو يجرى بموازنة الشعب والسلطة بطريقة مادية معينة (الوسيلة البرلمانية) .

ويتحقق التوازن الدستورى فى الإسلام طالما ظلت الأمة متمسكة بالإيمان والعقيدة ، فإنه بذلك تتحقق وحدة الفكر والتضامن وتظل الأمة قادرة على متابعة هدفها وهى إعلاء الإيمان والنجاح فيها .

أما إذا انفكت الأمة الإسلامية عن إيمانها بأن ضعف نوره وبهتت صورته فى قلوب أهله أو تعددت المذاهب الإيمانية وتشقق التضامن تبعا لذلك ، فإن التوازن يختل ، ولا بد من العمل على إعادته طبقاً للوسائل الإسلامية المقررة .

وهذه الوسائل ثلاثة أنواع :

وسائل إيمانية : تعتمد على تعميق الإيمان فى القلوب وترسيخه فيها .

وسائل مادية : منها الوزع بالسلطان وإنشاء المؤسسات الدستورية والإدارية اللازمة لإقامة الحياة الإسلامية وتطبيق المعايير الظاهرية والمادية على المعاملات والحكام .

فصل النظام الإسلامى عن غيره

ويمكن تلخيص الصيغة الضابطة لوصف النظام الإسلامى وتمييزه بأن النظام الإسلامى ، هو نظام إيمانى ، حر بلا فردية ونظامى بلا جماعية ، هذه الصيغة تفصل بينه وبين النظم المعاصرة :

— فكونه نظاماً حراً بلا فردية : يجعله مختلف عن النظام الليبرالى الرأسمالى الذى تسوده المصلحة الشخصية ، فالحقوق فيه مطلقة ما لم يقيدها القانون ،

والحق فيه يعرف بأنه (مصلحة شخصية يحميها القانون) والدعوى فيه محددة بالمصلحة الشخصية ، لحيث لا مصلحة بلا دعوى ، والنظام الإقتصادى تقوم فيه تكاليف ووظائف عامة وهى متوجهة للمصالح والمقاصد الشرعية بصفة أساسية .

(٢) وكونه نظاماً بلا جماعية ، يجعله مختلفا عن النظم اليسارية، فإن الإسلام يعتمد على الكيان الفرد فى تحقيق المصالح الإجتماعية والعامة ، وتقوم الدولة أصلا بدور إجبار الأفراد على ذلك ، أما النظم الجماعية الحديثة فتحقق أهدافها بأداة جماعية هى الدولة والملكيات التعاونية ولا تعتمد على الكيان الفردى فى ذلك .

هذا فضلا عن أن المذهبية الإسلامية ـ المستمدة من أحكام الله تعالى مختلفة تمام الاختلاف عن المذهبية الليبرالية التى تقوم أصلا على الحرية والمساواة وعن الإشتراكية التى يقوم على منع الاستغلال وصراع الطبقات وقد يلتقى الاسلام عرضاً بنواح مفيدة من هذه المذهبيات ولكنه فى صلبه وأساسه مستقل عنها قائم بذاته

ولما كان لكل نظام وسائله الخاصة به فإنه لا يجوز ـ فى الاصل ـ استعارة الوسائل الليبرالية أو اليسارية ليتفقد النظام الإسلامى وإنما يكون ذلك فى حدود ماتتقبله الاصول الإسلامية :

ومن ذلك (١) ان نظام الانتخاب العام ليس على تمام الموافقة للنظام الاساسى لأن النظام الاسلامى هو نظام عقيدى

(٢) انه يجب أن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى فى هذا النظام ولا يجوز تعدد المصادر الاساسية المذهبية السابق ذكرها ، وانما يجوز فقط الاستئناس بالمصادر الأخرى فى ظل الاحكام الإسلامية

(٣) إن الحقوق العامة فى الاسلام لا تتقيد بحكم الأغلبية المخالفة للشريعة لأن القيام بهذه الحقوق فرض كفاية على المسلم القادر خاصة لايبرئه منها الانحراف العام ، وقد زودت الشريعة المسلمين بوسائل خاصة لتمثيل المصالح العامة : اهمها دعوى الحسبة وهى دعوى ترفع للمصلحة العامة ويمثل المسلم بها المجتمع كله .

(٤) إن إرادة السلطة فى الاسلام مقيدة بالمشروعية العليا فى امورها التشريعية بعكس النظم العصرية فإرادة المشرع الوضعى مطلقة لاحدود لها وتحدد الدولة الوضعية سلطتها وتشريعاتها ودستورها تحديداً ذاتياً كيف تشاء ، أما فى الاسلام فالنظام سابق على الدولة وهى ملتزمة حتما فى كل أمورها .

(٥) إن الشريعة الاسلامية تميل إلى الموضوعية فى كل أمورها ، بعكس النظم الحديثة فإنها تميل إلى المعايير الشكلية فى نظمها فالمهم فى الشريعة هو التحقيق الفعلى للأحكام الاسلامية وجلب المصالح الشرعية ودرء المفاسد ، أما النظم الوضعية فهى أميل لاحترام الشكل ، والنظام الاسلامى يجعل النظر إلى الموضوع أولى من التقيد بالشكل .

الفصل الثامن عشر

مشكلة الحضارة

(مالك بن نبي)

أعتقد أن المشكلة التى استقطبت تفكيرى واهتمامى منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هى مشكلة الحضارة وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها وإزالة التناقض بين النجاح المادى والتخلف المعنوى ، أعنى تخلف القيم أو إهمالها ، ولقد شعرت منذ فترة طويلة وعلى وجه التحديد منذ وصولى إلى أوربا لتلقى العلم عام ١٩٣٠ .

إن المجتمعات المعاصرة تواجه مشكلات بالغة التعقيد ومتعددة الأنواع وإذا كان من المفروض على رجل السياسة أن يتناول هذه المشكلات فى تنوعها وتعددها ويجتهد فى إيجاد الحلول الملائمة لها وإذا كان من حق رجل الفكر أيضاً أن يطرق هذا الطريق فى بلاد متفرقة فأولى برجل السياسة والفكر فى البلاد المتأخرة أن يوجد اهتماما متزايداً لدراسة هذه المشكلات فى مجتمعه وأن يجتهد فى أى الحلول الملائمة لها ، ولكن شريطة أن يتناول هذه المشكلات من جذورها ، لأن الحلول الجزئية التى قد تكون مجدية فى مجتمع متقدم بسبب توافر مقومات التقدم فيه لا تكون مجدية فى المجتمعات النامية الأخرى التى لا تتوافر لديها هذه المقومات ومن الأخطاء والأخطار التى واجهت بعض الدول الإسلامية أنها تناولت مشكلاتها ووضعت لها حلولها وفقاً للأنماط والنماذج التى واجهت بها الدول المتقدمة مشكلاتها ، وإذا كان هذا الأمر له خطورته من الناحية السياسية أعنى من الناحية التطبيقية ، فإن خطورته أشد من الناحية النظرية لا سيما وأن الناحية النظرية هى التى توحى بالحلول التى تطبق وتكون النتيجة أن تبقى حياتنا

السياسية أسيرة مجهودات فكرية غير ملائمة لواقعنا لأنها اخلت بمبدأ اساسى من مبادىء فلسفة التاريخ

وإذا كان المجتمع فى حالة الطفل الناشىء فيجب أولا أن نفكر فى كيفية وضعه فى شروط اكتمال القوة وان كنا فى حالة الشيخ الهرم فيجب أن نفكر فى كيفية استعادته لقواه، فاذا ارجعنا هذه الاستعارات إلى مصطلح علم الاجتماع نقول بلا تردد: ان المجتمع الاسلامى اليوم يتكون من عناصر بشرية مازالت تمثل ما نسميه (بالانسانية العذراء) أعنى الانسانية التى لم تدخل بعد فى دورة حضارة والتى ولهذا السبب تحتفظ بكل رصيدها التاريخى، الأمر الذى يملؤنا بالتفاؤل نحوها، كما يتكون المجتمع الاسلامى أيضاً من عناصر بشرية قامت بدور حضارى كبير وأثارت الإنسانية طيلة قرون ازدهارها وأتى على هذه المجتمعات ما يأتى على كل المجتمعات وكل الحضارات فاستولى عليها الهرم وربما تجد نفسها فى هذه الحالة عاجزة عن القيام بالمهمات التى يضطلع بها غيرها من الشعوب المتحضرة لأنها هرمت .

المشكل الرئيسى اذن بل ام للمشكلات التى يواجهها العالم الاسلامى هى مشكلة الحضارة من طرفين ، كيف تدخل الشعوب الاسلامية العذراء فى دورة حضارية جديدة وكيف تعود الشعوب الإسلامية التى خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة ، إذا سلمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكر فى مصير العالم الاسلامى وكيف يمكن له الدخول فى دورة حضارية جديدة. هذه القضية باختصار هى التى وجهت لها كل الجهود المتواضعة منذ ثلاثين سنة، لسنا فى حاجة إلى حديث طويل لكى نؤكد ان الفكر الاسلامى قد وضع حلولا لمشكلات العالم الاسلامى وما يعانيه انسان العصر الحديث من قضايا ومواقف . ان القرآن الكريم قد وضع حلولا لهذه القضايا والمواقف ويجب أن نعمل على ضوء هذه الحقيقة فمن ناحية المشكلات الاجتماعية التى تواجه الانسان، لقد تكفل القرآن بوضع تشريع المعاملات

الاجتماعية كالزواج والمعاشرة والطلاق . . كما وضع تشريعاً للمشاكل الدنيوية كالبيع والشراء والتجارة من ناحية أخرى فان القرآن الكريم يضع فى أعماق عقيدتنا الاستعدادات التى تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعـــددة وتحفزنا على الإبداع والابتكار .

(٢) كيف يمكن أن تعود الشعوب الإسلامية لأداء دورها الحضارى ؟ ان الأمر الذى لاشك فيه ان الأمة الإسلامية فى القرن الأخير حاولت ولا تزال ان تعود إلى حلبة التاريخ بطريقة ضمنية ولكنا نرى محاولاتها لم تثمر النتائج المرجوة فى الوقت الملائم خاصة اذا ما قارناها بوضع المجتمعات الأخرى مثل اليابان أو الصين الشعبية والنتائج التى حققتها هذه الدول التى كانت منطلقة من نفس الأوضاع المتخلفة ومع ذلك حققت نهضتها وحضارتها فى فترة وجيزة ولذلك فإننا يجب ان نعيد النظر فى الطريق الذى نسير فيه وبعبارة أخرى وبمنهج سيرنا وفقاً لمقتضيات التاريخ ومن هنا تصبح القضية فنية وتتطلب دراسة قائمة على قواعد يستخلصها العقل من قوانين التاريخ

(٣) حصيلة دراستى فى هذه الناحية تتحدد فى مجموعة من النقاط أبرزهـا أن الحضارة لا تصنع بمقومات حضارية مستوردة بل هى التى تصنع وحدها المنتوجات الحضارية، وهذا يؤدى بنا إلى تساؤل تقليدى عن شروط الحضارة فى جوهرها العام والجواب بدون استطراد طويل: ان شروط الحضارة تتكون من ثلاثة عناصر (الإنسان ، التراب ، الوقت) وإذا دققنا النظر فى هذه العناصر نستطيع أن نستخلص المعنى المطلوب قد يقول قائل -وبيده الحق- إذا كانت هذه فقط شروط الحضارة فلماذا لا توجد حضارة فى مجتمع توافرت فيه هذه الشروط وهى غالباً ما تتوافر فى مجتمعات العالم الثالث الذى يضم أكبر كتلة بشرية وأخصب مساحات من التراب ولديه من الوقت ما لغيره من الدول صاحبة الحضارة ومع ذلك فلا توجد حضارة كالموجودة فى الدول الأولى .

وفى رأيى أن السبب فى ذلك أن هذه العوامل تتطلب إلى جانبها عاملا آخر لا غنى عنه هو العامل النفسانى . هذا العامل الذى يصطلح البعض على تسميته بكلمة (العقيدة) والبعض الآخر يسميه (إيديولوجية) فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحاً كاملا : إن الشروط اللازمة لتكوين الحضارة موجودة بين أيدينا بمعنى أن عندنا أكرم وأفضل العناصر الموجودة فى العالم ، وعندنا أخصب المساحات الترابية وعندنا الساعات الزمنية الكافية للإبداع والابتكار ويبقى علينا أن نفكر ما الذى ينقص هذه الأمور كلها ، والذى ينقصها هو ما اصطلح البعض على تسميته بالعقيدة وسماه البعض (إيديولوجية) الذى ينقصنا هو العمل بموجب العقيدة الإسلامية : الإسلام وحده هو الذى يمكن أن يعيد المسلمين إلى عالم الحضارة الخلاقة والمبدعة أو يدخلهم فى حلبتها ، ولكن شريطة أن يعتبروا أن هذه العقيدة رسالة هامة وضرورية ولا غنى عنها ، ولكن العقيدة لا يمكن أن تحرك الطاقات إلا بقدر تسخيرها — أى العقيدة — لحاجات أبعد وأسمى من الحاجات اليومية ، إننا نعيش الآن من أجل تلبية حاجاتنا اليومية من مأكل ومأوى وملبس فحسب ، ولهذا لا نرى لعقيدتنا الإسلامية هيمنة على طاقاتنا الاجتماعية ولهذا فهذه الطاقات معطلة تماماً لأننا جعلنا من الإسلام وسيلة للحياة الأخروية بينما كانت فى عهد الرسول ﷺ النجاة فى الحياة الأخروية وأيضاً وسيلة المجد والعزة والحضارة فى الحياة اليومية .

(٢)

فى كل فرصة أعطيت لى ركزت على أن الوسيلة الوحيدة أمامنا للتخلص من قيود التخلف هو أن نضع فى نطاق حياتنا العربية الإسلامية ، أسس حضارة جديدة ، وهنا نلمس ما سميته (الضرورة) والضرورة نعنى بذل كل ما نستطيع من جهود فى سبيل تحقيق شروط الحضارة الجديدة ، وبذلك نكون قد حققنا فى المجال النفسى الذى يهمنا الشروط الأولية لإرساء شعور بالرسالة فى كل ضمير

عربى مسلم ، ثم إذا لاحظنا أن لكل حضارة وظيفة اجتماعية من ناحية وإشعاعاً ثقافياً من ناحية أخرى أمكننا أن نتصور من خلال إشعاع حضارتنا المتجددة بفضل اجتهادنا إننا نستطيع تخليص المجتمع الغربى نفسه مما يعانى من محن نفسية تؤدى به إلى أنواع من الفرار من الحياة إما بالغوص فى حياة الهيبى ، وإما بالانغماس فى متاهات الوجودية ، وإما بالتخلص من الحياة عن طريق المخدرات أو أحياناً عن طريق الانتحار .

وليس من نافلة القول إذا لفتنا النظر إلى أن بلداً مثل السويد - وهو يعد فى مقدمة الشعوب المتحضرة التى حققت لأفرادها كل شروط اليسر - تيسرت لها الحياة من كل جوانبها يحتل مع ذلك فى الإحصائيات السنوية مكان الصدارة فى إحصائية الانتحار .

إذن عندما نتحدث عن رسالة إنقاذ يجب أن نعتبر أننا سننقذ أنفسنا من التخلف أو ما نسميه (النقصان الحضارى)

ومن ناحية أخرى لا نستغرب إذا قلنا ربما سننقذ أيضاً الإنسان المتحضر نفسه من إفراط حضارى أو طغيان حضارى ، خصوصاً وإننا فى هذه الحقبة الزمنية على عتبة الثلث الأخير من القرن العشرين ، أعنى كأننا على ضفة نهر قريب من مصبه بعد أن تجمعت فيه كل روافده .

إن هذا الثلث الأخير من القرن العشرين له خطورة التاريخ كلما تجمعت لتصب فى الحضارات الأخرى ، إما لأنها القرن الحادى والعشرين بكل نتائج التاريخ ، بل وحصيلة الحضارة البشرية بخيرها وشرها فإذا قدرنا مسئولية العربى المسلم ونحن على هذه العتبة نرى أنها مسئولية كبرى سواء بالنسبة إليه فى إنقاذ نفسه من الفناء أو بالنسبة إلى إنقاذ إخوانه الآدميين المعرضين لطغيان حضارتهم إلى نوع آخر من الفناء والزوال .

إننا ما دمنا نعيش على هذه (الشحاذة الفكرية) لا يمكن أن نعود لجذور ثقافتنا ، كما لا يمكن أن نصل إلى جذور ثقافة الآخرين ، فنبقى من الناحيتين منغمسين فى الشكليات بحيث إذا تمسكنا بديننا نكون بذلك دون المثل العليا التى ينصبها الإسلام أمام الضمير الإنسانى ، وإذا انحزنا إلى الجانب الآخر نجد أنفسنا أيضاً دون المثل العليا التى تقرها الثقافات الأخرى ، فالأصالة تقتضى منا الشعور بمسئوليتنا فى مجال الفكر بحيث لا نطأطىء الرأس لفكرة لمجرد مصدرها، سواء أكان مصدرها من الغرب أو من الشرق ، وقد أعطت الثقافة الإسلامية لحياة الأفكار قيمة وحرية واستقلالا لا تجدها الأفكار فى الحضارات الأخرى ، إما لأنها تتورط فى (الشيئية) مثل الحضارات الأخرى ، وإما لأنها تتورط فى (الشخصانية) والقرآن وحده لفت لأول مرة فى تاريخ الإنسانية النظر لقيمة الفكرة فى ذاتها دون صلتها بالأشخاص أو بعالم الأشياء فى قوله عز وجل :

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) صدق الله العظيم.هذا التخليص من الشخصية وأى شخصية،إنها شخصية رسول الله محمد ﷺ الذى قال فيه سبحانه (وإنك لعلى خلق عظيم)

ومع هذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلص الفكرة الإسلامية من شخصية محمد ﷺ لكنه فى الوقت ذاته أراد لهذه الفكرة الإسلامية منطلقها التام .

(٤) إذا اعتبرنا الثقافة كمجموعة مبادىء وأفكار نقول إن تاريخ الإنسانية قبل أن يحقق عالم الأشياء أو الجانب المادى من الحضارة فإنه بطبيعة الحال كان قد كون رصيده الفكرى وربما يسمح لنا على هذا الأساس القول بأن الجو الثقافى يتقدم بالضرورة ليولد حضارة .

ولا أتصور نهضة لأى شعب من الشعوب العربية والإسلامية إلا بواسطة عقيدة قوية ، تذلل له الصعاب وتقوى عزمه فى جميع الاتجاهات ولا يمكن طبعاً أن نستمد هذه العقيدة ككل شعب آخر إلا من (دين) يضع العادات فى بنائه ويصوغ فى كل نفس اتجاهات عامة وخاصة يمكن أن تسمى الضمير العام .

وما فرض الاستعمار رقابته على الحياة الدينية إلا لعلمه أن هذا الدين وحده هو الوسيلة النهائية لتصحيح أخلاق الشعب الذى فقد فى غمار تاريخه كل هم أخلاقى ، إذا كنا نجد اليوم شيئاً يدوى فى جوانب النفس الإنسانية فيردها قادرة على تغيير ذاتها والتخلى عن جمودها فلن يكون هذا الشىء سوى (الإسلام) لذلك لم تفلت هذه القوة الباعثة من تهجم الاستعمار ففرض عليها القيود .

(٥) إن الحادث عند انقذافه يكون محملا بكل ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تودعه فيه من غرض مصلحى ، وهوى وطموح وبغض ووهم ، إنه صاروخ منطلق فى الزمان مدفوع بكل ما يحرك الإنسان ، ولا ريب أن أثره ذو بال إذا اقتصرنا على النظر إليه من الجانب البشرى ، فقد يكون غزواً يغير الخريطة السياسية أو ثورة تغير حياة أمة أو ميلاد دولة ، ولكن الصاروخ قد يذهب إلى أبعد ، إنه يخرج بعد انقذافه من المسار الذى قدره العقل البشرى له ، إن وقع حادث ما أطلقت عنانه الإرادة البشرية يخرج فى النهاية عن رقابتها ، إنه صاروخ مقذوف فى الزمان يتجاوز دائماً تقديراتنا وحساباتنا .

لا ريب أن هدف الإنسان من الحادث ساعة انطلاقه محدد ولكن الغاية التى يصل إليها الحدث قد تكون مغايرة تماماً للهدف الأول ، ذلك أن انطلاق الهدف أمر يقوم على إرادة الإنسان ولكن المراحل التالية لذلك قد تقع فى دائرة القوة الكبرى التى توجه الحدث وجهة أخرى .

(٦) الإسلام لم ينتشر فى آفاق العالم كدين فحسب ، ولكنه غزا العالم كحضارة أيضاً ، كان الإنسان المسلم بعقله وفكره وتقواه وتطلعاته محور هذه

الحضارة والإنسان المسلم لم يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد أن انصهر فى بوتقة الدين واستمد منه طاقات هائلة دفعته إلى التفوق والتسامى والافتتان فى صنع الحضارة والحياة .

(٧) الإسلام برىء مما وصل إليه المسلمون فى عصورهم المتأخرة من تخلف وإنما مرجع ذلك كله إلى تدهور أخلاق المسلمين وبناء حياتهم على هامش الدين ، بعيداً عن حقائقه ، ومن هنا استطاع خصومهم أن يلجوا عليهم ديارهم ويستعمروا أرضهم ويسلبوهم أعز ما يملكون وهو الحرية .

(٨) القوى المناهضة للإسلام لم تنل بما لها من قوة وشراسة وحقد قدرة على التضليل فلما عجزت عن ذلك سددت سهامها إلى الحكم الإسلامى بإفساد نظمه وتغيير سلوك الحكام وبقيت صخرة الوحدة الإسلامية قائمة .

(٩) الإسلام يحمل فى تعاليمه وسائل التقدم والنهوض وهو لم ينتشر فى آفاق العالم كدين فحسب ولكنه غزا العالم كحضارة أيضاً وكان الإسلام بعقله وفكره وقواه وتطلعاته محور هذه الحضارة .

(١٠) النظريات السياسية المختلفة والأقطار الملحدة هزمت كثيراً من الديانات والملل والنحل ، وغزتها فى عقر دارها ولكنها وقفت حائرة أمام الإسلام لم تستطع صرف أبنائه عنه رغم أساليب القهر والعسف فبقى فى معاقله كالطود الشامخ ، يحمل الإسلام حصانته فى جوهره من عطاء الله له .

(١١) محور واشنطون ـ موسكو محور القوة والعلم والحضـــارة يحاول السيطرة على العالم يعانى من انهيار نفسى وأدبى وخلقى محقق ، فقدت الأديان الأخرى مقدرات بقائها . المجوسية محاها سعد بن أبى وقاص وعمر بن الخطاب يوم القادسية . البوذية محاها ماوتسى تونغ بخط قلم ومحاها من الوجود ، البرهمية

محتها ظروفها الخاصة كدين لا كثقافة . إلى متى ستبقى كثقافة ، أما الدين فقد فشلت فى أبسط مهامها إذ سجلت الهند فى دستورها سنة ١٩٤٠ يوم استقلت إنها ستقضى على حالة المنبوذ . المسيحية كما عبرت عنها المجامع المسكونية فقدت مبرراتها التى يمكن أن تقدمها للنفس والمرأة النصرانية ملكت بذور فنائها من نفسها ، الأديرة تغلق واحداً بعد آخر ، خاصة فى أمريكا اللاتينية . هناك دير فى الهند له تاريخ فقد سكانه من البنات المتطوعات للسوح حتى أن المشرف على الدير ذهب إلى منطقة مغيرة (كيرالا) ليشترى عدداً من البنات بالعملة الصعبة يعلمهم لباس المسوح والقيام ببعض الطقوس . أما اللون الإسلامى فهو لون ديانة جديدة يكتسح العالم . اللون الإسلامى الآن يغطى مساحة من الدنيا تقارب نصف الدنيا: المساحات الأفريقية والآسيوية المسلمة نصف الدنيا وعدة البشرية تتضمن ألف مليون مسلم ، وبالرغم من كل الضربات للمسلمين يتضاعف عددهم فى ظرف نصف قرن ويتصاعد العدد إلى مايقرب من مليار زيادة انتاج المسلمين وقلة إنتاج أوربا .

يخيل إلى أن الله تبارك وتعالى أخر دور المسلم حتى تنتهى جميع تجارب الآخرين بالفشل ويستطيع إصلاح أخطائهم أو حتى تصل تجاربه إلى نهاية فشلها فيكون المسلم الخيرة لتدارك أخطائه .

نرى الآن خطين متوازيين : العالم المتحضر إلى فشل تجاربه ، والخط الموازى تحقيق القاعدة (ليظهره على الدين كله) الخط الحضارى فساد وتدمير وانحطاط .

ظهر على الخريطة لون جديد أحمر : الشيوعية .

وهى دين يحاول تقديم مبررات وهى فى الطريق إحدى عمليات التعويض فى العالم المتحضر المبررات التى فقدها، فشلت محاولة الوجودية وظهرت الشيوعية

كنتيجة فى عملية التعويض للمبررات المفقودة ـ ليس غير الإسلام من يستطيع أن يعطى البشرية ما يعوضها عن حيرتها ، لقد حققت أوربا المعجزات فى عالم الاكتشاف وعالم العلوم ، ولكنها فقدت فى أعماق نفسها البعد الذى كان يروح ويرفه عنها ويسندها فى وقت المحن ، فقدت إيمانها بوجود الله .

النفوس المتعطشة اليوم لن تجد ما يروى ظمأها إلا فى الإسلام ، إن البعد الذى ينقص الحضارة اليوم هو بعد السماء .

إن خطأ اليهود هو تزييف ميراث إبراهيم وقصره على أبناء إسحاق ، فهم ينكرون إسماعيل الإبن الأكبر وينكرون رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة وبناء الكعبة .

على المسلم أن يفكر كيف يسير فى اتجاه التاريخ وكيف يستغل الظروف السانحة إلى تتاح له على المحور الإسلامى .

الفصل التاسع عشر

النظرية السياسية الاسلامية

(الدكتور ضياء الدين الريس)

لطالما كنت اسأل نفسى وانا ادرس علم النظريات السياسية الغربية، وانا أرى ان النظريات التى تدرس إنما هى - فقط - نظريات الإغريق والرومان وامثالهم من المفكرين الأوربيين وأين مكان الفكر الإسلامى من هذا الانتاج الانسانى العام، ألم يكن فى الاسلام مفكرون سياسيون، ألم ينتج الاسلام تفكيراً سياسياً.

لقد عنى الغربيون بدراسة النظريات السياسية لمفكرين فى العصور المختلفة فدرسوا اراء الإغريق والرومان والمدافعين عن حقوق البابوية أو الامبراطورية فى العصور الوسطى وفلاسفة العصور الحديثة وأصبح علم النظريات السياسية علماً متميزاً له كيانه الخاص، عظيم القيمة كبير الخطر، ثم صار هذا العلم يدرس فى جامعات اوربا تارة على انه أحد العلوم التاريخية وتارة أخرى على أنه أحد فروع الفلسفة، فيطلق عليه اسم الفلسفة السياسية وطوراً على أنه من بين المباحث التى تكمل بها الدراسات القانونية ولا سيما الدستورية منها.

كان السؤال يثب إلى خاطرى ويتردد على ذهنى وأنا أدرس هذا العلم بصفة إجمالية فى مصر وأخرى بصفة تفصيلية فى أوروبا، ومن آن وآخر حائراً وهو يلح أن أجد له الجواب ولكن الإجابة عليه، أمراً اريد لها أن تكون مثبتة على أسس علمية، وتعرض فى صورة معضلة واضحة لم تكن بالأمر الهين، إذ أنه

قبل أن يتوصل إليها لا بد من دراسة عميقة شاملة للتراث الاسلامى الخالد وتعقب الأفكار التى ثبت هنا وهناك فى ثنايا الكتب التى ألفها القدماء فى العلوم المأثورة المختلفة ولاتزال مكتوبة بلغتهم الاصطلاحية التى لم تعد مألوفة اليوم، وتقارن هذه الأخطار بالآراء التى انجلى عنها تطور الغرب وتسلك فى نظام جديــــد، ثم يعبر عنها باللغة التى صارت متداولة فى مجال العلوم السياسية والدستورية الحديثة .

على أن القرائن منذ بداية الأمر، كانت تشير إلى أن الجواب على أية حال لن يكون بالسلب وذلك (أولا) لأن انتاج الفكر الاسلامى فى مختلف نواحى العلوم، كما تشهد بذلك النهضة العلمية الرائعة التى عرفت فى العصر العباسى والتى لم يكن لها نظير فى تواريخ الأمم السابقة لذلك العهد، انتاج حافل، فلا يعقل أو على الأقل يكون من التصور البعيد، ان يظن أن هذه الناحية الهامة من نواحى الثقافة الإنسانية قد أهملت ونعنى بها الناحية السياسية، وثانياً : لان المجتمع الاسلامى فى خلال العصور المتعاقبة، قد نجح فى انشاء دول بل امبراطوريات بلغت دون أن تكون هناك خشية المبالغة فى القول، من الدقة فى انظمتها وادارتها وأساليبها ما لم تبلغه النظم السياسية أو الادارية التى ألفها العالم قبل وجود هذا المجتمع .

ومن الحقائق التى لا تزال غير معروفة لكثير أن (الدولة الحديثة) وهى أحد العوامل التى كانت سبباً فى انتقال اوربا من العصور الوسطى أو الفوضى الاجتماعية التى سميت بالنظام الاقطاعى – كانت اقتباساً إلى حد قريب أو بعيد من الدول التى كانت موجودة فى بلاد الشرق الاسلامى، لذلك العهد كما أن النهضة القانونية التى حدثت فى اوربا وأدت إلى أن تكون تلك الدولة، كانت صدى لنشاط الدراسات القانونية التى حدثت فى اوربا، وأدت إلى تكون تلك الدولة، كانت صدى لنشاط الدراسات القانونية فى الممالك الإسلامية التى

كان القانون أو الفقه هو المادة الأولى للدراسة في جميع كلياتها ، فنشأت الجامعات في إيطاليا وفرنسا متأثرة بهذه الروح ، عاملة على تنفيذ المنهج على النمط الذي شهدته في الشرق ، فإذا كان هذا هو أثر المجتمع الإسلامي في ميدان السياسة العملية وذاك هو إنتاج الفكر في مختلف نواحي العلوم فلا يتوقع إلا أن يكون لها مثل هذا الإنتاج في أفق السياسة النظرية ـ مع مراعاة الحدود بطبيعة الحال التي انتهت إليها الثقافة ووصل إليها التطور الاجتماعي في ذاك العصر مشبعاً بالتفاؤل إذن ومجدداً بالأمل بدأت العمل في هذا الموضوع ، وبعد أن قطعت مرحلة في البحث تبين لي أن هناك من الدلائل ما يثبت صحة القضية السالفة : فالمسلمون قد فكروا فعلا في السياسة وكونوا لهم نظريات عنها ، غير أن بحثهم كان تحت إسم آخر ، وتكلموا بلغة أصبحت غير مألوفة في العصر الحاضر . فالنظريات التي وصلوا إليها كانت إما جزءاً من بين مباحث علم الفقه أو الكلام أو التاريخ أو الفلسفة أو الأدب ، ويوجد بعضها أيضاً في تفاسير القرآن وفي شروح الأحاديث .

ولذا فإنه ينبغي لمن يريد أن يفهم هذه الآراء فهماً حقيقياً ويلم بها إلماماً تاماً أن يرجع إلى تلك العلوم جميعاً ، وهذه النظريات في مجموعها ، وإن كان قد غلب عليها طابع معين واتخذت وجهة خاصة وانتهت في سير التطور إلى حدود لم يتجاوزها فإنها مع ذلك تكون ثروة عظيمة القيمة ، جديرة بالعناية والدراسة ، تضاهي ماأنتجته أوربا في بعض عصورها الزاهية ، بل إن من بين هذه النظريات لم تصل أوربا إلى معرفته إلا بعد أن قطعت شوطاً طويلا في طريق التطور ، وما يمكن أن يوصف بأنه يعبر عن أسمى المبادىء السياسية التي وصلت إليها الإنسانية

ومن المميزات العامة للتفكير الإسلامي الذي تميز ذاته فوق ما تقدم : إنه ، أولا نشأ نتيجة للتطور التاريخي ، وثانياً ، انه كان يقصد أن تصاغ عناصره في

صيغة قانونية حتى يمكن بقدر ما تسمح به الأحوال أن يطبق فى حياة الجماعة العملية ، وثالثاً : وهذه الخاصية تميزه عن التفكير الغربى فى كثير من عصوره ، انه كان مرتبطاً دائماً بالقيم الأخلاقية لا يستطيع أن ينفصل عنها أو يتجاهلها ، بل ان هذه القيم كانت هى غاياته الأساسية وجوهر حياته الذى يفقد كيانه اذا فقده . ورابعاً : انه منذ نشأته رسمت له حدود جعلت تطوره ينتهى الى غاية لا يعدوها . وان كان من الممكن فى العصر الحاضر أن يجعل ما انتهى اليه من نتائج كأساس ، ويبدأ فى تحديده ووضع نظام محدث له .

وكان المنهج الذى اتبعته فى البحث انى رجعت الى المصادر القديمة الأصلية أولا ، لاستخراج الأفكار من معادنها مع المقارنة بين المصادر والموازنة بين الآراء المختلفة ومناقشتها ، ثم محاولة ترتيب هذه الأفكار وفق نظام علمى واحكام الربط بينها والتعبير عنها بلغة حديثة ، وهذا هو لباب البحث ، وكان عملى فيه عمل المؤرخ: يريد أن ينقل الصورة صادقة ، ما أمكن أن تبلغ الصورة من الصدق .

ثم كان لا بد بعد ذلك أن أطلع على ما كتب المستشرقون وما جاء فى كتب المؤلفين المعاصرين من آراء حول هذه النظريات ، وقد أصاب بعض هؤلاء المتأخرين ، كما أخطأ بعضهم خطئاً بيناً ، اذ كانت غايته أن يدافع عن فكرة أساسية معينة ، لا أن يبحث بحثاً علمياً ، والتزموا فى الغالب الخطة القديمة ، فرووا آراء السابقين على أنها أحكام أو فتاوى ، دون أن يبينوا مستندها العقلى أو يصفوا تطورها التاريخى .

أما المستشرقون : فقدكان عرضهم فيه جدة وطرافة وكان أقرب الى روح العصر ولهم نظرات نافذة ، ولكن كانت تنقصهم الإحاطة والشمول وبضاعتهم قليلة ، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا تماماً من طريقة العرض التقليدى ، كما أنهم لم يفهموا كثيراً من الأسرار الكامنة وراء الآراء ولا الآراء نفسها أحياناً .

فوقعوا نتيجة ذلك فى أخطاء جمة وليس هـذا الأمر بمستغرب ، لأن هذا الموضوع وأمثاله ينبغى أن يدرس بالرجوع إلى مصادره الأصلية الإسلامية وهى باللغة العربية وقد حرصنا جهدنا فى ثنايا البحث أن ننبه إلى تلك الأخطاء ونرد عليها مبينين وجه الحق ، كما أشدنا بأحكامهم الصائبة وسجلناها معجبين بها حينما وجدناها .

ولم يعد هناك شك فى أن النظام الذى أقامه رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فى المدينة إذا نظر إليه من وجهة مظهره العملى وقيس به قياس السياسة فى العصر الحديث يمكن أن يوصف بأنه (سياسى) بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى وهذا لا يمنع أنه يوصف فى نفس الوقت بأنه دينى إذا كانت وجهة الاعتبار فى النظر إلى أهدافه ودوافعه والأساس المعنوى الذى يرتكز إليه،فالنظام يمكن أن يوصف إذن فى وقت واحد بالوصفين ، وذلك لأن حقيقة الإسلام شاملة : تجمع بين شئون الناحيتين المادية والروحية ويتناول أعمال الإنسان فى حياتيه الدنيوية والأخروية ، بل إن فلسفته عامة تمزج بين الأمرين ولا تعترف بالتمييز بينهما إلا من حيث اختلاف وجهة النظر أما فى ذاتيتها فيؤلفان كلا أو حقيقة متسقة ، وهما متلازمان لا يمكن أن يتصور انفصال أحدهما عن الآخر ، وهذه الحقيقة عن طبيعة الإسلام قد أصبحت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى كبير عناء لإقامة البرهان ، وهى مؤيدة من حقائق التاريخ ، وكانت عقيدة المسلمين فى كل العصور السالفة .

وقد بدأ يدركها جمهور من المستشرقين مع عدم قربهم من بيئة الإسلام ومع ذلك فهناك نفر من أبناء الإسلام ممن ينعتون أنفسهم بأنهم (مجددون) يجاهرون بإنكارهم لهذه الحقيقة ، وهم يدعون أن الإسلام ليس إلا مجرد (دعوة دينية) يريدون بذلك أنه ليس الا مجرد اعتقاد أوصلة بين الفرد وربه فلا تعلق له اذن بهذه الحياة الدنيا ، ومن بين هذه الشئون : مسائل الحرب

والمال وفى طبيعتها أمور السياسة ومن أقوالهم ان الدين شىء والسياسة شىء آخر وليس من المجدى من اجل الرد على هؤلاء أن نروى لهم أقوال علماء الاسلام فقد لا تستشعرون أنهم مقتنعون بما تقولون ، ولا أن نبدأ بذكر حقائق التاريخ فقد يعمدون إلى المكابرة فيها ولكن يكفى أن نثبت جملة ما قال علماء الإستشراق فى هذا الصدد وقد بينوا آراءهم فى عبارات صريحة قاطعة لأن هؤلاء المجددين لايستطيعون أن يزعموا أنهم اوثق منهم صلة بالعصر الحاضر ولا أكثر قدرة على استعمال أساليب البحث الحديثة واستخدام الطرق العلمية

قال فتزجرالد : ليس الاسلام ديناً فحسب ولكنه نظام سياسى أيضاً

قال نلينو : لقد أسس محمد فى وقت واحد ديناودولةوكانت حدودهما متطابقة طوال حياته

قال شاخت : على أن الاسلام يعنى أكثر من دين ، انه يمثل أيضا نظريات قانونية وسياسية وجملة القول أنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا

قال ستروثمان : الاسلام ظاهرة دينية ،سياسية ،إذ أن موسى كان نبيا وكان سياسيا حكيما أو رجل دولة

وقال ماكدونالد : هنا ـ أى فى المدينة ـ تكونت الدولة الإسلامية الأولى ووضعت المبادىء الاساسية للقانون الإسلامى

وقال السير توماس أرنولد : كان النبى فى نفس الوقت رئيسا للدين ورئيساً للدولة .

وقال جب : عندئذ صار واضحا أن الإسلام لم يكن مجرد اعتقاد دينية فردية وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين فى الحكم وله قوانينه وأنظمته الخاصة به » .

هذه الأقوال كلها تؤيدها وقائع التاريخ فمن الحقائق التى لا يستطيع أحد أن ينكرها أنه على أثر ظهور الدعوة الاسلامية تكون مجتمع جديد له ذاتية مستقلة تميزه عن غيره يعترف بقانون واحد وتسير حياته وفقا لنظام واحد ويهدف إلى غايات مشتركة وبين أفراده وشائج قوية من الجنس واللغة والدين والشعور العام بالتضامن ومثل هذا المجتمع الذى تتوفر فيه تلك العناصر هو الذى يوصف بأنه سياسى أو هو الذى يقال عنه انه (دولة) فإنه لا يوجد أى تعريف لها غير ان تجتمع هذه الصفات التى ذكرناها فى مجتمع ما .

فقد ولدت الدولة الإسلامية إذن فى وضح النهار وتم تكوينها فى ضوء التاريخ وبدأت عملها التى يمكن أن تقال أنها وظيفة سياسية فى إعداد الادارة لتنفيذ العدالة أو تنظيم للدفاع أو بث التعليم أو حياطة للمال أو عقد معاهدات أو إنفاذ سفارات : هذه هى الحقيقة التاريخية التى من المحال أن ينكرها أحد .

الفصل العشرون

التحرر من التبعية

(محمد عطية خميس)

إذا استعرضنا تاريخ العالم الإسلامى فى هذا القرن الذى ودعناه نجده قرن «نكسة» بالنسبة للمسلمين تآزرت فيه كل القوى المعادية للاسلام للقضاء على ديننا وأوطاننا ومسخ مقوماتنا وشخصيتنا الأصيلة والمتآمرون كانوا من الخارج ومن الداخل

أما المتآمرون من الخارج فهم :

(١) الصليبية بمختلف مؤسساتها العسكرية والاستشراقية والاستعمارية

(٢) الصهيونية العالمية بمختلف مؤامراتها وتنظيماتها الالحادية والفكرية والفنية أما المتآمرون من الداخل فهم من عملاء هؤلاء الاعداء وصنائعهم، سواء كانوا من الحكام أو المحكومين ، وكذلك من المتآمرين من الداخل بعض العلماء الذين لم يراعوا فى الله إلا ولا ذمة وساروا فى طريق النفاق يرقبون الحق ليجعلوه باطلا ويزينون الباطل على أنه حق

كان القرن الرابع عشر قرن النكسات والتآمر على الاسلام والمسلمين ، وتضافرت ضدنا كل هذه المؤسسات الصليبية والصهيونية والإلحادية والشيوعية ولازالوا حتى الآن حتى ولو تظاهر بعضهم بالعطف على دول الاسلام وقد يختلفون على كثير من الأمور الا انهم يتفقون على غاية واحدة هى القضاء على الاسلام والمسلمين

فى هذا القرن سقطت دولة الخلافة الاسلامية على يد صنيعة الماسونية اليهودية (مصطفى كمال اتاتورك) فبعد أن كانت الأمة الاسلامية دولة واحدة، يحكمهم خليفة واحد ، وكان أعداء الاسلام يسمون دولة الخلافة العثمانية « الرجل المريض » ولكنهم كانوا يعملون لها الف حساب وحساب ، وهكذا سقطت راية الخلافة الاسلامية التى جمعت المسلمين ثلاثة عشر قرنا من الزمان .

وفى هذا القرن انقسم المسلمون إلى دويلات وتركوا الولاء للقومية الاسلامية ، فظهرت القوميات الشعوبية ، التى ما أنزل الله بها من سلطان ، فهذا عربى وذاك اعجمى ، وهذا فرعونى وآخر فارسى وثالث طورانى ورابع بربرى وبظهور هذه القوميات الشعوبية قضى على كل عوامل الوحدة بين شعوب الأمة الإسلامية .

وفى هذا القرن زحف الاستعمار العسكرى على بلاد المسلمين ، فسلبهم حريتهم وتقاسمت دول الغرب بلاد المسلمين وتداعوا عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، فمصر وفلسطين والسودان خضعوا للاستعمار الإنجليزى وسوريا ولبنان للإستعمار الفرنسى وليبيا للإستعمار الإيطالى وأندونسيا للإستعمار الهولندى وهكذا تقاسم اعداء الاسلام دول المسلمين

وفى هذا القرن تحت وطأة الاستعمار استبدلت البلاد الإسلامية بالشريعة الإسلامية القوانين الوضعية فى مختلف المجالات وعطلت الشريعة الإسلامية فى جميع بلاد المسلمين ما عدا دولة أو دولتين ، وفى هذا القرن استطاعت كثير من البلاد الإسلامية التحرر من الاستعمار العسكرى إلا ان الاحتلال الثقافى والقانونى والخلقى والحضارى لا زال جاثماً على أرض الإسلام

وفى هذا القرن سقطت بعض الدول الاسلامية فى براثن الشيوعية على أيدى العملاء والخونة من ابنائها فرفع لواء الإلحاد والشيوعية كل من اليمن والصومال

ولا زالت الحرب دائرة بضراوة وشراسة ضد المسلمين فى أفغانستان لإسقاط راية الإسلام هناك والعالم الإسلامى والأوربى يتفرج كأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد.

وفى هذا القرن انقسمت بلاد إسلامية على بعضها ، ليزداد ضعف المسلمين فبنجلاديش انفصلت عن باكستان، واليمن الجنوبية انفصلت عن اليمن الشمالية والسودان انفصلت عن مصر ، والبقية لا زالت فى الطريق .

وفى هذا القرن قامت دولة إسرائيل وضاعت القدس وأصبح المسجد الأقصى فى أيدى اليهود وبقيام إسرائيل سقطت فلسطين فى أيديهم فكانت تمثل مأساة الأندلس الثانية ، وتتابع الاعتراف الدولى بإسرائيل كما وقعت كبرى الدول العربية إتفاقيات الصلح معها .

وفى هذا القرن زحفت الصليبية والمؤسسات التبشيرية بكل ما تملك من قوى ، للقضاء على الإسلام والمسلمين فى أندونيسيا وأوغندا والفلبين وقبرص وتايلند ، ونيجريا وجنوب السودان وأثيوبيا حتى أن عدد المسلمين فى أوغندا أصبح ثلاثين فى المائة بعد أن كان تسعين فى المائة ، وكذلك فى أندونيسيا التى تزرع فيها الكنائس كما تزرع الأشجار، أما دماء المسلمين فقدأصبحت أرخص دماء فى تايلاند والفلبين وأندونيسيا وغيرها من بلاد المسلمين وهكذا عادت الحروب الصليبية من جديد .

وفى هذا القرن ظهرت الدعوة إلى السفور واختلاط الجنسين وخلعت المرأة المسلمة الحجاب وفقدت الأسرة المسلمة كل مقوماتها حتى فى ميدان الأحوال الشخصية تزحف القوانين الوضعية للقضاء على الأحكام الشرعية الإسلامية وأصبح الاختلاط شائعاً بين الجنسين فى مختلف الميادين فى المدارس والحفلات العامة .

وفى هذا القرن وجهت أقسى الضربات على الدعوة الإسلامية وحيل بينها وبين أداء رسالتها : الإخوان المسلمون فى مصر وفى سوريا والشبيبة الإسلامية فى المغرب وتونس والجماعات الإسلامية فى باكستان إبان حكم بوتو ، وما زال الشباب المسلم فى ليبيا يلقى صنوف العذاب والتنكيل وألقى بالآلاف من كل هؤلاء فى المعتقلات والسجون وسفكت دماء الأبرياء تحت إسم المحاكمات الصورية.

وإذا بحثنا ماذا كسبنا فى هذا القرن لا نجد شيئاً مما حققناه يوزن بميزان، قد نكون تخلصنا من الإستعمار العسكرى ولكن ماقيمة هذا التحرر والحرية الحقة قد فقدها أبناء هذه الأمة : حرية الكلمة وحرية الرأى وحرية التعبير . ما قيمة التحرر من الإستعمار العسكرى والاحتلال لا زال قائماً بنظمه القانونية والإجتماعية والإقتصادية ، ما قيمة التحرر من الإستعمار العسكرى والأمة لم ترجع لها أصالتها ولم تعد إلى مقوماتها بعد أن مسخت شخصيتها مسخاً ، فذابت فى شخصية ونظم وأخلاقيات ومقومات المستعمر .

نريد أن نستقبل القرن الخامس عشر بعمل جاد وبتخطيط جديد ، نبذل فيه ما نملك من جهد لتعود راية الإسلام من جديد على أمة متحدة واحدة، ونمسح فيه ما لحقنا من عار فى القرن الرابع عشر .

(٢) منذ وأدت هذه الأمة وغيرها من الأمم الإسلامية حركات التبشير العلنى وهى تحاول أن تتسلل بطريقة أو بأخرى وتحت أسماء زائفة ودعاوى باطلة تحت اسم (الماسونية) وتارة تحت اسم (الروتارى) وثالثة تحت اسم آخر وكلها هدفها التهوين من أمر الدين والتدين ، ثم ظهر التبشير لجأة فى شباك جديدة . بأسماء خادعة .« جمعية التسليح الخلقى»و« جمعية التقريب بين الأديان» أما دعوة التسليح الخلقى فهى دعوة تنادى إلى تحلل الناس من الأخلاق الدينية والتمسك بالأخلاق التى تتواضع عليها الجماعة،وأخيراً ظهرت فى أوربا وأمريكا

دعوة التقريب بين الأديان ، وهى دعوة خبيثة ، وللأسف الشديد وقع فى حبائلها بعض الذين كانوا يعملون فى حقل الدعوة الإسلامية يوما ما .

وهذه الدعوات جميعها دعوات تبشيرية تحت أسماء جديدة تهدف إلى العمل بأسلوب رسمى وشرعى وليس هدفها إطلاقاً - كما صرح المبشرون الأوائل - تنصير المسلمين ولكن هدفها زعزعة الإسلام فى قلوب المسلمين حتى لا يكونوا مسلمين ويخرجوا من الإسلام وإن لم يعتنقوا النصرانية وهذا مكسب كبير لهم. لم يعرف الإسلام اجبار غير المسلمين على اعتناق الإسلام ، لأنه قام على مبدأ قرآنى ثابت (لا إكراه فى الدين) والإسلام معروف بمبادئه وعقائده ونظمه وآدابه وأخلاقه فى العالم كله وبمختلف اللغات فهو لا يحتاج إلى تبشير ومبشرين إنما التبشير هو سلاح المسيحية وحده والإكراه على اعتناقها هو سلاحها البتار. وإن شئتم فانظروا كيف تتم الردة عن الإسلام فى أندونسيا وفى الفلبين وفى اليونان ، وفى كل البقاع التى فيها أقليات إسلامية . الردة تتحقق هناك بالتبشير والإكراه.

والإسلام يقوم على التجرد من التبعية فى الفكر والمنهج والقصد ، أما التجرد من التبعية فى الفكر فلأن الفكر والمبدأ الإسلامى يقوم على :

(لا إله إلا الله . محمد رسول الله)

أما التجرد من التبعية فى المنهج فلأن المنهج والوسيلة فى الإسلام هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وأما التجرد من التبعية فى القصد فلان القصد فى الإسلام هو رضوان الله عز وجل .

ولكى يتحقق للمسلم التجرد من التبعية نهانا رسول الله ﷺ عن تلاوة كتب أهل الكتاب أو مطالعتها ، ولو كان القارىء لها أو المطلع عليها صحابياً

كريماً من صحابة رسول الله ﷺ فقد قال النبي ﷺ لعمر وقد أصاب بعض صحف أهل الكتاب :

والذى نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو باطل فتصدقونه والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى » .

وأعداء الإسلام جميعاً لا يريدون أن يدخلوا على المسلمين ليزعزعوا عقائدهم إلا من باب التبشير الفكرى والإطلاع على آرائهم ومطالعتها ،هذا هو المدخل الذى يدخل به أعداء الإسلام على المسلمين .

أعداء الإسلام التاريخيون : الإستعمار الثقافى ، التبشير المسيحى الإستشراق الغربى ، الصهيونية العالمية ،

وخصوم الإسلام الفكريون والشيوعية بمختلف صورها والوجودية بمختلف أشكالها والمبادىء الوضعية بمختلف مصادرها ، لهذا حذرنا النبي ﷺ من التبعية فى العقيدة أو الفكر أو الميل إليها ولو من باب الإطلاع ، ومنع هذا كبار الصحابه ، فكيف نرتضيه اليوم لمسلمى اليوم الذين ليست لهم من الحصانة ما كانت للذين يعايشون رسول الله ﷺ فى حياته ، كيف نرتضيه لأبنائنا الصغار فنشوش عليهم أفكارهم وعقائدهم .

الفصل الحادى والعشرون

الأصالة الاسلامية فى مجال الطب

(للطبيب الدكتور حسان حتحوت)

يشهد الزمن الحاضر (صحوة إسلامية) لا تنكر، وإقبالا على الاسلام أو عودة إليه، نواء السبق فيه معقود للجيل الحاضر من شبان وفتيات على الجيل الماضى من آباء وأمهات، فليست إذن تلقين جيل لجيل ولكنها بعث حقيقى وأصيل فى هذا الجيل، والظاهر أن ضمير الأمة المتمثـــل فى شبابها قد ضاق ذرعا بما جربته من أيديولوجيات سابقة ولاحقة تختلف فيما بينها اختلافات شاسعة ولكنها تتفق على استبعاد الاسلام سكان سفين ومنهاج حياة وكيف أفضت التجارة كلها إلى الهزيمة والافلاس والهوان، فكان رد الفعل أن اتجهت إلى الاسلام تلتمس فيه ذاتها وحياتها ونجاتها، والذى نخشاه ونحاذره ان يقف هذا المد الاسلامى عند رد الفعل وإنما نريده فعلا هادفا مدروسا منظما، لا نريد له أن يظل فورة عاطفية بل نريد أن يشق له مجرى عميقا بين منبع ومصب ليكون نهراً يتناوله التنظيم والتهذيب والانضباط، نريد أن تقوم على ضفتيه الحياة والحضارة والبقاء، ولا نشك أن الغالبية الكبرى من خامة هذا المد مخلصون ومخلصات ولكننا ننبه إلى ان الإخلاص وحده لا يكفى وقد يضر، فإن معركة الاسلام فى زمننا هذا معركة ذكاء بقدر ما هى معركة إخلاص على الأقل، ويا ليت المخلصين من غير ذكاء يدركون ان واجبهم هو أن يتركوا مجال الدعوة لإخوانهم الذين أوتوا الذكاء والمهارة والمراس، فرب داع أراد أن يبشر فنفر ورب محام تولى قضية حق فخسرها بسوء مرافعته. وفى زمننا هذا الذى ينادى فيه نحو

نصف البشر بأنه لا إله : ونحو نصفهم بأن هناك إلها ولكن يجب أن يظل فى المعبد وينحى عن الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتشريعية ويجرى الفريقان فى عنان واحد من كراهة الاسلام والكيد له والتخطيط لاستئصاله . (موقف الشيوعية واليهودية معروف وننصح كذلك بقراءة كتاب « The goselislam » الصادر فى أمريكا عام ١٩٧٨ وفيه الخطة العلمية المدروسة لتنصير العالم الاسلامى) فى مثل هذا المناخ العالمى يحز فى النفس أن نرى دائرة الاهتمام عند كثير من الشباب الاسلامى المخلص لا تتسع لأبعد من الأمور المظهرية فى الزى وإطلاق اللحية أو تقصير الثوب أو مدى الحجاب أو صوت المرأة أو مشروعية دخولها الجامعات ، بل وإننى وأنا أعلم أمراض النساء والولادة فى الجامعة التى أعمل فيها يدهشنى أحيانا أن بعض طالباتى ذوات الصبغة الإسلامية المتشددة ، يضقن عند سماع بعض الأمور فى صميم تلك المادة ، والأحكام الشرعية المتعلقة بها بدعوى أن هذه الأمور تمت للجنس ، علماً بأن هذه الأمور ذاتها كانت تتناولها المرأة المسلمة فى صدر الاسلام بالسؤال والاستفهام ولا حياء فى الدين ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين

إن أهم ركائز العمل الاسلامى فى نظرى خمس : أضعها تحت انظار من ينوى :

الأولى: أن تحب فلا تكره، فالذى يريد أن يهدى الناس لا يمكن أن يكرههم ورغم أن النبى ﷺ كان يدعو كفاراً يحاربونه فقد دعا ربه مرة « اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين » ومرة « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون »

والثانية : أن تنشغل بما يجمع وتشيح عما يفرق ، وقد أحسن الاستاذ البنا رحمة الله عليه التعبير إذ قال (ننفذ معاً ما اتفقنا عليه ويعذر

بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) فاختلاف الرأى أو المذهب لاينبغى أن يصمد أمام قضية مصير الإسلام .

والثالثة : أن تقبل أن نبدأ بالناس من حيث هم وتأخذهم بالحكمة والموعظة الحسنة ولين القول وطول الأناة والصبر والمصابرة والملاطفة إلى حيث نريد دون زجر أو قهر .

والرابعة : أن لا تعوزك الدراية والوعى والدراسة على مدى واسع يضم سيكولوجية التعامل وكذلك الخريطة الأيدلوجية العالمية أهدافا ووسائل ، فإن كنت من أهل الإخلاص وحده فرحم الله خليفة رسول الله وهو يرشح للقيادة أحد رجلين ، هذا تقواه لنفسه وضعفه على المسلمين وذاك فجوره على نفسه وقوته للمسلمين ، واختار الأقدر .

والخامسة : أن الدعوة بالقدوة قبل الدعوة بالخطبة ، فالناس تقرأ دعوتك فيما تفعل لا فيما تقول .

فإن كان ذلك فلعل ولاة الأمور من الجانب المقابل يتعاملون مع الإسلام بأجهزة الأمان لا بأجهزة الأمن ، والذين صنعوا السلام من غير المسلمين لن يعجزهم أن يصنعوه مع المسلمين .

(٢) أسفرت حقبة ما بعد الحرب العالمية الأخيرة إلى قسم العالم لدول متقدمة ودول متخلفة وما لبثت اللباقة السياسية العامة إن لم نقل التمويه السياسى إلى إطلاق لقب الدول النامية على الدول المتخلفة ، والتعبير فى حد ذاته مهذب فهو لا يجرح الشعور ولا يسىء الأدب ، وإن كان عند الذين أطلقوه لا يغير واقعاً ولا يدل على معنى جديد ، وهو فيما أراه ضرب من اللعب على أوتار سذاجتنا ، وإيهام لنا معشر الدول النامية بأننا فعلا على طريق التقدم وأننا بالغوه عما قريب أو بعيد .

والحق أن تعبير (الدول النامية) اكذوبة كبرى ، فالتقدم شيء نسبي لا يكفي انك تتقدم فى اتجاه ما بسرعة ميل فى الساعة لكى تدعى لنفسك أو لغيرك أنك تتقدم لانه إذا كان غيرك فى نفس الوقت يتقدم فى ذات الاتجاه بسرعة مائة ميل فى الساعة فاذا أسعدنا الحظ بساعة صفاء فى البصيرة والبصر وتجردنا عما يحتوينا من آفاقنا الذاتية القريبة واستطعنا أن نخرج من نطاق أنفسنا فننظر إلى المجتمع الانسانى العام ، فسيهون لنا أن نبصر بوضوح وجلاء . إننا لا نتأخر فحسب ولكن أن نتبين ان التاريخ الانسانى منذ بدايته لم يشهد فترة تزداد فيها الهوة بين المتقدمين والمتخلفين اتساعا بسرعة أكبر من سرعة ذلك فى عصرنا الحاضر ولا أحسب أن مشروعات السنوات الخمس أو العشر أو الخمسين بنافعتنا إن كانت آمالنا كالجزرة يعلقونها على عصا ممدودة من رقابنا تغذ السير للوصول إليها وهى فى الحاضر وفى المقبل قريبة من الرؤية بعيدة على المنال كسراب بقيعة .

ولا أظن استثمارات دولنا الغنية بشافعة لها فى تأمين مستقبل الجيل الحاضر أو الاجيال المقبلة ما دامت الهوة بيننا وبين المتقدمين تزداد اتساعا فليس فى المستقبل إلا ان قبضاتهم على مقدراتنا ستزيد إحكاما وحبالهم حول رقابنا ستزيد خناقا ، انه العلم وفى يقينى انه (السلطان) الذى ورد فى التعبير القرآنى :

«يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان »

والعلم هبة الله ونعمته على الإنسان ويتجلى ذلك فى أول ما نزل من القرآن (اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)

والعلم جائزة من سعى له وجعل طلبه فريضة وطلبه ولو بالصين وسخر له

أعينا تبصر وآذانا تسمع وأفئدة تتفكر ، وهذه سنة الله لا تحويل لها ، كان المسلمون كذلك ردحا من الزمن فحملوا شعلة العلم وكانوا السادة القادة ثم قصروا عن ذلك وقام به غيرهم فلم تتبدل سنة الله .

ليس لنا أمل فى الحاضر ولا فى المستقبل إلا إذا كان استثمارنا الأول والأكبر هو العلم والتعليم ، له الأفضلية على ما سواه سواء أكان حماية النظام أم إقامة العمران . الاستثمار فى التعليم واجب عام ينبغى أن تصب فيه والثروة العربية داخل حدودها وخارج حدودها، وهو أمر مكلف جداً ولكنه أمر المصير، وإلا فستغرق السفينة وسيهلك ركاب الدرجة الأولى وركاب الدرجة الثالثة على السواء

(٣)إن قضية منع الحمل وتقليص زيادة البشر مسألة طبية فى أقلها سياسية فى معظمها سياسية على النطاق العالمى وعلى النطاقات الإقليمية ، فاما المسألة العالمية فتنادى بأن سكان العالم سيتجاوزون عما قريب ما يمكن أن تنتجه الأرض من غذاء ولباس وسكن وطاقة ، وهى نظرية موضع نظر إذ تحداها أخيراً (براون ومارتل) فى كتابهما (السنوات المائتان المقبلة) وتحدثا عن الخط طويل الأمد للتكاثر البشرى وعن التعاون بين القادرين والمحرومين وعن الكوامن الهائلة من الرزق والطاقة فى الفضاء الخارجى وباطن الأرض وعلى ظهرها وفى أعماق المحيطات .

وأما على صعيد القطر أو الاقليم فقد بات جلياً أن للموضوع أبعاداً سياسية خاصة ولنضرب على ذلك مثلا بدولة اسرائيل فان معدل الانجاب للسكان العرب فيها يفوق كثيراً معدل إنجاب اليهود ومعنى ذلك أن تمضى أجيال متعددة فاذا اليهود أقلية ضئيلة والعرب أكثرية كاثرة وليست اسرائيل المثال الوحيد فكم من مجتمعات فى عالمنا الواسع تحاول الأقلية فيها أن تصبح أغلبية بالترويج للاستعمال من جانب واحد فقط لوسائل منع

الحل والنعيم والإجهاض وتسخير الإعلام الحكومى والطبى والعلمى والاقتصادى لنشرها فى عملية غسل مخ لفريق مع التنبيه على فريق آخر سراً لعدم اللجوء إليها أو الأخذ بها ، ولقد كنت مرة فى زيارة عملية لإحدى البلاد الأفريقية المبتلاة بداء العصبيات المتنافسة وعند اطلاعى على سجل عمليات تعقيم النساء وجدت بجلاء أن كل النساء المعقمات كن من جانب بينما خلا السجل تماماً من نساء الجانب الآخر، لقد آن الأوان التى ينبغى أن يصحوا الأطباء إلى أن الممارسة الطبية لا تنحصر آثارها فى المحيط الطبى وحده وإذا كانت سعة الأفق دائماً وشمول النظرة من مميزات الطبيب الماهر منذ أقدم العصور فلعلها فى هذا العالم المعقد المتشابك أولى وألزم .

(٤) إننى طبيب مسلم والطب أصوله وفروعه وكلياته ووقائعه وللإسلام أوامره ونواهيه وقواعده التى يعرف الناس بها الحلال والحرام ومسألة الإجهاض من المسائل التى تجابهنى كل يوم خلال عملى طبيباً لأمراض النساء والولادة وتجابه غيرى من الأطباء ويؤود الطبيب وهو يتحدى ما يعمل . أن مسألة الإجهاض فى الزمن الأخير لم تعد مسألة طبية فى أيدى الأطباء فقد نازعهم عليها وانتزعها منهم أهل التشريع وأهل الإجتماع وأهل الدراسات السكانية والإقتصادية وأهل المذاهب المعاصرة فى فكر وخلق وسلوك وهذه التى غيرت معالم العالم فى الزمن الأخير تغييراً شاملا ، لسنا بمعزل عنه ، ولا نستطيع أن نكون .

إن حرمة الحياة مقررة فى الإسلام كما هو معروف وينسحب هذا على الجنين إلا أن بعض السلف الأقدمين من الفقهاء قسموا حياة الجنين قسمين يفصل بينهما بدء شعور السيدة بحركة الجنين فى بطنها .

وقد استقر علمياً أن الجنين منذ بدايته بيضة ملحقة تشرع فى الانقسام والتكاثر فإنه كائن حى ينمو ويتطور بصورة متصلة ناعمة دائمة مستمرة دون

أن يوجد خط فاصل له قبل وله بعد يتيحان الأخذ بما اجتهد به الأقدمون، العلة إذن تغيرت فلا بد أن يتغير الحكم وعلى ما أفضى إليه التقدم العلمى بتأسيس حرمة حياة الجنين فى كافة أدوارها . وهذا الرأى الحديث الذى وصل إليه العلم بالملاحظة المباشرة وصل إليه فريق من الفقهاء القدامى عن طريق المنطق والاستدلال فقالوا أن الجنين حتى قبل أن تنفخ الروح فيه حياة محترمة هى حياة النمو والإعداد فلا يجوز إسقاطه ومن هؤلاء الإمام الغزالى .

المسألة الأخرى هى أن الفقهاء — وأقول أيضاً الأطباء ، قد أجمعوا على أن السيدة إن كانت مصابة بما يجعل استمرار الحمل خطراً على حياتها ضحى بالحمل استيفاء لما هى الأصل والجنين هو الفرع، على أن الأعذار الأخرى التى وردت فى السابق لتبرير الإجهاض (كأن يكون لبن الأم ضعيفاً أو الزوج فقيراً عن أن يستأجر المرضع أو أن تخشى الأم أن تحمل أثناء الرضاع فيرضع وليدها لبن الغيل أى لبنها وهى حامل ، فهذه أسباب زالت ظروفها فى زمننا هذا الذى تهيأت فيه وسائل منع الحمل وتهيأ اللبن الصناعى للإرضاع ومستحضرات المقويات والفيتامينات للمرأة حاملا أو مرضعاً .

والحق أن الشريعة الإسلامية لم تقتصر على التدليل على حرمة الجنين وصيانة حقه وحسبنا فى هذا :

أولا : إذا توفى رجل عن زوجة حامل فإنه لايجوز التصرف فى تركته قبل أن يرصد نصيب الجنين حتى يولد وعلى الورثة أن يتعهدوا إن وضعت الزوجة أكثر من جنين أن يردوا ماأخذوه من نصيب الجنين الثانى أو من زاد على ذلك إن وضعت أكثر .

ثانياً : إذا أجهضت المرأة جنيناً فى أى دور وبدا على الجنين أى أمارة من أمارات الحياة بعطاسه أو سعاله أو تحريك أصبع فإن هذا الجنين يرث أبا من

مورثيه الشرعيين مات بعد بدء الحمل ، ثم إذا مات هذا الجنين آلت تركته لورثته الشرعيين.

ثالثاً : إذا حكم على امرأة بالإعدام وكانت حاملا يؤجل تنفيذ الحكم حتى تضع وليدها وفى رأى آخر حتى تتم رضاعه . وقد أجل النبى ﷺ رجم الزانية الحامل، مما يدل على أن الحمل السفاح لا يبرر الإجهاز على حياة الجنين.

رابعاً: شرع الإسلام عقوبة مالية على إحداث الإجهاض ، اسمها (الغرة) إن نزل الجنين ميتاً أو نزل قبل تمام الشهر الرابع والغرة دية البالغ فإذا نزل بعد الشهر الرابع حياً كانت الغرامة دية كاملة وتدفع لورثة الجنين الشرعيين وبديهى أن كل هذه الحقوق حقوق فردية، تالية للحق الأصلى وهو حق الحياة ، وهو الذى يجب أن نصونه للجنين ، باسم الطب وباسم الخلق وباسم الله.

الفصل الثانى والعشرون

الاسلام عقيدة المستقبل

(الدكتور المهدى بن عبود)

عقيدة المستقبل : تتضمن انتصار الحق على الباطل وإن انتصر الباطل فى أولى جولاته مع الحق ، والإيمان هو الضمانة العليا لنصرة الحق على الباطل، نجد اليوم اعتراف بأن الاسلام هو العقيدة التى يمكن أن تسعد الإنسان وتشفيه من أمراضه وتشفى غليله ولم يجدوا عقيدة وحيدة على وجه الأرض تحل محله أو تمثل مكانته ، كثيراً من أصحاب المذاهب الغربية ماتوا حنق لعدم وجود التكامل بين أقطارهم واحتياجات أرواحهم وأجسامهم أو طغيان إحداها على الأخرى .

يظن بعض الناس ان التاريخ مستهل الحركة تلقائى الأحداث يقود نفسه بنفسه بمعزل عن قضاء الله وقدره وماهذا الحكم إلا نتيجة لوقت الغفلة عند العقول الناقصة الرشد القلوب التى عليها أقفالها بحسب تعبير القرآن الكريم .

إنها حلقات متتالية ، ولبنات إضافية تنضم إلى عقد الأحداث فى حركة مقدرة هى انتقال الحضارة من مكان وهو الغرب إلى مكان آخر وهو الشرق مهد الرسالات والحضارات .

لقد استمر وجه التاريخ فى العالم بأسره فى التغير بعد ما استفحل طغيان المادة والجاه واستعلاء ثروات الأمم الصغيرة والضعيفة خصوصاً بعد ما انتشر فسوق المترفين وعبادة العجل الذهبى وتعدى حدود الله بتشويه الاعلام وإشاعة

الأكاذيب والافتراءات على الله وعلى الأبرياء من خلقه وتحريف المعارف وقلب الحقائق وضياع مربو العلم الإنساني الرباني الذى كان ينير السبيل إلى سعادة الدارين وأصبحنا نشاهد بأسف ومضض ان شموخ الحضارة الغربية اقترن بالتدهور والأفول فاندهشت الانسانية لما صارت إليه الأشياء حتى أصبح أرقى الناس أشقاهم . كان ذلك ناتج عن تناقض فى السلوك إذ تقدمت الآلات التكنولوجية وتأخرت النفوس البشرية وامتلأت الجيوب والمعارف وباتت القلوب فارغة من نور الحق ، تائهة فى ظلمات الوجود المنحرف أخذوا يتساءلون لا عن إمكان انهيار الحضارة الغربية الذى أصبح أمراً لا يجادل فيه أحد أبداً ولكن عن انتقال الحضارة فى المستقبل إما إلى الصين أو إلى الأمة الإسلامية كما يرجح كثير من المفكرين الغربيين .

ومفتاح الرسالة الحضارية المقبلة هو فى رفع هذا التناقض الذى تتخبط البشر فى كلمات بحر اللجى، حيث ضاع الأمن والطمانينة وتكاثر الفتن والأزمات والحروب والاعتقالات والانحلالات الجنسية .

والشرط الأساسى فى تحمل الرسالة المتجددة على رأس كل مائة سنة ، بحيث يفيد الحديث الشريف هو قيام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه لأداء الأمانة وتبليغ دعوة الحق علماً وعملا، بجمع شمل شتات مقومات الانسان الأربعة فى وقت واحد :

وهى الجسم فى مجال الاقتصاد

والنفس فى مجال السلوك

والعقل فى مجال التفكير

والروح فى مجال الإيمان

والأمة الإسلامية لا ينتظر منها تلبية الحاجات المعيشية ولكن الرسالة الاسلامية ستوجه النفوس الضائعة إلى ذويها ، والقلوب الحائرة إلى طمأنينتها والأرواح

إلى حياتها المشرقة فينضم الازدهار المادى إلى الازدهار المعنوى وتجمع شمل الإنسان وتشتت الحياة برجوع الناس وخصوصاً أهل الكتاب إلى كلمة سواء بيننا وبينهم .

المعنويات باقية والماديات فانية والإسلام يجمع بين الوقت والخلود ، ولا يمكن أن نتصور رسالة أخرى يتقبلها البشر بصدر رحب إلا الإسلام الحنيف لأنه مبنى على العلم الربانى الذى هو على صراط مستقيم .

الشرط الثانى : إيمان صاحب الرسالة برسالتهم التى تحضهم على الطهارة النفسية فى الوسائل والغايات على السواء فلا يبحث إلا عن الحق ولا يناضل إلا من أجله ولانقول إلا الحق ولايحرف الكلم عن مواضعه مثلما يفعل المغضوب عليهم وتكون مقومات الحياة من مال وإعلام وأدب وفنون وترفيه وتسلية قائمة على الحق والعلم والذوق السليم فى الكتاب والمجلة والصحيفة .

إن جميع تعاليم الإسلام وهديه وسلوكه فى كلمة واحدة هى الجهاد فى سبيل الحق لا تأخذ المؤمن فيه لومة لائم.

(٢) إن شدة ولوع المسلمين بالفلسفة للحياة ونظمها التى وضعها عباد الآلهة العصرية من القومية والاشتراكية واللادينية يرجع إلى أن المسلمين قد تنكروا لنظرية الحياة الإسلامية وعادوا ينساقون وراء الأفكار الهدامة والنظم الفاسدة وقد انتهى بهم الأمر أن أصبحوا مهددين بالسيل الجارف من الشيوعية الكافرة والمؤامرات التى تنسج خيوطها الإرساليات المسيحية واليهودية العالمية ،وهناك مؤامرة ثالثة هى القاديانية ، والعالم الإسلامى محاط اليوم بثلاث مخاطر جسيمة تهدف إلى توهين وتفكيك عراه وتمزيق صفوفه وتنكيس رسالة الإسلام واليوم تتكتل المسيحية مع اليهودية وتشكل خطراً مزدوجا ضد الإسلام والمسلمين والبعثات المسيحية لاتترك وسيلةمن وسائل الخداع والمكروالأطماع والتخويف على الإسلام (المستشفيات والمدارس والمكتبات) إلا اصطنعتها إنهم فى المستشفيات يعطونه الشراب الأحمر وينصحونه أن يشربه باسم رسوله

الذى يؤمن به ولكن هذا الشراب لا يعدو أن يكون ماء لونه أحمر ، ولما لم يشف المريض من تناول هذا الشراب يعطونه الشراب الخالص ويقولون أنه يشرب باسم المسيح ، وهكذا يقنعون المريض بأنه لم ينل الصحة باسم رسوله بينما المسيح قد أسبغ عليه ثوب العافية .

والرأسمالية والماركسية كلاهما من منبع واحد ، والاقتصاد معبود اليوم وعجله الذهبى والبنوك مساجده وأجهزة الوعظ والإرشاد هى مايسمى بالإشهار.

إن اسم تروتسكى واسم روتشلد (أقصى اليمين وأقصى اليسار) يمثلان تموجات العقلية اليهودية، وبين هذين المعلمين تتضمن الجماعة كلها فى القرن العشرين والحضارة كلها فى القرن العشرين ، التيار الرأسمالى والتيار الماركسى كلاهما من منبع واحد بشهادة أصحابها ، التيار الرأسمالى والتيار الشيوعى أبوهما التيار الصهيونى والتيار الرابع (الإسلام) هو التيار الإسمى رغم تمزق رقعته ورغم ضعفه المؤقت. أرق الناس ماديا أشقاهم معنويا بكثرة الانتحار وتعاطى المخدرات لإطفاء لهب الحق المنادى فى قلوب البشر والفسق والفجور ، لم يعبد العجل الذهبى فى أى زمن من الأزمان مثلما يعبد اليوم ، فأصبح الإقتصاد أو العجل الذهبى هو إله العصر .

الخطط السياسية والإقتصادية، من ماركسية وصهيونية ورأسمالية أو التيارات الفلسفية مهما كان شعارها ليست بالمعنى الصحيح العميق، لا عقائد ولا مذاهب شاملة او بحسب التعبير الحديث (الأيدلوجية) ظهر للعيان بأنها خالية من الضمانات وأنها تدابير مؤقتة بعيدة كل البعد عن إرضاء النفس البشرية، والاستجابة لداعى الحق فى الميادين الجسمانية والنفسية والروحية ، وأخذ يتجلى للباحثين أن الإنسانية ما فتئت تبحث عن نظام او مذهب او ايدلوجية او عقيدة جامعة مانعة تتصف بالشمول لتوحيد البشرية وإسعادها . وهو الإسلام :

(١) وحدة النفس البشرية فى سياسة دولية تحترم الكرامة الانسانية عن طريق النزاهة والإخلاص والعمل لله .

(٢) الحكم بما أنزل الله . إن أجنحة البشر تحتاج إلى قوة إلهية فوق طاقتها هي الوحي (إن أكرمكم عند الله أتقاكم). العلم : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) .شرط الدعوة ضرب المثل بتكوين دولة إسلامية دستورها القرآن وهدى الرسول .

(٣) العمل لوجه الله على منهاج التجرد .

(٤)الاستنارة بسيرة الرسول سواء فى ميدان الاستراتيجية أو ميدان التطبيق

الأمة الاسلامية هى الأمة الوحيدة التى يمكن أن تطلق على نفسها بحق وبدون مكابرة أنها أمة ذات رسالة كان الله سبحانه قدر ظهورها من جديد لمعارضة الباطل فى المذاهب العلمانية والصهيونية .

إن شعور البشرية الآن يتركز فى نظام يوحد البشرية تحت ظل التوحيد وأنه لحق اليقين ولتعلمن نبأه بعد حين .

(٥) كلما فرغ القلب من الإيمان القوى ملأه الشيطان بخداع الغاوين .
(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين)

لقد جاءت الرسالة المحمدية فهى الصالحة لتعديل المقلوب من الحقائق والأوضاع على الأسس الثابتة التى منها :

(١) معرفة السنن الفطرية والقوانين من إيمان وعقل وذوق وسلوك متدرج فى سلم الرقى أحوالا ومقامات وازدهاراً .

(٢) إسناد الأمر إلى أهله الحقيقيين أى أصحاب المعرفة حتى ينتشر النور والعدل ويندحر الظلام والظلم وهى أشياء من عنصر واحد .

(٣) الطمأنينة المتصلبة فى النفس قصد توطيد الاستقرار داخل النفوس بفضل العلم الربانى التى قال عنه مفكرو الغرب أنه ضرورى لاستيعاب العدالة الاجتماعية

المستحيلة التركيز والاستمرار ما لم يصاحبها فى كل وقت محاسبة النفس ومراقبة الضمير وهذا معنى التقوى .

(٤) الشمول المعنوى والمادى بالغوص على حقائق الوجود الظاهر والباطن حساً ومعنى وذوقا وعقــلا وفكراً دنيوياً وأخروياً للتمكين فى الأرض بالاستخلاف والقرب من الحق المطلق تعالى باجتناب القواطع والمنبهات والقيام بالأوامر والعمل بما يقرب ويعلى ويشرح الصدور .

لهذا كان جلياً أن القيـادة العالمية لا يتصور إمكانها عقلا إلا لمن توفرت فيه شروط الاصطفاء والشمول والعالمية والعلم كتابا وحكمة والكمال على سدرة المنتهى والعصمة من الخطأ والجمع بين العرفان الإلهى والحكمة الجامعة والتشريع المفصل وتدبير الظاهر والباطن والسلم والحرب والكليات والجزئيات تحت لواء الحق لنصرة الحق بالحق والهداية إلى صراط مستقيم .

وبما أن صحة الكتب السماوية مشكوك فيها قاطبة إلا القرآن الكريم ، وبما أن الشريعة الموسوية والطريقة أو المحبة العيسوية اكتملت وتمت داخل الحقيقة المحمدية أو المعرفة المحمدية وبمـا أن سائر الحقائق العليا عبر التاريخ التى اندرجت فى سلك دين الله بعبارة (إن الدين عند الله الإسلام) وبمـا أن صلاح الدنيا والدين المنشود تحقيقه فى الدنيا قد تحقق فى الشخصية المحمدية . والمنهاج المحمدى بحثاً عن الحق وخضوعاً له بحسب المعنى الدقيق لكلمة الاسلام فإن القيادة العالمية المنتظر انتشارها كلها ستكون الاسلام ولا يمكن أن تكون عقلا ولا نقلا إلا الإسلام ففيه وحدة الحق ووحدة العقل ووحدة الروح ووحدة النفس ووحدة المعنى ووحدة القيم البشرية ووحدة الحرية ووحدة المسئولية ووحدة الانسانية ووحدة الدين ووحدة الرسالات ووحدة الغاية الإنسانية ووحدة المصير ووحدة الشريعة والطريقة والحقيقة للناس كافة ولذلك سمى دين التوحيد الذى سيوحد البشر إن شاء الله .

الفصل الثالث والعشرون

الإستشراق وتراثنا الإسلامي

(الدكتور مصطفى السباعي)

لما هاجمت الجيوش الصليبية بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين:

(الأول): دافع الدين والعصبية العمياء التي أثارها رجال الكنيسة في شعوب أوربا مفترين على المسلمين أبشع الإفتراءات محرضين النصارى أشد تحريض على تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار (أي المسلمين) فكان جمهرة المقاتلين من جيوش الصليبيين من هؤلاء الذين أخرجتهم العصبية الدينية من ديارهم عن حسن نية وقوة عقيدة، إلى حيث يلاقون الموت والقتل والتشريد حملة بعد حملة، وجيشاً بعد جيش.

(الثاني): دافع سياسي استعماري فقد سمع ملوك أوربا بما تتمتع به بلاد الإسلام وخاصة بلاد الشام وما حولها من طمأنينة ومدنية وحضارة لا عهد لهم بمثلها كما سمعوا الشيء الكثير عن ثرواتها ومصانعها وأراضيها الخصبة الجميلة فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم في الحق إلا الرغبة في الإستعمار والفتح والاستئثار بخيرات المسلمين وثرواتهم، وشاء الله أن ترتد هذه الحملات الصليبية كلها مدحورة مهزومة، بعد حروب دامت مائتي سنة كاملة، وأن يقضى على الإمارات التي استولوا عليها وأن ترجع هذه الحملات إلى ديارها تحمل في قلوبها الحسرة وفي جباهها الهزيمة، ولكنها في الواقع كانت تحمل في عقولها شيئاً من نور الإسلام وفي أيديها ثمار الحضارة التي كانت بلادهم محرومة منها وقد رأوا بعد الإخفاق في الإستيلاء عليها عسكريا أن يتجهوا إلى دراسة شئونها وعقائدها

تمهيداً لغزوها ثقافياً وفكريا ومن هنا كانت النواة الأولى لجمعيات المستشرقين التى ما زالت تواصل عملها حتى اليوم والتى كانت حتى عهد قريب تتألف من رجال الدين المسيحى واليهودى الذين هم -ولا شك- أشد الناس كرهاً للإسلام وتعصباً عليه ، وتتسم بحوث هؤلاء بالظواهر الآتية :

(١) سوء الظن والفهم لكل ما يتصل بالإسلام فى أهدافه ومقاصده

(٢) سوء الظن برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم .

(٣) تصوير المجتمع الإسلامى فى مختلف العصور وخاصة فى العصر الأول بمجتمع متفكك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه .

(٤) تصوير الحضارة الإسلامية تصويراً دون الواقع بكثير تهويناً لشأنها واحتقاراً لآثارها .

(٥) الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامى على حقيقته والحكم عليه من خلال ما يعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم .

(٦) إخضاع النصوص للفكرة ، التى يفرضونها حسب أهوائهم والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص .

(٧) تحريفهم للنصوص فى كثير من الأحيان، تحريفاً مقصوداً وإساءتهم فهم العبارات حتى يجدون مجالا للتحريف

(٨) تحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به فى تاريخ الحديث ومن كتب التاريخ ما يحكمون به فى تاريخ الفقه ويصححون ما ينقله (الدميرى) فى كتاب الحيوان ويكذبون ما يرويه (مالك) فى الموطأ : كل ذلك انسياقا مع الهوى وانحرافا عن الحق .

بهذه الروح التى أوضحنا خصائصها بحثوا فى كل ما يتصل بالإسلام والمسلمين من تاريخ وتفسير وحديث وأدب وحضارة وقد أتاح لهم تشجيع حكوماتهم ووفرة المصادر بين أيديهم

وتفرغهم للدراسة واختصاص كل واحد منهم بفن أو ناحية من نواحي ذلك الفن ساعدهم على أن يصبغوا بحوثهم بصبغة علمية وان يحيطوا بثروة من الكتب والنصوص مالم يحط به كثير من علمائنا اليوم وكان من أثر ذلك أن أصبحت كتبهم وبحوثهم مرجعاً للمثقفين منا ثقافة غربية والملمين بلغات أجنبية ، وقد خدع أكثر هؤلاء المثقفين ببحوثهم ، واعتقدوا بقدرتهم العلمية، وجروا وراء آرائهم ينقلونها كما هى ، ومنهم من يفاخر بأخذها عنهم ومنهم من يلبسها ثوبا إسلامياً جديداً وقد رأيت من صنيع الأستاذ أحمد أمين فى(فجر الإسلام)مثلا لتلامذة مدرسة المستشرقين من المسلمين .

وفى مجال السنة أثار المستشرقين شبهاً خطيرة تأثر بها كثير من الكتاب المسلمين ولعل أشد المستشرقين خطراً وأوسعهم باعا وأكثرهم خبثاً وإفساداً فى هذا الميدان هو المستشرق اليهودى المجرى (جولد سيهر) وقد نقل من آرائه أحمد أمين فى (فجر الإسلام) وضحاه . كما نقل الدكتور على حسن عبد القادر فى كتابه (نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى) .

وعندما زرت أكثر جامعات أوروبا عام ١٩٥٦ واتصلت بهم ازددت إيمانا واقتناعا بخطرهم على تراثنا الإسلامى كله سواء كان تشريعياً أو حضاريا ، لما يملأ نفوسهم من عصبية تأكل قلوبهم حقداً ضد الإسلام والعرب والمسلمين .

ولما قابلت البروفسور أندرسون رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها فى العالم الإسلامى فى معهد الدراسات الشرقية فى جامعة لندن وقد حدثنى أنه أسقط أحد المتخرجين فى الأزهر الذين أرادوا نيل شهادة الدكتوراة فى التشريع الإسلامى من جامعة لندن لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن (حقوق المرأة فى الإسلام) وقد برهن فيها على أن الاسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة ، فعجبت من ذلك وسألت ذلك المستشرق كيف أسقطته ومنعته من نيل الدكتوراه لهذا السبب وأنتم تدعون حرية الفكر فى جامعاتكم فقال : لأنه كان

يقول : الإسلام يمنح المرأة كذا ، الإسلام قرر للمرأة كذا. فهل هو ناطق رسمى باسم الإسلام ، هل هو أبو حنيفة أو الشافعى ، إن آراءه فى حقوق المرأة لم يغفل عنها فقهاء الإسلام الأقدمون .

ولما زرت جامعة (أدنبره) اسكتلاندا - كان المستشرق الذى يرأس الدراسات الاسلامية فيها قسيساً بلباس مدنى وكان قد وضع لقبه الدينى مع اسمه على باب بيته .

وفى جامعة اكسفورد وجدنا رئيس قسم الدراسات الإسلامية العربية يهوديا يتكلم العربية ببطء وصعوبة وكان أيضاً يعمل فى دائرة الاستخبارات البريطانية فى ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية ومن عجيب أنى رأيت فى منهاج دراساته التى يلقيها على طلاب الاستشراق : تفسير آيات من القرآن الكريم للزمخشرى أى والله وهو لا يحسن فهم عبارة بسيطة فى جريدة عادية ودراسة أحاديث من البخارى ومسلم وأبواب من الفقه من أمهات كتب الحنفية والحنابلة وسألته عن مراجع هذه الدراسات فأخبرنى أنها من كتب المستشرقين أمثال : جولدتسيهر ومرجليوث وشاخت وحسبك بهؤلاء عنواناً على الدراسات المدخولة المدسوسة الموجهة ضد الاسلام والمسلمين .

اما فى جامعة كمبردج فكانت رئاسة قسم الدراسات العربية والاسلامية للمستشرق المعروف (اربرى) واختصاصه فى اللغة العربية فحسب .

وقد قال لى : إننا نحن المستشرقون نقع فى أخطاء كثيرة فى بحوثنا عن الاسلام ، ومن الواجب ألا نخوض فى هذا الميدان لأنكم - أنتم المسلمين العرب - أقدر منا فى هذا على الخوض فى هذه الأبحاث .

وفى مانشستر (انكلترا) اجتمعت بالبروفسور (روبسون) وكان يقابل سنن أبى داود على نسخة مخطوطة وله كتابات فى تاريخ الحديث يتفق منها

غالباً مع آراء المستشرقين المتحاملين، وقد حرصت على أن أبين له أن الدراسات الاستشراقية السابقة فيها تحامل وبعد عن الحقيقة. وتعرضت لآراء جولد تسيهر وأثبت له أخطاءه التاريخية والعلمية فكان مما أجاب به عنه :

لا شك أن المستشرقين فى هذا العصر أكثر إطلاعاً على المصادر الإسلامية من جولد تسيهر نظراً لما طبع ونشر وعرف من مؤلفات إسلامية كانت غير معلومة فى عصر جولد تسيهر . فقلت له : أرجو أن تكون أبحاثكم — المستشرقين — فى هذا العصر أقرب إلى الحق والإنصاف من جولد زيهر ومرجليوث وأمثالهما.

وفى جامعة (ليدن) بهولندا اجتمعت بالمستشرق اليهودى (شاخت) وهو الذى يحمل فى عصرنا هذا رسالة (جولد تسيهر) فى الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه ، وباحثته طويلا فى أخطاء جولد تسيهر وتعمده تحريف النصوص التى ينقلها من كتبنا فأنكر فى أول الأمر ، فضربت له مثلا واحداً مما كتبه جولد تسيهر فى تاريخ السنة ، وكيف حرف قول الزهرى (إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) إلى لفظ (على كتابة أحاديث) فاستغرب ذلك ثم راجع كتاب زيهر فقال : معك الحق إن جولد زيهر أخطأ هنا ، فقلت له: هل هو مجرد خطأ، فاحتد وقال : لماذا تسيئون به الظن، فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهرى من عبد الملك بن مروان وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفى مازعمه جولدزيهر ، وبعد مناقشة فى هذا الموضوع ؟

قال وهذا خطأ أيضاً من جولد تسيهر ، ألا يخطىء العلماء ؟ قلت له : إن جولد زيهر هو مؤسس المدرسة الإستشراقية التى تبنى حكمها فى التشريع الإسلامى على وقائع التاريخ نفسه ، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهرى وكيف جاز له أن يحكم على الزهرى بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير، وهنا اصفر وجه شاخت واخذ يفرك

يداً بيد وبدا عليه الغيظ والاضطراب فأنهيت الحديث معه بأن قلت له لقد كانت مثل هذه (الأخطاء) كما تسميها أنت تشتهر فى القرن الماضى ويتناقلها مستشرق منكم عن آخر على أنها حقائق علمية قبل أن نقرأ — نحن المسلمين — تلك المؤلفات إلا بعدموت مؤلفيها، أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على (أخطائكم) لتصححوها فى حياتكم قبل أن يتقرر كحقائق علمية.

ومن الملاحظ أن هذا المستشرق كان يدرس فى جامعة القاهرة وله مؤلف فى التشريع الإسلامى كله دس وتحريف على أسلوب شيخه جولد تسيهر.

وقد أتيح لى خلال تلك الرحلة أن أواصل زيارة الجامعات عندما ذكرته منها فى عواصم كل من السويد وبلجيكا والدنمرك والنرويج وفنلندا وألمانيا وسويسره وباريس واجتمعت بمن كان موجوداً حينئذ من المستشرقين فيها.

ومما ذكرته آنفاً ومما دونته فى مذكراتى عن المستشرقين الذين لقيتهم فى تلك الرحلة اتضحت لى الحقائق الآتية:

(أولا): إن المستشرقين — فى جمهورهم — لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً، وقد يشذ عن ذلك أفراد.

(ثانياً): إن الاستشراق فى الدول الغربية غير الاستعمارية — كالدول السكندنافية — أضعف منه عن الدول الاستعمارية.

(ثالثاً): إن المستشرقين المعاصرين فى الدول غير الاستعمارية يتخلون عن جولد تسيهر وآرائه بعد أن انكشفت أهدافه الخبيثة.

(رابعاً): إن الاستشراق بصورة عامة ينبعث من الكنيسة، وفى الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب يلقى منها كل تأييد.

(خامساً): إن الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا لاتزال حريصة على

توجيه الاستشراق وجهته التقليدية من كونه أداة هدم للإسلام وتشويه لسمعة المسلمين .

ففي فرنسا لا يزال (بلاشير) و (ماسنيون) وهما شيخا المستشرقين الفرنسيين فى وقتنا الحاضر يعملان فى وزاوة الخارجية الفرنسية كخبيرين فى شئون العرب والمسلمين .

وفى انجلترا يحرصون على أن نظل مؤلفات جولد تسيهر ومرجليوث وشاخت من بعدهما هى المراجع الأصلية لطلاب الاستشراق من الغربيين وللراغبين فى حمل شهادة الدكتوراه عندهم من العرب والمسلمين وهم لا يوافقونه أبداً على رسالة لطلب الدكتوراه يكون موضوعها إنصاف الإسلام وكشف دسائس أولئك المستشرقين .

وقد حاول الدكتور أمين المصرى أن يكتب رسالته فى نقد كتاب شاخت المحمل بالشبهات حول الشريعة الإسلامية . وتقدم إلى البروفسور اندرسون بذلك فرفضوا ، ولما يئس من جامعة لندن ذهب إلى كمبردج ، فرفضوا أيضاً وقالوا له بصريح العبارة : إذا أردت أن تنجح فى الدكتوراه فتجنب انتقاد شاخت فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك .

ومن المؤلم أن طلبة العالم الإسلامى الذين يدرسون فى الجامعات الغربية لا يجدون أمامهم مراجع لدراساتهم التى ينالون بها الدكتوراه غير تلك المراجع المسمومة ، وقد تقرر عندهم أن تلك الدسائس حقيقة مأخوذة من كتب الفقهاء والعلماء المسلمين أنفسهم . وقد خدع ببحوث الاستشراق أحمد أمين وعلى حسن عبد القادر ومحمود أبو رية .

إن القوة المادية والعلمية التى وصل إليها الغربيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أرجئت فى نفوس علمائهم ومؤرخيهم وكتابهم قدراً

كبيراً من الغرور حتى اعتقدوا أن الغربيين أهل جميع الحضارات فى التاريخ - ما عدا المصرية - وأن العقلية الغربية هى العقلية الدقيقة التأمل التى تستطيع أن تفكر تفكيراً منطقياً سليما ، أما غيرهم من الشعوب - وخاصة الإسلامية - فإن عقليتهم بسيطة ساذجة أو بالأصح (ذرية) كما عبر عنها المستشرق جب .

ويقصد بذلك أن العقلية الإسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزئيات ولا تدركها إدراكاً كلياً .

ولقد كان من نتيجة دأب علمائهم المتصل والرغبة الاستعمارية والدينية التى ألحت إليها إن استطاعوا أن ينظموا الحديث عن ثقافتنا تنظيما بهر أبصار مثقفينا واستولى على ألبابهم فاندفعوا إلى الاقتباس من كتب المستشرقين ظانين أنهم لا يقولون إلا الحق ، ولم يتح لهؤلاء المثقفين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلامية التى استقى منها المستشرقون وغيرهم ، إما لصعوبة الرجوع إلى مصادرنا أو للرغبة فى سرعة الإنتاج العلمى .

وكانت فترة طغى فيها الشعور بالنقص والضعف وعدم الثقة بأنفسنا إزاء الباحثين الغربيين وإعظامهم وإكبارهم حتى إذا بدأت حركة الوعى السياسى والاستقلال السياسى عن سيطرة الغربيين بدأ عندنا الشعور بوجوب الاستقلال الفكرى والشعور بشخصيتنا وقيمة حضارتنا وتراثنا فبدأنا نكتشف الحقيقة . وسيأتى فى القريب اليوم الذى يستعمل فيه أبناؤنا وأحفادنا مقاييس النقد التى وضعها هؤلاء الغربيون من عقيدة وعلوم فإذا هى أشد تهافتاً وضعفاً مما يلصقونه اليوم بعقيدتنا وعلومنا .

وبعد فإنى أعتقد انه قد انقضى ذلك العهد الذى كنا نعتمد فيه على مصادر معرفتنا بعلومنا وتاريخنا على هؤلاء الغربيين ، مع إنهم ليست لهم مصادر إلا كتبنا ومدوناتنا ، ولئن كنا بها جاهلين من قبل ، فلقد آن الأوان ان نرفع عن جباهنا خزى الجهالة بمصادرنا وعار الإتكاء فى فهمنا على فهم الغرباء عن لغتنا وصحة الاعتقاد بديننا وعلمائنا على نحو ما يريد منا هؤلاء المستشرقون المتعصبون أن يعتقده فى حق ديننا وعلمائنا من شك وسوء ظن .

١٩٦٠

الفصل الرابع والعشرون

علم الأخلاق القرآنى

(الدكتور محمد عبد الله دراز)

إن نظرة سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام - التى كتبها علماء غربيون - كافية لنلاحظ فيها فراغاً هائلا وعميقاً ، ناشئاً عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآنى . والواقع أن هذه المؤلفات تذكر لنا باختصار أو بإفاضة ، المبادىء الأخلاقية كما ارتأتها الوثنية الأغريقية ، ثم أديان اليهودية والمسيحية ، ولكنها حين تنتهى من عرض هذه المراحل الثلاثة نجدها تنقلنا بغتة إلى العصور الحديثة ، فى أوربا ، مغفلة كل ما يمس الدستور الأخلاقى فى الإسلام .

وبرغم هذا ، فإن الإضافة القرآنية ، فى هذا الباب ذات قيمة لا تقدر ، ولسوف يفيد منها تاريخ النظريات الأخلاقية سعة أو عمقاً ، وتوافقاً ، كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منها ، فى حل مصاعبها ، سواء فى ذلك المصاعب المتجددة والدائمة .

أليست إذن خسارة ضخمة أن يغفل أمر نظرية كهذه ، وأن يلفها الصمت ، والحق أنه لو أننا - بدلا من أن نبحث فى هذه المؤلفات فى علم الأخلاق العام - لجأنا إلى الكتب الأوربية التى تعالج مسائل الإسلام بخاصة ، فسوف نجد أن محاولات قد تمت خلال القرن التاسع عشر ، من أجل استخراج المبادىء الأخلاقية من القرآن ، بيد أن إطار هذه المحاولات ، كان فى الغالب محدوداً كما كان مضمونها بعيداً عن المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية الحقة .

فمن حيث الإطار نجدهم أغفلوا الجانب النظرى من المسألة ، فليس هناك عالم أوربى واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الأخلاقية العامة ، وفضلا

عن ذلك فلم يكن لدى أى من بينهم اهتمام بأن يصوغ قواعده العلمية ، ويقدمها فى صورة دستور كامل ، وإنما انحصرت كل جهودهم فى أن جمعوا عدداً قليلا أو كثيراً ، من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة ، أو بالسلوك وترجموها ترجمة حرفية

ويبدو لنا أن الذى استهل هـذه المجموعة من النصوص المختارة من القرآن كان المستشرق جارسان دى تاسى فقد قدم لنا مؤلفا صغيراً بعنوان : « القرآن: مبادئه وواجباته » باريس ١٨٤٠ وتبعـه المستشرق لوفيفر الذى نشر عام ١٨٥٠ قطعا مختارة من ترجمة سفرى بعنوان (محمد : قوانين أخلاقية ومدنية ودينية) ثم جاء من بعدهما بارتلمى سانت هيلر فى كتابه (محمـد والقرآن) هذا من حيث الإطار الذى سيقت فى داخله بحوث ذلك العهد . أما من حيث عيوب المضمون فرجعها إما إلى ترجمـات غير صحيحة ، وإما إلى تلخيص سىء ، أما إلى الأمرين معاً ، وهو ما نجده واضحا لدى المستشرق جـول لابوم فى كتابه (تحليل آيات القرآن) وهو مع ذلك أقل الأعمال التحليلية فى هذا المجال بعداً عن التمام .

ولذلك بدا لنا من الضرورى أن نتناول الموضوع من جديد ، وأن نعالجه تبعاً لمنهج أكثر سلامة ، من أجل تصحيح هذه الأخطاء ، وملء هذه الفجوة فى المكتبة الأوربية ، وحتى يرى علماء الغرب الوجه الحقيقى للأخلاق القرآنيـة ، وذلكم فى الواقع هو هدفنا الأساسى .

بيد أننا بالرجوع إلى مكتبتنا الإسلامية نفسها ، لاحظنا أنها لم تعرف حتى الآن سوى نوعين من التعاليم الأخلاقية ، فهى إما نصائح عملية ، هدفها تقويم أخلاق الشباب ، حين توحى إليهم الاقتناع بالقيمة العليا للفضيلة ، وأما وصف لطبيعة النفس وملكاتها ، ثم تعريف الفضيلة وتقسيم لهـا ، قريب فى غالب الأمر بحسب النموذج الأفلاطونى أو الأرسطى وكثيراً ماترى المنهجين يتعاقبان فى حكم كاتب واحد .

وإذن فلم يكن هناك سوى كتب إنسانية محضة ، اجهد مؤلفوها أنفسهم فاستودعوهم ثمرات تأملاتهم ودراساتهم الفلسفية ، ولم يظهر فيها النص القرآنى كلية ، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية . فلم تكن (الأخلاق القرآنية) إذن الموضوع الرئيسى للدراسة والتقنين ، لدى المسلمين أو المستشرقين ، لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية ونحسب أن من الواجب أن نضيف بعض التحديد إلى هذا التأكيد المزدوج ، ليصبح أكثر دقة وتخليص من كل لبس أو غموض .

ولسنا ندعى أن بحوثنا فى المجال النظرى تخوض فى أرض لم يرتدها آخر قبلنا ، فإن العلماء المسلمين قد اعملوا قرائحهم منذ عهد مبكر فى هذا الموضوع ، علماء الكلام ، وعلماء الأصول ، فكروا جميعاً فى مقياس الخير والشر (أو بحسب تعبيرهم مسألة الحسن والقبح) وفكر الفقهاء فى شروط المسئولية وفكر الأخلاقيون والصوفية فى فاعلية الجهد وإخلاص النية والقصد ، ولكنا إذا صرفنا النظر عن إن هذه الأفكار قد بقيت متناثرة فى مختلف المذاهب التى تمس الأخلاقية من قريب أو من بعيد) والتى لم تعن دائماً بوجهة النظر الأخلاقية بمفهومها الخاص — فإن النظرة الأخلاقية التى يقدمها هؤلاء تصدر فى جانب كبير منها على الأقل عن روح المذهب الذى ينتهى إليه مؤلفوها ، إن لم تكن من محض نظراتهم الشخصية لأن القرآن لا يرد ذكره فيها إلا بصفة مكملة ، شاهداً أو برهانا على فكرة او اخرى سبق الأخذ بها .

اما فى المجال العملى فمن الحق أن (الغزالى) — كما نعلم — قد حاول فى كتابه (جواهر القرآن) — ان يحلل جوهر القرآن وأن يرده إلى عنصرين اساسيين ، يتصل احدهما بالمعرفة ويتصل الآخر بالسلوك ، وانتهى إلى ان حصر فى القرآن من النوع الأول سبعمائة وثلاثاً وستين آية كما حصر من النوع الثانى سبعمائة وإحدى وأربعين آية .

ومن المؤسف أن هذا النوع من الحصر والتصنيف ، الذى يعد خطوة أولى فى سبيل إعداد المواد للتشييد - لم يعقبه - ما يقتضيه من عمل ضرورى يهدف إلى إعلاء البناء .

ومع ذلك يجب أن نعترف بأن اختيار المواد فى العمل قد تم بوجه عام تبعاً لقاعدة ، وأن الآيات المختارة من القسم العملى تتوافق غالباً مع موضوع دراستنا ، وليس الأمر على هذا النحو بالنسبة إلى ما استخرجه القاضى أبو بكر الجصاص الحنفى فى كتابه (أحكام القرآن) وإلى ما استخرجه القاضى أبو بكر ابن العربى المالكى فى كتابه المعنون باسم (أحكام القرآن) وكذلك بالنسبة إلى ما استخرجه ملا أحمد جيون الهندى الحنفى فى كتابه (التفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية)

ولم يقتصر الأمر فى هذه الكتب على أن نجد النصوص القرآنية ذات المغزى الأخلاقى وقد عرفت بطريقة غامضة وسط نصوص تتصل بموضوعات فقهية أو أصولية أو كلامية أو كونية أو غيرها ، بل لقد رأينا لدى القاضيين آيات مذكورة بمناسبة مسائل ، لا يتصل النص بهما إلا من بعيد ، وعلى كل حال فإن جميع المؤلفين بما فيهم الغزالى قد جمعوا بطريقتهم الآيات القرآنية بترتيب السور - جعلوا من مختاراتهم مجرد جمع لمواد متفرقة ، لاتربط بينها روح قرابة ، ولا يظهر فيه أى تسلسل للأفكار ، ولذلك فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية ، تربط بين الأجزاء المختارة ، أو تصنيف منهجى تقتضيه قاعدة التعليم .

وقد وجدنا هذا النظام المنطق لدى بعض علماء الشيعة من مثل الشيخ أحمد ابن محمد الأردبيلى فى كتابه (درة البيان فى آيات الأحكام) ومن مثل الشيخ أحمد ابن اسماعيل الجزائرى النجفى فى كتابه (قلائد الدرر فى بيان أحكام الآيات بالأثر) غير أن هذين الكتابين اللذين يمكن أن يعدا فهرساً لنصوص القرآن المتعلقة

بالفقه الإسلامى - لا يعالجان به الأوامر الأخلاقية إلا نادراً وهكذا لم ينهض أحد فيما نعلم - حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن فى مجموعه، ولم يحاول أحد أن يقدم لنا مبادئها وقواعدها فى صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه، وتلكم هى المهمة التى انتدبنا للوفاء بها هنا بقدر ما تطيقه وسائلنا.

نحن نميز تحت لفظة (القانون الأخلاقى) كما يميز جميع الباحثين تحت اسم الجنس - فرعين مختلفين هما : النظرية والتطبيق.

والواقع أن دراستنا للنص القرآنى قد أوحت إلينا، لا بوجود هذين الفرعين لعلم الأخلاق فى القرآن — فحسب، بل لقد كشفت لنا عن أن الصورة التى جاءت بها بلغت درجة من الكمال لا يبتغى وراءها شىء.

وقد بحثنا الأخلاق العملية فى القرآن فى علاقتها بالحكمة القديمة، واستطعنا أن نكشف فيها عن ثلاث خصائص نوجزها فيما يلى :

فالقرآن من حيث كونه حافظاً لما سبقه واستمراراً له قد تميز عنه بذلك الامتداد الرحب الذى ضم فيه جوهر القانون الأخلاقى كله، وهو الذى ظل متفرقا فى تعاليم القديسين والحكماء من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض، زماناً ومكاناً ربما لم يترك بعضهم أثراً من بعده يحفظ تعاليمه. ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن وإن لم تكن أثمن سماته ولا أصلها.

وإنما تبدو اصالة هذا التعليم الاخلاقى فى اجمل صورها، فى طريقته التى سلكها لتقديم تلك الدروس المختلفة عن الماضين، وتقريبها، بحيث يصوغ تنوعها فى وحدة لا تقبل الإنفصام ويسوقها على اختلافها فى إطار من الإتفاق

التام ، وذلك لأنه بدأ بأن نزع عن الشرائع السابقة كل ما كان من مظاهر الأمر إفراطاً أو تفريطاً ، وبعد أن حقق وضع التعادل فى ميزانها ، الذى كان يميل تارة إلى جانب ، وأخرى إلى جانب آخر ، دفعها جميعها فى اتجاه واحد ثم نفخ فيها روح واحدة ، بحيث صار حقاً أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الأخلاق.

وأعجب من ذلك وأعظم أصالة جانبه الخلاق ، فليس يكفى — فى الواقع — لكى نصف أخلاق القرآن أن نقول : إنها حفظت تراث الأسلاف ودعمته وأنها وفقت بين الآراء المختلفة التى فرقت أخلاقهم ، بل ينبغى أن نضيف : إن الأخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس وجملته ، حين ضمت إليه فصولا كاملة الجدة ، رائعة التقدم ، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقى.

فى القرآن الجوانب الثلاثة : (إجمال لما سبق ، وتوفيق بين وجهات مختلفة فيه وإكمال لجوانب ناقصة)

ولسوف يكون علينا أن نعالج الأحكام العملية التى جاء بها القرآن فى ذاتها وفى مرحلتها النهائية من تطورها ، ولسوف يخالف منهجنا كثيراً عن المنهج الذى اتبعه سابقونا ، اتبعنا نظاماً منطقياً فى ترتيب النصوص ، بما يبنى لنا منهجاً كاملا للحياة العمليـة كما رسمها القرآن : كيف ينبغى على الإنسان أن يسلك مع نفسه وفى أسرته ومع الناس أجمعين ، وما المبادىء التى يجب أن تحكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين ، وبين الدول والمجتمعات ، وكيف يؤدى الإنسان العبادة لله ، وكل ذلك قد قيل بطريقة واضحة ومحددة.

هذا الطابع الإجمالى يجد ما يكمله فى طابع آخر يمنحه قيمته العليا ، ذلك أن القرآن — بعد أن رسم لكل مجال من مجالات الحياة خط سلوكه — يقدم لنا أطراً معدة على هيئة دوائر مشتركة المركز ، كل واحدة منها قابلة لأن تتسع وتنكمش فى توافق مع المجموع ، بل لقد تتداخل هـذه الدوائر بالتبادل ، دون أن تطغى إحداهما على الأخرى.

كيف استطاع القرآن أن يحدث هذا الأثر المعجز ؟

لقد كان منهجه غاية فى البساطة ، حين تخير لبيان قواعده أقوالا ذات تأثير خاص ، وهى أقوال تقف دائماً فى منتصف الطريق ، بين المجرد : غامضه ومبهمه وبين الحسى المفرط فى الشكلية ، وكذلك نجد أن الأطر التى يبنيها صارمة ومرنة فى آن ، فمن حيث وضوح المضمون نجد أن وضوح كل قاعدة يوجد نوعاً من الحجاز ، يقف فى مواجهة الفوضى وجموح الهوى ، ولكنها من حيث عدم تحديد هذا المضمون تترك لكل فرد حرية اختيار الشكل الذى يكيف فى نطاقه مثله الأعلى ، طبقاً للشروط التى تمليها التجربة ، كما تختار الشكل الذى يوائم به بين الواجب العاجل والمقتضيات الأخرى التى تمليها الأخلاقية ، فهما أمران : تكييف ومواءمة ، ينبغى أن يتما بوساطة جهد راشد ، بعيد عن الإرخاء وعن الغلواء ، التى لا ضابط معها .

وبهذه الطريقة أيضاً : أتاحت الشريعة القرآنية للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة ، تجمع أيضا بين النقيضين : خضوع فى الحرية ، ويسر فى المجاهدة ، ومبادأة فى الاستمرار ، وقليل من فهم تلك الحكمة الرفيعة .

ومن ثم أخذ بعضهم على الإسلام أنه لم يحدد مثلا الطريقة التى يستشار بها الشعب فى القضايا العامة ، ولم يحدد شكل الدولة المسلمة ، وطريقة اختيار رئيسها : أهى اقتراع شامل ، أم مقتصر على الصفوة ، وهل هى جمهورية ، أو ملكية ، إلخ .

هذا البحث المفرط فى التحديد القانونى ، يمكن أن يظهر لدى أولئك الذين يضعون القانون ، أو أولئك الذين يخضعون له ، ففى الحالة الأولى يفرض القانون ويحتمه نوع من الحذر لدى المشرعين ، إزاء الأفراد الذين يناط بهم تطبيقه ، ومع ذلك فهو يتجه إلى إلغاء كل مبادأة ، وإلى أن يجعل الحياة المشتركة

رتيبة لا تطاق ، وإلى أن يجعل من أعضاء المجتمع ما يشبه النسخ المكررة من نموذج آلى واحد .

إن القرآن لا ينقض الاتجاه إلى حصر كل القواعد ، كما لا ينقض الاتجاه المضاد ، فهل كان هذا التصرف الحكيم ، وذاك الموقف الوسط الذى يقف فيه الفرد دائماً بمعزل عن طرفى نقيض ، بمجرد اتفاق ، أو تحكما واعتسافا ، أو أن له غاية معينة .

إن القرآن فى إيجازه وفى تفصيله يهدف إلى تلك الحكمة التشريعية المنزهة ، لاستبعاد المبالغة والإفراط فى (كيف وكم) من القواعد القرآنية ، كما يتسنى لكل فرد أن يمارس طاقته العقلية والجسمية والخلقية بطريقة تختلف عن غيره ، فهذا هو ما يتصل بالأخلاق العملية والسمات العامة التى تحددها .

وفى الجانب النظرى نجد أن علماءنا مهتمون فى المقام الأول بالجانب الاقتصادى أو الشرعى ، بينما نحن نركز اهتمامنا على المجال الأخلاقى ، واضعين كل مسألة فى المصطلحات التى تصاغ بها لدى الأخلاقيين المحدثين .

ونحن من ناحية أخرى نتخذ من القرآن ذاته نقطة انطلاق ، بحيث كان دأبنا الدائب أن نستخرج منه الإجابة عن كل مسألة بالرجوع المباشر إلى النص وهنا تكمن الصعوبة . فإن النصوص المتعلقة بالنظرية الأخلاقية ليست بالكثرة والوضوح اللذين تمتاز بهما الأحكام العملية ، غير أن هناك سؤالا مسبقاً ينبغى أن يطرح :

هل القرآن كتاب نظرى ، أو هل يمكن أن يلتمس فيه ما يلتمس من المؤلفات والأعمال الفلسفية .

إن الفلسفة بالمعنى المألوف الكلمة هى عمل فكر منطقى ، معتمد على مجرد ومضات الذهن الطبيعى ينتقل فيه المفكر من حكم إلى آخر ، بمنهج معين للتوصل

إلى إقرار نظام معين ، قادر على تفسير الأشياء فى عمومها ، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء ، وبدهى أن هذا الجهد العقلى ، وهذه الخطوة التدريجية لا يتناسب مع ضوء وحى يغمر النفس دون بحث أو توقع ، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة ، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها ، ولا المقدم تاليه .

فليس القرآن إذن عملا فلسفياً بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة وهو لا يستخدم طرق الاكتساب الفلسفى ، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طرق التعليم التى يتبعها الفلاسفة ، وهى طرائق المنهج العقلى التى تقوم على : (التعريف والتقسيم والبرهنة والاعتراضات والإجابات) وهى كلها أمور متلاحمة دون جدال ، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس ، وهو الجانب العقلى ، على حين أن للقرآن منهجه الذى يتوجه إلى النفس بأكلها ، فهو يقدم إليها غذاءاً كاملا ، يستمد منه العقل والقلب ، كلاهما نصيباً متساوياً .

وهكذا يفارق التعليم القرآنى التعليم الفلسفى ، سواء فى المصادر أو فى المناهج ، فهل هما يتفارقان كذلك فى موضوعها ، وفى هدفها .

إن القول بهذا معناه أننا نقرر ـ بعلم أو بلا شعور ـ إن القرآن ليس كتاب دين ، ذلك إنه مهما تكن الفروق بين الفلسفة والدين . والتى تتمثل فى أن الأولى تستمد منبعها من ارتياب العقل ، على حين أن الدين يستمده من الضوء الكامل للوحى ، أو أن كليهما قد يقاد أحياناً وراء سراب التخيل وأن أحدهما (وهو الفلسفة) ليس سوى معرفة محضة وبسيطة ، والآخر اقتناع عميق ومؤثر وأخاذ ، فمهما تكن الفروق بينهما فإن للفلسفة جانبها الأسمى ، والدين فى جميع أشكاله موضوعاً مزدوجاً مشتركاً ، هو حل مشكلة الوجود ، أصله ومصيره ، وتحديد الطريقة الحكيمة والمثلى للسلوك ولتحصيل السعادة ، بيد أن أفضل ما يدل على التشابه بين المادة القرآنية خاصة وبين الفلسفة ـ أن نلحظ أن

القرآن حين يعرض نظريته عن الحق وعن الفضيلة لا يكتفى دائماً بأن يذكر بهما العقل ويثير أمرهما باستمرار أمام التفكر والتأمل، وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم، ويتولى تسويغه؛ وفضلا عن ذلك فإن طبيعة استدلالاته والطريقة التى يسوق بها الدليل، قد اختيرت كلتاهما على وجه يفحم أعظم الفلاسفة دقة، وأشد المناطقة صرامة؛ فى الوقت الذى تلبى فيه أكثر المطالب واقعية، كما تروق أرق الأذواق الشعرية وأرقها، وأبسط المدارك وأثقاها، فليس يكفى إذن أن نقول: إن القرآن لاينكر الفلسفة الحقة، ولیدة التفكير الناضج، وعاشقة اليقين، ولا يكفى كذلك أن نقول: إنه يوافقها ويشجعها وإنه يرتضى بحثها المنصف، بل ينبغى أن نضيف إلى ذلك: إنه يمدها بمادة غزيرة فى الموضوعات وفى الاستدلالات.

ولا ريب أن القرآن لا يقدم إلينا هذه الحقائق الأساسية مجتمعة، فى صورة نظام موحد، بيد إننا نتساءل: إذا كان نظام كهذا لم يوجد كاملا أفلا يوجد فى هذا الكتاب جميع العناصر الضرورية، والكافية لبنائه.

الحق إنه لا مراء فى أن القرآن مشتمل على جميع العناصر الأساسية للفلسفة الدينية: أصل الإنسان ومصيره، وأصل العالم ومصيره، ومبادىء السبب والغاية، وأفكار عن النفس وعن الله.. إلخ وإن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرة بأن يخصص لها عمل مستقل.

فإما أن يكون هذا الكتاب قد تحدث فى الوقت نفسه عن أسس النظرية الأخلاقية - فذلكم هو السؤال الأول الذى طرحناه فى دراستنا هذه والذى خصصناه بأعظم قدر من جهدنا، وإنا لنعتقد أن بوسعنا أن نعلن منذ الآن أننا قد وجدنا لهذا السؤال إجابة واضحة، وإيجابية تماماً.

إن القرآن لا يكتفى فى الواقع بأن يضع قاعدة السلوك، على وجه أكثر شمولا وتفصيلا، كما لم يفعله أى تعليم عملى، فقد وجدناه يرسى تحت هذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة، ولنطرح عليه مثلا السؤال الآتى:

على أى أساس ترتكز شريعة الواجب القرآنى ؟ ومن أى معين تستقى سلطانها ؟ !

ولسوف يجيبك بأن التمييز بين الخير والشر هو إلهام داخلى مركوز فى النفس الإنسانية قبل أن يكون شريعة سماوية ، وبأن الفضيلة فى نهاية المطاف - إنما تتخذ مرقاتها من طبيعتها الخاصة ومن قيمها الذاتية ، وبأن العقل والوحى - على هذا - ليسا سوى ضوء هاد ، مزدوج ، لموضوع واحد وترجمة مزدوجة ، لواقع واحد أصيل ، تمتد جذوره فى أعماق الأشياء .

وأسأله بعد ذلك عن صفات هذه الشريعة وامتداد سلطانها ؟

ولسوف يقول لك : إنها شريعة عامة وأبدية تكفل للبشرية مطامحها المشروعة ، ولكنها تعترض بكل وضوح وتأكيد على شهواتها الجامحة والمتحكمة .

وزد فى سؤاله عن المسئولية الإنسانية وعن شروطها وحدودها وعن الوسيلة الناجعة لكسب الفضيلة ، وعن المبدأ الأسمى الذى ينبغى أن يحد الإرادة عن العمل .

أو سله عن أى مبدأ عام لا يملك أى أخلاقى بصير بعمله أن يغفله ؟ ولسوف تجد فيه لكل سؤال حكما محدداً وقاطعاً ، يفرض نفسه إجابة فريدة من شأنها أن تؤلف بين أكبر المشاعر نباهة واتزاناً .

والذى استولى فى النهاية على إعجابنا هو ما رأينا من التباين المذهل بين الطريقة التى يقدم بها القرآن إجاباته على هذه الأسئلة وطريقة غيره .

فعلى حين أن هذه الحقائق الإنسانية الأساسية قد برزت إلى الوجود فى ضوء القرآن اللامع منذ أربعة عشر قرنا نجد أن مجتهدى المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن يصدرون دائما عن تردد وارتياب ولا يصلون إلى أبعاض منها إلا بعد جهد جهيد دون أن يتوقوا الوقوع فى أخطاء فادحة .

الفصل الخامس والعشرون

الطريق المستقيم

(الدكتور محمد أحمد الغمراوى)

الإسلام : دين الفطرة ولذلك فهو لا يعارض العلم ولا المدنية ، وأن القرآن ليلفت الإنسان إلى أسرار الفطرة ويحثه على نقلها، وأن خمس آيات القرآن تحث الإنسان على دراسة الفطرة وعبادة الله عن طريق هذه الدراسة .

ومن هنا فإن هناك تطابق تام بين دين الإسلام والعلم لا شك فيه، ولما كانت كلها منشئها واحداً هو الله سبحانه وتعالى والعلم والدين كلاهما اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة فإن ما يخالف الفطرة من الآداب والفنون ليس أصيلا ، فإذا تحققت الوحدة بين الفن والأدب والدين ، هذه الوحدة المتحققة بين الدين والعلم تحققت وحدة حياة الإنسان كلها وبذلك تبرأ من التناقض والتنافر والصراع .

ومن هذا المنطق يتحدد موقف الإسلام من قضايا ثلاث كبرى هامة :

أولا : الحضارة :

إن المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الإتفاق ما يجعلها فى الواقع جزءاً من الفطرة التى فطر الله عليها الكون وآية ذلك أن يكون منها ما فى سائر النظم الكونية من الإتساق والانسجام والتوافق والتماسك والإتزان والهدوء. وهذا لا يتحقق لأى مدنية من المدنيات إلا إذا قامت على (الحق) فى جميع نواحيها وكانت نظمها النافذة مطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس .

ومن ثم فإن شيوع الخلل والاضطراب فى بعض النواحى ، هو دليل شيوع

الباطل فى هذه النواحى دليل بعد هذه النواحى عن الفطرة . إن المدنية فى الإسلام شطران : شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل ، من وراء ذلك مخافة الله ومحبته ، ولا غنى لأهل المدينة عن هذين إن أرادوا لها البقاء .

(ثانيا) : العلم :

الناحية العلمية فى هذه المدنية هى الناحية الوحيدة التى اتخذت فيها هذه المدنية بالفطرة وإذا كان الإسلام دين الفطرة فهى الناحية الوحيدة التى تم فيها الإتصال بين المدنية الحديثة وبين الإسلام ، أما أن الإسلام يؤيد العلم بعامة ويحض عليه ويكبر منه فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فى العلم والتأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعاً التأييد التام للعلم بمعناه الخاص ، معناه الطبيعى المستعمل فيه اللفظ اليوم . وفى الحق أن الإنسان ليأخذه العجب . من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التركيز فى القرآن ثم من تراخى المسلمين برغم ذلك فى طلب هذا العلم ، وليس كل ما ينتسب إلى العلم ينتمى إليه ، ولا كل ما ينتمى للعلم مفروغ من إثباته . بل كما أن فى العلم الحقائق التى لا شك فيها فإن فيها أيضاً القضايا المفتقرة إلى الإثبات ، أما حقائقه فهى مفردات المشاهدات فى ميادين العلم المختلفة وما سينتجه العقل فيها حسب قوانين التفكير النظرية . ولكن كل ما ينتمى إلى العلم من هذا النوع هو علم الفروض التى يقدمها العلم فى ميادينه المختلفة ملتمساً بها تفسير مشاهداته فهى عنده فروض رهن التجربة والامتحان وهى بعينها التى يسميها المشعوذون بكل جديد وموقفهم من تلقاء العلم يشبه موقف العوام تلقاء من يكبرون من الأبطال الخرافيين . أو الحقيقيين والذين يكثرون من التغنى باسم العلم ويسوا فيهم فى التعصب أعوان القديم ، ينتصرون لكل جديد كما ينتصر العوام لكل قديم ، أولئك هم عوام الخواص : إن مصادر الحق هو القرآن والفطرة والإنسان لا يتطلب الحق إلا فى هذين ، أما الفلسفة فليست مصدراً للحق ، إن تحول الذرة إلى طاقة قد ذهب

بشبهة قدم العلم ، وقدم المادة ، فقد أثبت العلم أن المادة تفنى وتصير طاقة، أى تعدم وعندما وصل العلم إلى ذلك قضى على ما كان مقرراً فى الفلسفة مما ردده أرسطو وابن رشد .

(ثالثا) الفن والأدب :

إن الفن ومنه الأدب له من الأثر فى حياة الفرد وفى حياة الجماعات الكثير مما للعلم ، لأنه متصل بدخيلة هذه الحياة فى حين يتصل العلم عند أكثر الناس بظاهرها وإذا اتصل عند أقوام بباطن حياتهم النفسية فقد صار باباً من الفن عند ذلك القليل وأن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة ، إنما ينظر لا يجد مفراً من أين يصل هذه الحياة (أدبها وفنها وعلمها) بالدين كما أنزله الله على رسوله (محمد بن عبد الله) . كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول ، ذلك أن الإسلام دين يشمل الحياة بحذافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها وكيف يجوز أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية والأدبية أو العلمية إن لم يكن بين (الفن والأدب والعلم) دين الإسلام تمام التطابق والاتفاق .

والتطابق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه فليس فى الثابت من العلم شىء ينقض شيئاً من الإسلام وليس فى الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة فى العلم وكل مايثبته العلم فى المستقبل يفعله الإسلام متقدما بنص القرآن .

فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة ودين الإسلام فى شىء فاذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان، حتى يبلغ ماقدر له من الرقى فى النفس والروح - إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو فى شىء من غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودابرت

الخير ، وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق .

والآداب الرفيعة آداب نبل قبل كل شىء ، نبل فى المعنى ونبل فى التعبير على السواء ، ونبل التعبير راجع إلى حد كبير لنبل المعنى عند تمام الأداء .

رابعاً : الحضارة :

وإذا كان المسلمون يريدون النجاة فليطلبوها داخل الإسلام لا خارجه ، وهم يخطئون طريق الرشد إذا قلدوا الغرب فى نظمه الاجتماعية وخرجوا عما ألفوا من صواب إلى ما لم يألفوا من نظم ، إن لاءمت غيرهم لأنها إلى حد ما وليدة حاجاتهم فهى لا تلائمهم لأنها ليست وليدة الحاجة ولكن وليدة الهوى والتقليد ، إن التقليد رق قد حرر الإسلام منه الإنسان إلى الأبد

وعندنا أن الشرق وإن فقد حكمه على المادة لقد بقيت له من دينه بقية تجعله أقرب إلى الرقى الروحى من الغرب ، وأجدر أن يرقى فى معارج الإنسان إلى غير حد ، وإذا أراد الشرق عامة ، والعالم الإسلامى خاصة أن يسترد مجده الضائع فيجمع بين السلطانين : سلطان المادة وسلطان الروح ، ويعود قائد العالم إلى الفضيلة وهاديه إلى الله كما كان ، فليحذر من أن يفقد البقية الباقية من الاستقلال الروحى المستمد من الدين فانه إن فقدها جمع على نفسه ذلا إلى ذل وسد على نفسه طريق النجاة ، وحكم عليها بالموت فليس بينه وبين الموت الأدبى إلا أن يستعبده الغرب فى نفسه كما استعبده فى جسمه وهو مستعبده نفسياً من غير شك إن هو أطاع دعاة التقليد الذين يوهمونه أن الطريق إلى العزة أن يقلد الغرب فيما الغرب منحط إليه .

وخلاصة الرأى أنه لا يكاد يكون فى الغرب ما يؤخذ عنه إلا علمه الطبيعى وليس فى العلوم الطبيعية خاصة واحدة من خواص الغرب ، فقد جعل الله العقل الإنسانى واحداً فى الشرق والغرب ، قوانينه واحدة ، ومنطقه واحد ، فيما

يستنتجه العقل الصرف في غرب الأرض يصير ملكا للعقل الذى يقف فى شرقها فلا خطر على نفسية الشرق أن يأخذ عن الغرب علمه الطبيعى المبنى على التجربة والمشاهدة العلمية .

خامساً : التجديد :

إن التجديد عمل لايشق إلا على من يأخذ نفسه بأشد مما يطالب به الناس من التجرد من الهوى ومن الإخلاص للحق ، ولا غنى فيه بعد ذلك عن شيئين: عن القدرة على تمييز الحق من الباطل ، وعن الاستمساك بالحق بعد أن يمتاز ، فلا تنبذ شيئاً قبل أن نستعيض عنه بخير من جنسه ويستوثق من فصل العوض قبل أن ينبذ هذا ويأخذ بذاك ، هذه القاعدة البسيطة التى تمكن العلم بها من تجديد تراثه وتنميته ، وهى القاعدة البسيطة التى يجب أن يسير عليها الشرق فيحتفظ بتراثه الكثير القيم فلا يغير منه إلا بقدر مايجدده وينميه ، والتجديد فى العلم لايمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى ، يبنى العقل فى حاضره على ما أسس عليه العقل فى ماضيه ، فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منه إلا على جزء .

سادساً : روح الأدب :

لابد أن نستكمل الحلقات حتى تلتئم على مضمون متكامل :

لابد أن تتحقق الوحدة بين الفن والأدب ، وبين الدين كما تحققت بين العلم والدين فتحقق وحدة الإنسان كلها .

أليس روح الفن والأدب : الجمال .

أليس الجمال النفسى روح الجمال الإنسانى .

أليس الجمال النفسى إخباته وإخلاده وإسلامه لله .

ومن محبة الله سبحانه يشيع فى النفس الهدى ، ويشع فيها النور فكيف

يمكن أن يكون للأدب المكشوف نصيب من روح الجمال الإنسانى النفسى التى فيها بقية من الفضيلة والخير .

سابعاً : الغرب :

لقد وقى الله العالم الإسلامى فأنزل بالعالم الغربى فى حربين عالميتين أكلتا الأخضر واليابس وخربتا العامر والغامر ، ولم يرعو الغرب ولم يعتبر فهو لا يزال بظلمه ولا يزال يحكم طبعه الهوى والمنفعة لا يطبق العدل والإنصاف ، ولا يزال يعيش فى عيش شهوة واستمتاع ، لا عيش فضيلة ودين .

والشرق هو أيضا لا يزال فى اغتراره بالغرب يظنه المثل الأعلى ، ولا يعتبر بما جرته عليه مدنيته المادية من وبال ولا بما يهدده به علمه المادى من دمار ، والعلة التى جرت على العالم الغربى حربيه الماضيتين هى هى التى توشك أن تجر عليه الثالثة ساحقة ماحقة : نسيانه الفضيلة وضلاله عن الله ، وقد عرف الغرب ذلك حين كان مأزوما مهزوما فى الحرب ولكنه بعد النصر نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، وظن أنه إذا أغدق المال على صنائعه وأشبع البطون من الأمم التى أفقرها بطمعه وجشعه عمرت الدنيا واستقام الحال وعم السلام ، ولكن لا سلام إلا إذا رجع الغرب والشرق كلاهما إلى الله الحق السلام .

ومهما يكن ما بيد الغرب فالمسلمون بيدهم من الله كتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فليرجعوا إليه ويعملوا به ويتمسكوا به إستمساك الغريق بحبل النجاة عسى الله أن ينجيهم مما يظلل العالم اليوم من كارثة لا تبقى ولا تذر فان لم يفعلوا وركنوا إلى الغرب ، ومدنيته ، وماديته فلا يلومن إلا أنفسهم فان الله سبحانه وتعالى يقول : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من الله أولياء ثم لا تنصرون)

الفصل السادس والعشرون

بناء المسلم

(أبو الأعلى المودودى)

إن الله تبارك وتعالى لم يرسل إلى البشرية طول التاريخ البشرى إلا ديناً واحداً هو الإسلام : أى استسلام الإنسان لحكم الله .

والخصائص التى يمتاز بها محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء هى :

(أولا) : أنه آخر أنبياء الله . (ثانياً) : على يده بعث الله من جديد نفس الدين الأصيل الذى نادى به جميع من قبله من الأنبياء (ثالثاً) : استخلص الله هذا الدين من كل مامزجه الناس من حقب مختلفة من التاريخ من عند أنفسهم وجعلوا منه ديانات متفرقة وعلم البشرية بواسطة محمد ﷺ : (الإسلام الحقيقى الخالص). (رابعاً) لم يكن الله ليبعث بعده ﷺ نبياً أو رسولا ولذلك جعل الكتاب الذى أنزله عليه محفوظا نصا وفصاً بلغته التى نزل بها لكى يتمكن الإنسان من الاهتداء بهديه فى كل عصر من العصور. (خامساً) احتفظ الصحابة ومن جاء بعدهم من المحدثين بسيرته وسننه ﷺ بطريقة مثالية لم يتم الاحتفاظ بترجمة حياة أى نبى أو شخصية تاريخية أبدا. (سادسا) هكذا فان القرآن ثم سيرة صاحبه وسنته اللتين بلغتا من الصحة الشأو الأقصى أصبحا مصدرين موثوق بهما لمعرفة ماهو دين الله فى الواقع ،

إيماننا

إننا نؤمن بجميع ماجاء قبل محمد ﷺ من الأنبياء وذكرهم الله فى القرآن

أو لم يذكرهم ، وإن هذا الإيمان جزء لازم من عقيدتنا لا يكمل إسلامنا بدونه ولكننا لانتلقى الهداية إلا من محمد ﷺ فقط ، وليس مرد هذا نزعة عصبية وإنما السبب الحقيقى فى ذلك أنه هو ﷺ خاتم الأنبياء ، ولذلك التعليم الذى جاء به من عند الله عز وجل هو آخر التعاليم ، وكلام الله الذى بلغنا عن طريقه هو كلام إلهى خالص محض ، لم يمازجه شيء من كلام البشر ، وهو محفوظ بلغته الأصلية ولغته تعتبر من اللغات الحية فى العالم نطق بها الملايين من البشر ولم يطرأ تغيير على قواعد هذه اللغة ومبانيها ومعانيها وأساليبها ولهجتها ورسوم الكتابة بها .

القرآن

القرآن لا مجال للشك فى أنه هو القرآن الذى جاء محمد ولم يدخل عليه أى تبدل أو تحريف وكان النبى يأمر بكتابة كل ماينزل عليه من القرآن بدون تأخير واستمر هذا الأمر إلى وفاته وجاء خليفته الأول أبو بكر وجمع هذا القرآن الذى كتب كله فى عهد الرسول ولكنه كان متفرقا ، فجمع من الرقاع والعسب وغيرها ثم استنسخ منه مصحفاً واحداً وجعله محفوظاً فى دار الخلافة ثم جاء الخليفة الثالث عثمان واستنسخ منه مصاحف متعددة ووزعها فى الأمصار وجمع المسلمين عليها .

عالمية الرسالة

إن رسالة محمد بموجب عقيدتنا جاءت لجميع العالم ولسائر الأزمان ، وذلك لأنه : (أولا) القرآن نفسه يصرح بذلك (ثانيا) هو المقتضى المنطقى لكونه ﷺ آخر الأنبياء ولأن كونه نبى آخر الأنبياء يستوجب بحكم المنطق أن يكون هو الهادى والموجه لجميع الناس ولسائر مايتبعه من الدهور والعصور (ثالثا): وقد استكملت على يديه الهداية التى يفتقر إليها الإنسان لاختياره الطريق السوى .

(رابعاً): ومن الواقع أنه لم يأت بعده ﷺ ما يقارب أربعة عشر قرناً شخص ادعى النبوة أو ادعى أنه يوحى إليه ثم جاء بكتاب يتناسب مع كلام الله .

وقد اختار الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله ليبلغوا الإنسان علم الحق فأطلعهم على تلك الحقائق بالوحي ثم أمرهم أن يبلغوا الناس هذا العلم ، وليس من مهمة النبي . أن يبلغ الناس علم الحق فقط ، بل من مهمته أن يخبر الناس وفقاً لذلك العلم : ما هي العلاقة الفعلية بين الله والإنسان وبين الإنسان والإنسان ، ثم ما هي العقائد وما هي الشعائر التعبدية وما هي الأخلاق وما هي مبادىء الحضارة والمدنية التي يتطلبها هذا العلم وكيف تؤسس كل شعبة من شعب الحياة كالاجتماع والاقتصاد والمالية والسياسية والقضاء والحرب والمصالح وللعلاقات الدولية وما إلى ذلك على مقتضى هذا العلم ، ولا يجيء النبي بطائفة من الطقوس والعبادات فقط التي يصطلح عليها الناس بالديانة Religion بل يجيء بنظام متكامل للحياة يصطلح عليه الإسلام بالدين way of life ثم لا تقتصر مهمة النبي تبليغ علم الدين فقط ، بل من مهمته كذلك ان الذين يؤمنون به ويسلمون أن يفهمهم هذا الدين ، ويعلمهم ما له من العقائد والأخلاق والعبادات والأحكام القانونية ونظام الحياة في الجملة، وأن يجعل من نفسه مسلماً مثالياً يحذوه في حياتهم الفعلية ، وأن يعدهم على المستوى الفردي ، وكذلك على المستوى الاجتماعي على أن يكونوا قاعدة صالحة للحضارة الإسلامية السليمة والمدنية الإسلامية النزيهة ، وأن ينظمهم ويجعل منهم جماعة تشمر عن ساق الجد لإقامة دين الله في واقع الحياة إلى أن تكون كلمة الله هي العليا ويكون سائر الكلمات الأخرى هي السفلى - هذه هي المهمة التي أسندت إلى كل نبي ، غير أن الذي امتاز به محمد والتاريخ أبرز شاهد على ذلك هو أن جعل حكومة الرب قائمة في الأرض كما هي قائمة في السماء ولا تجد أن الكتاب أو الرسول

الذى جاء به هذا الكتاب يخاطب بلداً بعينه أو شعباً بعينه ، أو جنساً بعينه أو طبقة بعينها من الناس أو الناطقين بلغة بعينها ، بل هو خاطب البشرية كلها (يابنى آدم) و (ياأيها الناس) ووجه إليهم دعوة الإسلام أو خاطب الذين آمنوا بدعوته ليعلمهم ما يلزمهم من الأحكام والتعاليم قائلا : (ياأيها الذين آمنوا) ويتضح من ذلك تلقائياً : أن دعوة الإسلام عالمية وكل من يقبل هذه الدعوة من البشر يصير مؤمنا وينال كل الحقوق على قدم المساواة (إنما المؤمنون إخوة) ويقول الرسول ﷺ « أيها الناس : إن ربكم واحد : ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى »

(٢)

لقد شرع النبى ﷺ فى تكوين مجتمع بشرى فذ يختلف بحذافيره عن المجتمع الجاهلى آنذاك واستطاع فى سنوات قليلة إعداد نموذج حضارى وقبع عرضه على عالم العرب وأتاح بذلك لكل رجل أن يشاهد إذا شاء بأم عينيه القالب الذى يريد الإسلام إفراغ الحضارة البشرية فيه ويبين الروح الخلقية الذى يستهدف بعثها فيها ؛ إن العدل الذى دعا إليه الإسلام أقيم فعلا فى تلك الدولة وأن المجتمع الذى يود الاسلام إنشاءه أنشىء فيها فعلا وصار واقعاً ملموساً ماثلا للعيون ، وأن الإصلاح الذى يتوخاه الإسلام فى الحياة الاقتصادية وضع فعلا موضع التنفيذ فيها وهكذا فان كل ما كان يدعو إليه الإسلام ويطلبه من الناس أبرزه النبى ﷺ إلى حيز الوجود وجسمه فى واقع الحياة لكى لا يكون إيمان الناس بالإسلام مقتصراً على ما سمعوا من لسانه بل ينظروا برأى العين : ما هو الإسلام ؟ وما هى بركاته وما هو الطريق لتطبيقه وجعله واقعاً حياً

ومن أروع معجزات التاريخ البشرى أن الدولة التى أنشئت فى قرية صغيرة من قرى العرب والتى كانت عبارة عن بضعة أميال مربعة فى مساحتها وعن بضعة آلاف نفس فى سكانها استطاعت أن تبسط سلطان الله فى أكناف جزيرة العرب فى غضون ثمانى سنوات فقط ، إنها فى هذه المدة القصيرة غزت رقعة من الأرض كانت تحتوى على مليون ميل مربع فأ كثر ، وكان من بدائع هذا الفتح أن لم يصبح الناس مستسلمين للسلطان السياسى لهذه الدولة فحسب، بل انقلبت بسببه نظراتهم إلى الأشياء رأساً على عقب، وتغيرت مقاييسهم للقيم وتبدلت أخلاقهم وخصائصهم ظهراً لبطن ، وحصل انقلاب جذرى فى عاداتهم وتقاليدهم الإجتماعية ،وطرأت على حضارتهم ومدنيتهم ثورة لم تغير وجهة تاريخهم فحسب،بل غيرت مجرى تاريخ العالم بأسره فانتهج الناس أفراداً وجماعات أسلوباً جديداً للتفكير ونمطاً جديداً من السلوك وغاية جديدة للحياة حرموها منذ مئات القرون فى تاريخهم.

وأصبح الناس يشهدون تلك القناديل النورانية من السلام والعدل والصلاح والشرف والنزاهة والسمو تملأ أرجاء الدولة الإسلامية ضياء وبهاء وتضفى عليها حللا قشيبة من الجمال والنضرة .

وبعد أن قامت فى الدنيا أمة هذه سماتها وخلالها وتأسست دولة هذه خصائصها ومزاياها بدأ الإسلام ينتشر فى أرجاء الدنيا فى عصر الخلافة الراشدة بسرعة وصفت فى التاريخ بكلمة (الإنفجار) أى أن مثل السرعة الهائلة التى أخذ بها الإسلام فى الانتشار والازدهار كمثل انفجار المتفجرات ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى امتدت المسيرة الإسلامية من بلاد الأفغان والتركستان شرقاً إلى أفريقيا غرباً .

ولم يكن يمكن شعب صغير على هذه المساحة الأرضية وبهذه الصورة الفجائية حصيلة تفوقه على غيره من القوة المادية ، بل السبب الذى مكنه

لإخضاع رقاب العالم كله يكمن فى ذلك السلوك الفريد الذى سلكه كل فرد من المسلمين بصفته الفردية والأمة الإسلامية بصفتها الجماعية فى الصلح والحرب وإدارة البلاد المفتوحة وحسن المعاملة مع شعوبها .

وبهذه الخاصية الربانية لم تستطع أية قوة فى العالم أن تصمد فى وجههم، وكان يسبق تأثير أخلاقهم فى قلوب الناس مضاء سيوفهم فى أعناقهم ، لذلك نرى أن الأقطار التى فتحوها لم يكتف سكانها بالخضوع لقوتهم السياسية بل أصبحوا من المولعين بهم والمريدين لهم: اعتنقوا دينهم، واتبعوا حضارتهم، وأتقنوا لغتهم.

إن الإسلام إذا تمكن من بسط سلطانه المدهش على القسم الأكبر من العالم لم يتمكن من ذلك إلا لأجل أن الأمة بكاملها قد آمنت بالإسلام إيمانا صادقا وتمسكت به بعزيمة ماضية وتفهم صادق وأخلاق عميقة وصار نور الإسلام يتلألأ فى سلوك أفرادها الفردى والجماعى بمنتهى النصوع والكمال .

هل أنتم إلا ورثة نفس (دعوة الحق) التى جاء بها النبى ﷺ ولا يزال ذلك الحق باقياً كما هو متمثل فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفى سنة النبى ﷺ وهديه فى آثار أصحابه الكرام لم يمازجه شىء من الباطل ، والدلائل التى عرض بها ذلك الحق هى النصاعة والقناعة وقوة التأثير .

وكل ما فى الأمر هو أن يدركوها جيداً ثم يقدموها إلى البشر بلغة يستطيع الإنسان العصرى أن يفهمها، ثم إن أى مادة تتعلمونها يجب أن تضطلعوا بها اضطلاعا قويا لتطيلوا فيها باعكم وأن تستخدموا المواهب العقلية والذهنية التى حباها الله لكم فى فرز الحقائق من النظريات لكى تروا : كيف أن كل حقيقة تكشف نتيجة أحدث الاكتشافات العلمية تؤكد صدق الحقائق التى جاء بها الإسلام بدلائل أقوى وحجج أنصع وهكذا إذا درستم العلوم الإنسانية أو العلوم

الإجتماعية دراسة نقدية فى ضوء الكتاب والسنة تتمكنون بها من الدلائل والبراهين ماتثبتون به أن توجيه الإسلام هو الصحيح، والحق فى كل شعبة من شعاب الحياة البشرية وبقدر ماتتناولون بالبحث الواسع والتأمل العميق حضارة الغرب وثقافته بنظرة مشبعة بالإسلام بقدر ماتسعفكم قوة الحجة والدليل على إقناع كل ذى لب على أن أنماط الحياة البشرية التى أخذ بها الغرب خطأ وضلال وخراب وتباب وإنما السلامة كل السلامة فى أن يتبع الإنسان النهج الذى جاء به الإسلام وإذا كان دأبكم الاجتهاد والبحث يسهل عليكم إعداد مخطط تفصيلى يعكس توجيه الإسلام لكل شعبة من شعب الحياة، مخطط يجعل كل من رآه من أصحاب العقول السديدة يؤمن بأن نظام الإسلام للحياة هو الذى يعالج جميع المعضلات العصرية علاجا أحسن وأنجع من أى نظام آخر، وإذا اتخذتم هذا النمط من التبليغ والدعوة تدين لكم حتما أدمغة العالم وتضطر الإنسانية إلى الاعتراف بأن ما يقدمونه هو الحق، وليس هناك من حق سواه، وأن سعادة الإنسان وفلاحه ليس مصدرها إلا هذا الحق نفسه.

وفى الغرب صاروا يتمردون على دينهم الذى ورثوه من آبائهم، وقادتهم الدينيون أصبحوا لا يرتاحون إلى العقائد التى ينقلونها فى كنيستهم والمبشرون أصبح عدد منهم يدخل مستشفى الأمراض العقلية لأن التعليم الذى يقدمونه للناس لا يطمئن إليه ضميرهم أنفسهم، وهذا الصدام المستمر بين ضميرهم ومهنتهم يكاد يخل باتزانهم الذهنى والمارقون عن دينهم اختاروا طريق الإلحاد والدهرية وأرادوا أن ينالوا الطمأنينة، ونرى الكثيرين منهم الآن قد شمروا عن ساعد الجد لقلب حضارتهم ومجتمعهم رأساً على عقب، لأن حضارتهم وإن وفرت لهم أسباب الترف وسبل الرخاء ولكنها سلبتهم ثروة الطمأنينة القلبية، وفى وسط هذه الفوضى بدأ ذوو العقل منهم يدورون بأنظارهم إلى كل جهة باحثين عن الحق، إلا أن الكراهية التى غرست فى قلوبهم وأذهانهم من أيام الحروب الصليبية نحو الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ والشبهات التى روجت حول دين

الله القيم لا تدعهم يتجهون إلى الإسلام إلا بصعوبة كبيرة ، وأن هذه العقبات إذا أزحناها عن الطريق بالحكمة والعلم والرزانة وعرضنا عليهم الإسلام بالدليل والحجة نستطيع أن نكسب تلك الشعوب التى تحكم العالم اليوم.

ولكن أى جهد تبذلونه فى تلك البلدان لا يكاد يثمر ما دام بلدكم (الباكستان) أنتم الذى أنشىء على أساس الإسلام منغمساً فى ضلالات الحضارة الغربية وانحرافاتها الفكرية وويلاتها الخلقية ، لذلك يجب عليكم قبل كل شىء أن تبددوا هذه الضلالات والانحرافات تبديداً كاياً وتهزموها هزيمة منكرة فى بلدكم.

فى هذا الصراع المستمر بين الحق والباطل لا بد لكم من أن تمارسوا قوة الأخلاق مضافة إلى قوة المنطق ، واحتذاء برسول الله ﷺ فى هذا الباب ، هذا الأمر يتطلب همة عالية ونفساً طويلا،وطبعاً كريماً وصبراً لا ينفذ وصدقا لا يعرف اللين وعزيمة لا تقهر ، فلا تستعملوا سلاح المكر والتضليل والخيانة لكسب المعركة ولا تتخلوا أبداً عن خصلة الكرم والنبل ولا يقبلن ضميركم صفقة بيعه ولو عرضت عليه أموال طائلة ، وفروا مرة هذه القوة الخلقية فى أنفسكم تشهد لكم التجارب تلقائياً ،كيف تبدد شراسة القوى المناوئة وكيف تطاوعكم القلوب والأذهان ، وكيف يتسع نطاق انتصارات الحق اتساعا مستمراً .

السلاحان اللذان فتح بهما النبى ﷺ العرب كله (قوة الأخلاق وقوة المنطق) وحيداً فريداً وعباً الأمة المسلمة بطاقة سادت بها البلاد والعباد فى أكبر رقعة من العالم من حدود الصين شرقا إلى المغرب والأندلس غربا،لم يكن هذا الأمر مصادفة يستحيل حدوثه ثانياً ، بل يمكن تكراره فى العصر الحاضر

بنفس العوامل التى سببت حدوثه فى الأمس الدابر ، ولا يعقل أن تتبدل النواميس الإلهية التى ساعدت النبى ﷺ على إحراز الإنتصار العظيم فى القرن الأول من الإسلام بل بقيت — ولا تزال — النواميس الإلهية تسير على سننها ولن تجد لها تبديلا ولا تحويلا .

فالمؤثرات التى تنجم عن العلم الصحيح والمنطق السليم فى قديم الأزمان لابد أن تنجم عنها اليوم حتما فلا عليكم أن تواصلوا جهودكم وتبذلوا مهجكم فى كسب الأذهان بسلاح الصبر والمصابرة .

الفصل السابع والعشرون

صيانة الحقائق الإسلامية من التحريف

(أبو الحسن الندوى)

إن الإسلام اليوم – بصفته عقيدة – موجود ومعمول به ولكنه جردمن مدنيته وكانت هذه مؤامرة خطيرة نسجها الغرب ، إنها رأت أن المسلمين ليس بالإمكان تجريدهم من العقيدة وإن شعورهم أرق فيما يتصل بهذا الجانب، لأنهم قد مروا فى هذا الصدد بتجارب مريرة جداً،وا كتووا بنارها منذالحروب الصليبية التى سحقها الكيان الإسلامى فلجأت إلى استراتيجية أخرى وقررت أن تجردهم من مدنيتهم وتسلخهم من نظامهم الإجتماعى ، وتحملهم على قبول مدينة أخرى أجنبية ، وأعتقد أن أوروبا قد كسبت فى ذاك نجاحا باهراً ، والحمد لله لم يقع تحريف فيما يتصل بالعقائد الإسلامية كما وقع فى المسيحية حيث حادت عن خطتها الصحيحة تماما ، وصارت تعدو على خط التثليث وابنية المسيح والمدنية الرومية ، ثم تجددت أسباب كثيرة ضاعفت سيرها على إذلك الخط المنحرف أما فى الاسلام فلم يقع انحراف فى العقائد والأصول ولكن الأخلاق والسلوك وأسلوب الحياة التى تكون وليدة هذه العقائد تحتاج إلى تمثلها فى الواقع العملى إلى مجتمع حر وإلى بيئة متفتحة وإلى قطعة من الأرض يتنفس فيها بحرية دون حد وقيد، ونجحت أوربافيما استهدفته من تجريد المسلمين من المدنية الإسلامية العريقة وفرضت عليهم مدنيتها وزينتها فى أعينهم .

(١) أعتقد أن الاسلام يحتاج إلى السلطة والمسلمون يحتاجون إلى مجتمع

حر آمن ولا يزال قول الرب تبارك وتعالى المعجز صادقا وسيظل إلى يوم القيامة كما كان صادقا وقت نزوله .

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾

القرآن والحديث كليهما يستخدمان فى صدد المعروف والمنكر ، كلمتى الأمر والنهى ولم تستحدث كلمات الالتماس والرجاء والطلب

إن الإسلام يحتاج إلى القوة وإلى السلطة حتى لا يضطر أبناؤه دائماً أن يقولوا للعالم الذى يعيش من حولهم فى ظلام الجاهلية ، ثم إن إصلاح النوع البشرى الكامل لا يمكن بدون هذه القوة والغلبة اللتين رتب عليهما القرآن: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

لا بد أولا من بناء الغصن الذى يقام عليه العش ، والغصن هو المجتمع فلئن كان هناك مجتمع قد بلغ من عبادة النفس والهوى والولوع بالمعاصى والجرائم إلى أن تحقيقه بالدعوة إلى الصلاح والخير وإلى الاخلاق والمعانى الإنسانية ، لئن كان المجتمع وصل الى النقطة النهائية من الفساد والتفسخ والتعفن فلا يرجى فيه نجاح نظام أو تنفيذ خطة اتخذت بمعزل عن مراعاة الوضع الذى يعيشه والحياة التى يحياها .

ومن هنا كانت ضرورة اتجاه قوى المجتمع، دعاته ومؤلفوه وكتابه وصحفيوه وتلفازه وإذاعته وجميع وسائل الإعلام والإبلاغ على ذلك — لو اتجهت نحو إصلاح المجتمع ، ليس ببعيد أن يتحقق حلم الخلافة الإسلامية، ومع الأسف أن وسائل الإعلام يديرها اليوم أولئك الذين وصفهم القرآن بما يلى :

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

إن الدور الذى يمثله العالم المعاصر المجنون فى إشاعة الفاحشة لم يكن بالإمكان تقديره من ذى قبل .

إن مشكلة المجتمع الإسلامى أصبحت اليوم خطيرة جداً ، تتطلب عناية جدية ، فقد صار الناس يعتقدون فى بساطة وعن جهل إن قضية الفرد ليست بذات أهمية وإنما المهم هو قضية المجموعة والمجتمع ، إن هذا العصر هو عصر تقديس الجماعة ، وأنتم مقبلون اليوم على تطبيق القوانين الإسلامية لا بد أن يكون لدى المجتمع استعداد لتلقيها بالقبول واحتماله وإساغته ، ومن ثم يتحتم العمل على إصلاح المجتمع على أوسع نطاق ولتركز عليه منابر المساجد ومعاهد التعليم والتربية وأعمال الصحف والتلفاز والإذاعات .

(٢)

إن نهضة المسلمين لن تتحقق إلا بتحقيق مجموعة من العوامل والشروط والأسباب الفورية وهى:

(أولا): تحريك الإيمان فى نفوس الشعوب والجماهير المسلمة وإثارة الشعور الدينى فيها .

(ثانياً) : صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ومن التصورات العصرية الغربية أو المصطلحات السياسية والإقتصادية، وتجنب تفسير الإسلام تفسيراً سياسياً بحتاً وعدم المغالاة فى (تنظير الإسلام) ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية لأن هذه الحقائق الدينية هى أساس الإسلام الدائم والأصل الذى فيه البداية وإليه النهاية .

(ثالثا): تقوية الصلة الروحية والعاطفية بالنبى ﷺ والحب العميق له والذى يؤثره على النفس والأهل والولد .

(رابعاً) : إعادة الثقة فى نفوس الطبقة المثقفة ومن بيدهم القيادة الفكرية

والتربية والإعلام فى البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته ليس على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه، بل على قيادة الركب البشرى إلى الغاية المثلى وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة .

(خامساً) : قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب والمنتشر السائد فى العالم الإسلامى رأساً على عقب وصوغه صوغاً إسلامياً جديداً ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة وعقيدتها ورسالتها وثقافتها وقيمها .

(سادساً) : قيام حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد،وتنفخ فى العلوم الإسلامية روحا من جديد وتبث على العالم المتمدن أن الفقه الإسلامى وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها.

(سابعاً): ضرورة أن تقوم الحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية بالتخطيط الإسلامى البعيد عن تقليد الغرب وعن السطحية .

(ثامناً) : النظر إلى الحضارة الغربية بعلومها ونظرياتها وطاقاتها كمواد خام تشكل من جديد فى العالم الإسلامى على أساس الإيمان والأخلاق .

(تاسعاً) : محاولة إقناع بعض حكام المسلمين المشغولين بحرب الإسلام بعقم محاولاتهم وبخطورة نتائج ما يقدمون عليه وبضرورة توجيه طاقاتهم إلى العدو المشترك وإلى فهم حقيقة أمتهم مع استعمال الحكمة فى ذلك وفى الدعوة إلى الله مع المخالفين بعامة.

(٣)
الدعوة إلى الله

يجب أن تكون الدعوة إلى الله جامعة بين تحريك الإيمان فى نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامى وإثارة الشعور الدينى وبين إكمال الوعى وتنميته وتربيته فما

يزال التمسك بالإسلام هو الحاجز المنيع لكثير من القيادات التى خضعت للحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها وفلسفاتها ونظمها وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث وتطوراته وأحداثه .

(٢) لقد لجأت بعض القيادات فى ساعات عصيبة إلى إثارة هذا الإيمان والحماس الدينى واستخدامه لكسب المعركة أو الانتصار على العدو حين رأت ان لاملجأ من الله إلا إليه ، فرفعت هتاف التكبير (الجهاد) أو الشهادة فى سبيل الله . كما فعلت الجزائر فى حربها مع الفرنسيين وباكستان فى حرب ١٩٦٥ وجربت فائدة هذا الإيمان قوة هذه العاطفة ، ولكنهم يخافون ثورة الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلامى .

(٣) المطلوب تنمية الوعى الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، ذلك أن قدرة أى قائد منافق أو زعيم ماكر على أن يكسب عاطفة الشعوب ولايمنعها تمسكها بالإسلام وحبها له من أن تكون فريسة سهلة أو لقمة سائغة للقيادات اللادينية أو المؤامرات ضد الإسلام ، ومن هنا فان فهم الإسلام فهما صحيحاً يحول دون الانخداع من القوى الخارجية ويعطى الحصافة والنصح فلا يقعون فى شرك ماكر وأن لاتكون الأمم فريسة سهلة لكل ناعق ، وخاصة المنافات الجاهلية والنعرات القومية والعصبات اللغوية والثقافية .

(٤) على مفكرى ودعاة المسلمين صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف أو إخضاعها للتصورات العصرية الغربية أو المصطلحات السياسية والاقتصادية التى نشأت فى أجواء خاصة وبيئات مختلفة ، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ وهى خاضعة تماماً للتطور والتغيير .

فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات بل أكثر منها وأشد لأنها حصون

الإسلام المنيعة وحماه وشعائره وإخضاعها للتصويت الحديثة أو تفسيرها بالمصلحات الأجنبية إساءة إليها لا إحسان وعلينا تحرير المصطلحات دون إخضاعها للفلسفات الجديدة ،أو تفسيرها بالشيء الذى لا ثقة به ولا قرار له ، مثل ما فعل الباطنية فى القرن الخامس الهجرى إذ أزالوا الثقة بهذه الكلمات المتواترة التى هى أسوار الشريعة الإسلامية وحصونها وشعائرها .

إن الأمة توارثت هذه المفاهيم المعينة كما توارثت أشكال الصلاة والصوم والحج وتناقلتها وحافظت عليها من غير أقل انقطاع أو أقصر فترة ، ذلك أن الكلمات هى الوسيلة الوحيدة لنقل المعانى والحقائق، من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى إنسان ، فاذا وقع الشك فى مدلول هذه الكلمات ومصداقيتها أو صار التلاعب بها اضطربت دعائم الدين وتزلزلت أركانه وهذا يعم التاريخ والشعر والأدب .

وليست قضية الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذى يتصوره بعض الناس فانها تؤثر فى النفس تأثيراً خاصاً وتثير معانى وأحاسيس ذات صلة بالماضى وذات الصلة بالعقائد والأعراف أحيانا وكذلك كره رسول الله ﷺ أن يقال (العتمة) مكان العشاء ويوم العروبة بدلا من يوم الجمعة واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة .

(٥) أحذر المسلمين مما لوحظ من بعض الكتاب من الضغط على أن الأركان الدينية وفرائض الاسلام وسائل لا غايات ، إنما شرعت لإقامة الحكم الاسلامى وتنظيم المجتمع الاسلامى وتقويته وأحذر من كل ما يحط من شأن روح العبادة والصلة بين العبد وربه وامتثال الأمر أو القول بأنها أساليب تربوية أو عسكرية أو صحية بدنية وفوائد طبية فان أول أضرار هذا الأسلوب أنه يفقد هذه العبارات قيمتها وقوتها وهو امتثال أمر الله وطلب رضاه بذلك .

(٦) أحذر من كل ما يقلل من بشاعة الوثنية العقائدية والشرك الجلى من عبادة غير الله والسجود له وتقديم النذور والقرابين واشتراكه فى صفات الله من قدرة وعلم وتصرف وأماتة وإحياء وإسقاط وإشقاء وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للنظم والحكومات وتحويل حق التشريع للإنسان وإن ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك، وإن الوثنية الأولى وعبادة غير الله قد فقدت أهميتها وإنما كانت لها الأهمية فى العصر القديم، فضلا عن أن هذه الوثنية والشرك الجلى لا يزال له شيوع وانتشار ودوله وصوله يجربه كل إنسان فى كل زمان ومكان فانها الغاية الأولى التى بعث لها الأنبياء وأنزلت الكتب السماوية.

(٤)

الشىء الذى أفقد الدعوة تأثيرها المطلوب وقيمتها التى جربها الدعاة منذ قرون هو مايعيشه المسلمون من تناقض، المسلمون الآن يعيشون فى تناقض: عملية هدم وعملية بناء، وعملية الهدم هى أقوى وأنشط، والقائمون بها أقوى وأنشط وهم يملكون من الوسائل مالا يملكه الدعاة المخلصون. عملية البناء بطيئة وغير مسلمة، وفيها جوانب كثيرة من النقص فما يبنيه الدعاة فى أيام وفى أسابيع يهدمه الهادمون فى ساعات وفى دقائق، كذلك فان عدم وجود الدعاة المخلصين القادرين على إعادة الإيمان فى نفوس الشباب وإعادة الثقة فى صلاحية الإسلام ليس للبقاء فقط وإنما جدارة السبق للزمن وجدارة القيادة: قيادة البشرية فقد فقد الشباب هذه الثقة فى الدعاة، وهناك ردة فكرية قد غزت المجتمعات الإسلامية وغزت الشباب بصفة خاصة.

المطلوب من الدعاة إعادة الإيمان إلى نفوس الشباب وإعادة الثقة بصلاحية الإسلام وبأن الإسلام هو دين الله الأخير الخالد الذى لا دين بعده.

وتقديم الإسلام يكون من خلال الظروف المحيطة والإمكانيات المتاحة (ومراعاة الظروف لازمة لابد منها) ولكن إذا كانت الظروف قاهرة بمعنى أنها تخنق الدعوة وتكمم الدعاة وتقف فى وجه كل داعية ، هنالك يصعب على أى داعية مخلص مهما كان به من الإخلاص والمقدرة أن يقوم بواجبه كاملا وإذا كانت قيادة العمل المتصدرة لم تستطع تقديم الأنموذج الكامل المتوازن للشباب المسلم فان المسئولية ليست على الدعاة فقط ، بل على البيئات كذلك ، إن الإسلام لم يسمح له فى أى بقعة من بقاع الأرض أن يظهر كوامنه (الطاقة المذخورة الكامنة فيه) لم يستطع الإسلام أن يظهر قدرته على حل القضايا الإنسانية وقدرته على تكوين بيئة جديدة وصيغة جديدة للحياة، لم تتح له الفرصة الكافية ولا الحرية الكافية ليبرز الإسلام محاسنه ويبرز ما عنده من طاقات مذخورة ومن صلاحيات كافية فى حين سمح لكل فلسفة ولكل نظام من النظم الحديثة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية ، سمح لهذا النظام أن يثبت براعته وقدرته على الحدوث .

(٢) إن الإسلام هو الدين الذى ليس مسئولا عن تأخر أتباعه ، والمسلمون هم المسئولون عن تخلفهم وحدهم لابتعادهم .

إن الرمى بكلمة التطرف تنشأ كرد فعل لما رمى به البعض بالجاهلية فهناك تطرف فى إطلاق هذه الكلمة على أناس عندهم تقصير فى العمل مثلا أو ليسوا على المستوى الكامل فى التطبيق .

(٣) إن أكبر عوامل النجاح فى مجال الدعوة الإسلامية هى (أولا) الإخلاص والتفانى فى الدعوة والتجود من الشهوات تجرداً عن إستغلال هذه الدعوة لمنافع شخصية (ثانياً) الإبتعاد عن إثارة المشكلات التى ليست بواقعية وليست بلازمة .

يجب على الداعى أن يحذر بقدر الإمكان عن إثارة المشكلات حوله وعن إثارة العداوات والإحن فالمسلم صاحب دعوة وهو ناصح مخلص وليس له غرض أبداً .

أفضل الوسائل التى يجب على الدعاة إلتزامها لنشر هذا الدين خلال الظروف الحاضرة :

أولها والأكثر تأثيراً : هو النموذج العملى (القدوة العملية) التربية بالقدوة التجرد من الشهوات ، من الأنانيات ، والإخلاص لله تبارك وتعالى والتوجه للفكر والدعوة .

(ثانياً) عرض الفكرة الإسلامية والمعالم الإسلامية والمنهج الإسلامى فى أسلوب عصرى شائق وموافق للمستوى العقلى الذى يعيشه الجيل الجديد، ولابد أن يكون الأسلوب أسلوبا عصريا إلى حد يتفق مع روح الإسلام خشية الخروج عن هذا الروح .

(ثالثاً) : التصويب والمناصحة بين دعاة الإسلام : فالسر فى بقاء الإسلام كدين سليم محفوظ من التحريف مهما أخل به أتباعه وقصروا فى تطبيقه ولكنه كدين فهو دين محفوظ ، هذا والسر فى بقاء هذا الدين على أصالته هو قيام علماء الدين فى كل عصر بنفض الغبار عنه وبالتنبيه على المغالطات التى تأتى من المنحرفين فالمطلوب دائماً تنبيه الفقهاء إلى أخطائهم ، وتنبيه الصوفية والزهاد والنساك إلى مغالطاتهم وتنبيه الحكام إلى تجاوزاتهم .

(٥)

إن الحضارة الغربية ليست حضارة إقليمية محلية ، وإنما حضارة إنسانية عامة ، هى حق مشاع تعيش فيها العلوم التطبيقية والتجريبية وما يزيدنا قوة على

قوة ، ولكن يجب أن نعامل هذه الحضارة كمواد خامة نصنع منها ما يطابق قامتنا وقيمنا . نأخذ الحضارة الغربية فنصهرها صهراً جديداً فى بوتقتنا ونبعد عنها عناصر المادية وعناصر اللادينية ، وعناصر الشهوانية . وعناصر الأنانية ونخضعها لأغراضنا ولمدنيتنا ولرسالتنا . هذا هو الاقتباس الكريم وهذا هو الذى فعله الصحابة رضى الله عنهم فى القليل الذى اقتبسوه من الحضارة الرومية ومن الحضارة الإيرانية .

إن عقلية المقلدين أشبه بعقلية الأطفال القاصرين .

هذا نوع من مواجهة الحضارة ينشأ عن مركب النقص الذى يصاب به إنسان ولكن إذا أصيبت أمة وهى فى أوج حضارتها وثروتها فهناك المصيبة ، كان من الممكن أن نأخذ من الغرب كل الأشياء التى اقتبسناها منها فنصبغها بصبغة إسلامية عربية ونتصرف فيما نقتبسه من الغرب بذكائنا وبذوقنا الرفيع وثقتنا بصلاحية هذا الدين وبما يحمله من حضارة ونطبعه بطابعنا الإسلامى الشرقى .

إذا جردت أمة من حضارتها الأصيلة وفرضت عليها حضارة أجنبية فهى إلى الزوال . إنها فى طريق الانسلاخ من شخصيتها لأن العبادات لها وقت محدد ومكان محدد ، والحضارة خيرها أوسع .

إن الأوربيين لما عرفوا أن المسلمين عندهم حساسية زائدة فيما يتصل بالدين استخدموا استراتيجية جديدة فعدلوا عن منعهم من دينهم وعقيدتهم إلى التأثير فى حضارتهم ، وقالوا : لا نثير هذا الأسد النائم ، ولا ننبه هذا الليث فيثور إذا مس دينه بإهانة . فاذا قبلوا هذه الحضارة فانهم ينتقلون بالتدريج إلى تفكير مثل تفكيرنا . إلى مثل مثل مثلنا . وإلى قيم مثل قيمنا . وقد نجحوا فى ذلك نجاحا لا يستهان به . بل إن الأوربيين ما كانوا يتصورون

أنهم ينجحون بهذه السهولة والسرعة ، وكثير من الأوربيين تعاف نفوسهم الحضارة الغربية البراقة المصطنعة ويسأمونها ويريدون أن يتسلوا بسماحتهم في المدنية الشرقية الإسلامية .

إن مركزنا ليس مركز الأطفال ولا مركز المقلدين . إن مركزنا مركز المجتهدين . مركز الأئمة والقادة . يجب أن نكون رواداً فنأخذ ما لا بد منه من الحضارة الغربية ولكن نصبغها بالصبغة الإسلامية الفاضلة الكريمة .

ليس شيء يحول بيننا وبين هذه العملية البنائية الاستقلالية التي يتجلى منها الذكاء ويتجلى منها الاعتزاز بالدين وبالرسالة التي تحملها والاعتداد بالشخصية الجماعية التي نتجمل بها .

الفصل السادس والعشرون

مجتمع إسلامي عصري

(دكتور حسن الترابي)

يجب علينا فى عصرنا وإزاء التحديات التى أحاطنا الله بها فى العصر : داخلية وخارجية، اقتصادية وسياسية ، تقنية وطبيعية ، أن نحاول التعبير بأشكال تقابل تلك التحديات ، والدراسات المناسبة فى العصر الحاضر لا يمكن أن تصدر إلا عن ثقافة متكاملة تلم بعلوم الشريعة ومعاييرها، وتلم كذلك بالواقع الذى نريد أن تنزل عليه هذه المعايير وتطابقها ، أو على الأقل بتكامل أهل الثقافتين ،وتستطيع أن تقول إن الكفاءات المتوافرة فى العالم الإسلامى التى تجمع بين الثقافتين وتتأهل بذلك لتعالج مشكلات تطبيق الشريعة فى المجتمع الحديث ، هى كفاءات نادرة ولكنا نجدها فى كل طائفة، وإن كانت محصورة ومحدودة من أصحاب الكفاءة والأمر يستدعى - فى رأيى - أن تتكامل الجهود بشكل مؤتمرات، بشكل معاهد ، بشكل صحف ومجلات متخصصة ، لكى تستطيع جمع مجهودات كل هذه العناصر العاملة المتخصصة فى الشريعة الإسلامية فى باكستان والخليج والسودان ومصر والأردن والشمال الإفريقى وفى أى بلد آخر ثم توجه تلك المجهودات لمعالجة المشكلة. بدأت محاولات فى الخليج ، والسودان ومصر وليبيا ، وكذلك بدأ بعض المؤسسات المالية وهى ضرورة إذ لا يكفى أن نجلس لننظر إلى المجتمع الإسلامى العصرى بل ينبغى أن نبدأ بتكوين مؤسسات تكون نماذج تجسد التعبير عن الشريعة الإسلامية كالمصارف الإسلامية. التى بدأت تنتشر فى السودان ودبى وباكستان ومصر والأردن والبحرين والكويت كما بدأت شركات التأمين الإسلامية العمل فى أكثر

من بلد ، هى المؤسسات ، هى التى يمكننا من خلالها توفير البديل :

نحن نعلم إن ثمة نهضة إسلامية انتظمت العالم الإسلامى وإن كانت متفاوتة فى الدرجات ، والأعلام الحديث يزكيها وينقل العدوى من بلد إلى آخر، لذا فإن المناطق التى تكبت فيها هذه الإرادة ، ولا تؤذن لها بالتعبير عن نفسها تعبيراً سلمياً لا مناص من تعاظم أقدارها المكبوتة فتنفجر .

واليقظة الإسلامية الأولى تعايشت مع الأديان تعايشاً سلمياً سمحاً .

واليقظة الثانية إن كانت واعية أدعى بالطبع إلى التعايش السلمى ، وهذا يقتضى ضمان الوعى ليقظتنا الدينية أى أن نرشدها بالدراسات الجدية والبحوث العلمية حتى نوجهها إلى الإستمساك بمعانى الدين لا بعصبية الذاتية الدينية ، لأن العصبية سواء أكانت على أساس من الدين أو على أساس من القبيل ليس لها إزاء الآخرين إلا العداء ، فى حين أن الإستمساك بمعانى الدين السمحاء لا يزيد الإنسان إلا وداً وتسامحاً مع المتدينين من الملل الأخرى .

إن تحرك المسلمين بمزيد من الوعى وبالعودة الى الأصالة الإسلامية يخلصهم من العصبية المذهبية ، وأنت لا تكاد اليوم تجد عصبية تذكر لمذهب من المذاهب أو لطريقة من الطرق الصوفية ، ذلك لأن المسلمين بدأوا يتحركون بوعى ، على أية حال لا ينبغى للدول الاسلامية أن تتجاهل حركة البعث الإسلامى الحديث لأننا نعلم أن تاريخ الإسلام ينطوى على تيارين :

تيار إصلاحى التزمه غالب الأمة يقوم على نشر التدين وبسط التربية الدينية ونصح الحكام والمجتمع ، والسير برفق لإصلاح العلل التى تطرأ على ذلك المجتمع ولكن التاريخ الإسلامى ينطوى على تيار آخر : تيار ينتهى إلى اليأس من انحراف المجتمع ويعده خروجاً على الدين ومروقاً منه وحتى لا تدفع الطاقة الإسلامية التى

تجيش مجتمعاتنا بها إلى أن نيأس من الإصلاح من خلال النظم القائمة فإن واجب الدول هو أن تعود من تلقاء نفسها قبل أن تدفع إلى ذلك دفعاً بضغط سياسى وأن تعود حركة العودة إلى الإسلام فتوفر لها وسائل البحث العلمى التى يمكن أن تنتهى إلى وضع المخططات الرشيدة التى تمثل نظم الإسلام فى مجتمع جديد وتوفر لها حرية التعبير المنتظم المشروع الذى يوجه طاقات الأمة ، إننا لا بد من أن نحفظ التوازن بين إبطال الباطل وإحقاق الحق والإصلاح الرشيد هو لا يسمح لفراغ ينشأ بين المرحلتين .

(٢) لقد جرب فينا لعهد طويل النظام الليبرالى بأحزابه المتعددة وبشعاراته المعروفة لكنه أخفق فى أن يحقق لنا الإستقلال والعزة السياسية المنشودة كما أخفق فى أن يحقق لنا النهضة الإقتصادية الناجزة والعادلة وانقلبنا على النظام الليبرالى بانقلاب وثورات فى كل مكان وكانت ردة فعل قذفت بنا إلى الجانب الآخر فتحولنا من الولاء للغرب إلى الإرتماء فى أحضان الشرق ، ولجأنا إلى النظم الاشتراكية القهرية نجربها فى واقعنا المسلم .

ولم تكن خيبتنا من تلك النظم أقل من خيبتنا فى النظم الليبرالية فهى لم تحقق لنا نهضة اقتصادية ولم تصدق شعارات الحرية والوحدة التى أطلقتها وكانت إسرائيل التى تشكل أعظم التحديات لنا فى العصر الماضى لوحة تجلنا عليها إخفاق النظم الليبرالية ثم إخفاق النظم الاشتراكية ، وكانت هذه التجارب المريرة التى خضناها عظة لنا بالغة جعلتنا نعود إلى أصالتنا وإلى مصادر الطاقة الدينية الكامنة فى أنفسنا فاليقظة الاسلامية الراهنة هى استجابتنا من بعد تخبط طويل لتحدى العلاقات الدولية المعاصرة ونحن بين يدى هذه اليقظة التى تتجلى مظاهرها فى كل مجال : فى مجالى الشباب أو الحركات السياسية أو السلوك والأخلاق أو المؤسسات بين طريقين إما أن نتجاهلها ونتغافل عنها أو أن نكبت هذه المظاهر ونحاول المضى على الطريق القديم أو أن نسمح للمشاعر الاسلامية بالتعبير عن نفسها وأن تتلمس بوعى وهدوء طريقها إلى التقدم .

إن حركة الاخوان هى حركة إصلاح اجتماعى شامل وإن الاخوان يتخذون الوسائل التربوية والسياسية لتحقيق أهدافهم ولم ييأسوا من المجتمع المسلم فيرموه بالكفر أو يجانبوه بالرغم من المحاولات القهرية العديدة التى أحيطوا بها إلا أن التاريخ الحديث لم يسجل عليهم محاولة واحدة للانقلاب سواء أكان ناجحاً أم غير ناجح ولكن حركة الاسلام ويقظتها اليوم أوسع من أن يحتويها تنظيم الاخوان المسلمين وتجد فى مظاهر هذه اليقظة الاسلامية اجتهادات شتى، فى حاجة إلى ترشيد يبعدها عن العنف .

(٣) لقد أدركنا الآن فشل هذه التجربة ، إن آفة الأفكار الدخيلة إن المتصف بها يستشعر غربة فى مجتمعه وإنك إذا أردت أن ترتب حاجات الناس فى مذهب كلى وأن تزنه بميزان من القيم فلا بد أن تمثل أفكار الناس وقيمهم ولا بد من أن تحرك معك السواد الأعظم من غير المثقفين ، من الجمهور ، وإلا أصبح سفسطة نظرية يروجها المثقفون فى نواديهم الممتازة المنعزلة. وما جرب المثقفون أن يطرحوا هذه البضاعة الجديدة على الناس إلا استبان لهم أن الناس يرفضونها هذه الكلمات التى أصبحت ذات اصطلاح مشاع بين المثقفين لا يدرك عامة الناس معناها بالضبط :

الديمقراطية ، الاشتراكية ، الانسانيه ، لا يدركها أحد ولا يتجاوب معها أحد

(٤) فى الاسلام توحيد بين تاريخنا وبين حاضرنا فلا يمكن لأمة أن تنقطع عن تاريخها جملة واحدة ، ولا ينبغى لأمة أن تجمد على تاريخها . فالدين يمكن أن يحررنا من ذلك التاريخ ولعلنا إن العبادة لله سبحانه والطاعة للأحكام الدينية الأزلية التى تتجرد من الزمان والمكان ، أما الناس فهم أفراد محدثون فى كل زمان ومكان يأخذون منها قبساً معيناً مرتبطاً بزمانهم ومكانهم .

فاذا انتهى ذلك الجيل أو القرن استخلفت الأرض قرناً آخر فاقتبس قبساً

جديداً ، فالدين إذن يحررنا من أن نجمد على التاريخ وفى نفس الوقت ينظمنا فى موكب متجدد مع تاريخيا وحده فى أصل الدين لا فى فروع الفهم ثم فى آخر الأمر. إن الدين يوحدنا فى العلاقات فهو يعترف بالكيان المحلى الذى هو شىء جزئى فى فطرة الإنسان فالأسرة والقبيلة والوطن أمراً لا يمكن إنكاره إنكاراً تاما ولا يمكن للإنسان أن يتجرد منه البتة، يمكن للدين أن يعترف لنا بكتابنا المحلى الوطنى ، لكل جماعة أو لكل قوم منا وفى ذات الوقت يربطنا رباطاً أمميا واسعاً ليس بذلك الإطار العربى العام بل يتجاوز ذلك إلى الإطار الاسلامى العام لأن الدين لا يرضى للإنسان أن يكون مثل الأشياء ومثل الحيوان تأسره الفطرة ولا يعيش إلا فى نوعه الخاص ،فإن له جانباً مربوطاً بالأزل فهو أرحب وأوسع

فى الاقتصاد تتجه النهضة الاقتصادية إلى الله سبحانه وتعالى لأنه كلما تكاثرت النعم على الناس كلما اشتد حمد الناس لله وشكرهم له ، فازدادت عبادتهم لله .

الفن موجه إلى الله فالقرآن ينبهنا إلى ما فى الطبيعة وحيواناتها من جمال سوى الفائدة المادية من المركب والمأكل والمشرب والسياسة موجهة إلى الله فالحياة كلها منظومة فى نسق واحد فى العقيدة ومرتبة بمنطق واحد فى الشريعة لا اختلاف فيها ولا تمايز .

(٥) إن الله قد حفظ هذا الدين ولن ينفك فيه حبل موصل يعلو وينخفض ولكن لا ينقطع أبداً ، يمكن أن نغفل حيناً من الدهر ويمكن أن ننحط بقدر ما يعدنا عن الأصول ولكن ما دامت هذه الأصول ثابتة فإن ذلك يضمن لنا الأوبة والنوبة بعد البعد والانحطاط .

نحن بين يدى دورة حضارة كاملة فى العالم الاسلامى إذا استطاع أن ينهض نهضة أصيلة فتؤسس نظاماً شوريا ليست فيه عصبية الأقليه أو ليس

فيه صراع الطبقات أو ليس فيه النظام الانتخابى الذى يجعل للأغنياء القادرين حظاً أوفر من السلطان ونظاماً عملياً لا يفصل بين العلوم الطبيعية والشرعية .

لقد وصلت الحضارة الغربية الآن إلى طريق مسدود وأثبتت إفلاسها الفكرى وفراغها الروحى ووقفنا حائرين فى الغرب مع حيرته ، وما لم نبحث عن الخلاص فى قرآننا بمنظار واقعى يأخذ فى الاعتبار المثل كل التى وجدت فى مسار البشرية الطويل فإننا سنجد أنفسنا عاجزين مرة أخرى ننتظر الغرب الضائع ليأخذ طريقاً جديداً ومن ثم نتبعه فى تيه جديد .

الفصل السابع والعشرون

المسرح الإسلامى

عبد الرحمن البنا

كان من وسائل الإخوان المسلمين لنشر دعوتهم ، الدعوة عن طريق المسرح ذلك لأننا كنا نغشى المساجد وتجمعات الخير فلا نجد فيها إلا الخيرين بطبعهم والشيوخ وكبار السن ، وكنا نتفقد الشباب فلا نجدهم فى هذه الأماكن . لأن دعوة الالحاد قد جرفتهم ، والمسارح إحتوتهم . والمفاتن استهوتهم . فكان لابد أن تصل الدعوة إليهم حاملة رسالة الطهر . راسمة طريق الخير. مبينة سبل النجاة وكان لابد من إعداد ، وساق الله تعالى إلىّ تجربة مبكرة فى ظل محنة أصابت مصر على يدى فرقة تمثيل إنجليزية قامت بتمثيل مسرحية على مسرح دار الأوبرا وتناولت ذكر النبي ﷺ بما ينقص من قدره العظيم ، وقرأت ذلك فى مجلة (الصباح) الأسبوعية التى كان يصدرها الأستاذ مصطفى القشاشى بالعدد ٢٨٩ السنة العاشرة بتاريخ ٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٠ هـ الموافق ٨ ابريل سنة ١٩٣٢ م فأثارنى ذلك وانفعلت به ودعوت الله تعالى أن يوفقنى لكتابة مسرحية أدفع بها هذه الفرية ،وتمثل على نفس المسرح مدحاً وإشادة بمقام النبي الكريم .

وعلم الله صدق النية وحسن القصد فوفقنى لكتابة مسرحية (جميل بثينة) نظمتها شعراً وطبعتها فى كتاب ومثلتها جمعية التمثيل العربى فى تونس وصفاقس والقيروان قبل أن تمثل فى مصر . واستدعانى وزير المعارف العمومية (محمد باشا العشماوى) إلى الوزارة فوجدت على مكتبه نسخة من الرواية وأخبرنى أن الوزارة قررت لاخراجها مبلغاً من إعانة التمثيل لسنة ١٩٣٤ كما قررت تمثيلها على

مسرح (الهمبرا) بشارع عماد الدين وكان ينتظر أن يسرني هذا الخبر ولكنه لم يجد من ذلك شيئاً فسألني عن السبب فأجبته لقد كتبت هذه المسرحية لتمثل على مسرح دار الأوبرا فأجابني إن مسرح (الهمبرا) تمثل عليه الآن مسرحية (هرناني) ومعظم مسرحيات شكسبير وإن دار الأوبرا مغلقة في الصيف وفتحها يقتضي إجراءات كثيرة لتهويتها صـــيفاً واستدعاء مديرها وموظفيها وهذا أمر بالغ التكاليف . قلت إني متنازل عن أي جائزة مالية ولينفق ذلك على فتح دار الأوبرا لتمثيل الرواية وفتحت دار الأوبرا يومي ٢،١ يونية سنة ١٩٣٤ وأخرجها الأستاذ زكي طليمات ومثلتها السيدة عزيزة أمير وفرقة إتحاد الممثلين وعلى رأسهم الأساتذة جورج أبيض وأحمد علام وعباس فارس وعبد العزيز خليل وحسن البارودي وفتوح نشاطي ومحمود المليجي وإبراهيم الجزار وعبد العزيز أحمد وفاخر فاخر وغيرهم وغيرهن من أبطال وبطلات التمثيل .

وعهد إليّ فضيلة الإمام حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين أن أجعل المسرح الإسلامي من وسائل الدعوة وقال : أترك ذلك لإيمانك ودينك .

وأبى علي إيماني وديني أن أجعل العنصر النسائي مشاركا في هذه التجربة وفي ذلك ما فيه من الخلط الذي لا يليق بدعوة علا بفضل الله ذكرها وطبق الخافقين .

والتفت إلى تدعيم فريق التمثيل للإخوان بشعبة الجمالية بسيدنا الحسين رضي الله عنه وإلى كتابة المسرحية الخاصة بالإخوان المسلمين .

والتحق معظم الفريق بمعهد التمثيل وتفوق وتخرج فيه وكتبت مسرحية الحصار في الشعب والهجرة وغزوة بدر وبدأنا تمثيلها على مسرح جمعية الشبان المسلمين وكان يقوم على مسرحها الإسلامي الأستاذ الكبير محمد عثمان على رأس فرقة جمعية الشبان المسلمين وكنا نتعاون في كل شئون المسرح الإسلامي

وتربطنا صداقة قوية وأخوة صادقة يزينها خلقه الفاضل ويدعمها فنه الأصيل .

وبدأ المسرح الإسلامى كضرورة لازمة للدفاع عن الوطن الإسلامى وغذاء ضرورى للبد العربى ولغة متبادلة بين شعوب المسلمين على إمتداد رقعتها واتساع شعوبها وظهر الكيد الصهيونى وبدت بوادره على أرض فلسطين فأخذت فى كتابة مسرحية صلاح الدين الأيوبى وكان سباقاً بين نشوب المعارك وإتمام كتابة المسرحية وحدد لتمثيلها وإذاعتها على مسرح دار الأوبرا يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٤٨ وطلبت تقديم عرضها بدار الأوبرا مع إذاعتها إلى يوم الجمعة ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ وهو اليوم الذى حدد لزحف الجيوش العربية والإسلامية لتعمل عملها مع قصف المدافع وأزيز الطائرات لادراك الغاية ورفع الراية وإصابة الأهداف وكان بعض أعضاء فريق التمثيل ضمن المقاتلين فى ميدان الحرب منهم الأساتذة إبراهيم الشامى وفطين عبد الحميد وإبراهيم القرش وكان المفروض أن يخرج المسرحية الأستاذ زكى طليمات ولما كنت لم أنته من كتابة فصلها الأخير فقد قام بإخراجها الدكتور إبراهيم سكر من أعضاء الفريق وخريجى معهد التمثيل وتأزمت الأمور وعظمت الشدائد وبعد أن صرحت وزارة الشئون الاجتماعية بإذاعة المسرحية ونشر ذلك فى مجلة الإذاعة ضمن برامجها وقف الأستاذ سليمان نجيب مدير دار الأوبرا يطالب بعدم إذاعتها فقد تطيح إذاعتها بمنصبه وتمسكت بحقى وحق الفريق فى إذاعتها وحسم الأمر فضيلة الامام حسن البنا المرشد العام وأقنعنى بالموافقة على عدم الاذاعة فكتبت على صفحات البرنامج الذى يحمل أسماء الممثلين (المسرحية التى هابت الحكومة قوتها فمنعت إذاعتها) .

أدعو الله تعالى أن يتقبل هذا الجهاد خالصاً لوجهه كما تقبل إخلاص صلاح الدين حينما قالوا له : لقد استدعوا يامولاى ملوكهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب ملك فرنسا وفريدريك بارباروسا امبراطور ألمانيا فيجيب : ولقد استدعيت ملائكة ربى وشهداء دينى . جبريل على ثناياه والنقع ، ومحمد على

راياته النصر ، وجعفر يطير فى الجنة بجناحين مضرجة قوادمه بالدماء .

ومسرحية المعز لدين الله الفاطمى التى تؤرخ قدوم جوهر الصقلى وبناء الجامع الأزهر وقدوم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ومآثره وآثاره وما ورد من احتيال بالأزهر الشريف ومن صحن الجامع الأزهر انبعثت صيحة مدوية ، تقر فى الأسماع دعوة الحق، وتثبت فى الأذهان وحدة الشرق،حتى تنثال الجموع من كل حدب ، وتفد الوفود من كل صوب ، فاذا الآمال قد تجمعت فى محراب وإذا القلوب قد تآخت على كتاب .

وسمعت بمسرحنا ومسرحياتنا المطربة ملك وكان لها مسرحها الخاص فطلبت إلى أن أكتب لها (أوبريت غنائية) فكتبت لها مسرحية (سعدى) لتمثلها بالعنصر النسائى بعيداً عن فرقتنا وإن اشترك معها بعض أعضاء فريقنا وعلى رأسهم الأستاذ الكبير عبد البديع العربى وتسامع الناس بما يجرى على مسرح أوبرا ملك وقالوا إن الأزهر قد نقل بعض قداسته إلى مسرحها وحضر بعض الوزراء والمستشارون وجاء الأستاذ فتوح نشاطى يقول كان أولى أن تعطى هذه المسرحية لفرقتنا القومية .

وكانت مقصورة الأديب الكبير محمود بك تيمور إلى جوارى فكان حين يتعالى التصفيق يقول إنه للحوار واللغة وليس فقط للغناء والتمثيل

وجاءت السيدة فاطمة رشدى وهى من تعرف مكانتها فى التمثيل ونحن نقوم (ببروفات) مسرحية غزوة بدر فاعتذرنا لها بأن المسرحية خالية من العنصر النسائى ويمكن أن تشترك فى فريقنا عند عرض جميل بثينة على شروطنا وعلى المرأة إذا ظهرت فى مسرحنا ألا تبدو إلا فى سمت وقور فى ثياب لاتجزىء جسدها ولاتظهر غير وجهها وكفيها ولا تنطق إلا بما يمليه النص من حكمة وفصل خطاب .

ومسرحية بنت الأخشيد التى طبعت وأخرجها الاستاذ سعد أردش لاذاعة الجزائر فى ١٥ حلقة تشيد بمجد العروبة ومفاخر الاسلام .

وجاء دور إعادة تمثيل مسرحية جميل بثينة التى تشترك فيها الآنسة أمينة رزق ويخرجها الاستاذ سراج منير وكانت تجرى (بروفاتها) على مسرح حديقة الأزبكية إعداداً لتمثيلها على مسرح دار الأوبرا وثارت ثائرة بعض الاخوان من أصحاب اللحى (وكنت وقتها بغير لحية قبل حجى سنة ١٩٤٨) وقالوا أحدث عبد الرحمن الساعاتى حدثاً وذكر الإمام حسن البنا ما قاله لى يوم إنشاء الفريق أترك ذلك لإيمانك ودينك فأخذ هذا النفر من الإخوان الكرام وجلس معهم فى أحد مقاصير المسرح يسمعون (البروفات) يسمعون أمينة رزق تقول:

فتباً لقلب لم ير الله فوقه ... ولم يخش بطش البارىء الرحمن
ولم يستمع صوت الضمير منادياً ... تجنب سبيل الغى والخسران
ففى أى عصر أسرفت بنت يعرب ... تساوم عرضاً بالمتاع الفانى
لقد وصفوها بالمجون وقاحة ... وجاءوا بقول الزور والشنآن
ألم تر قول الإفك فى زوج أحمد ... وليس لها فيما يقال يدان
فرد إله العرش أقوال إفكهم ... وبرأها بالوحى والقرآن
فلو كنت ترقى للسماء بسلم ... وأضحى قريباً فالبعيد الشانى
سأسمو بطهرى فى الورى ونزاهتى ... وأعلو مع العقبان بالطيران

وعاد الإخوة الكرام إلى طبيعتهم وغلبت طيبتهم غضبهم وكذلك تأدبنا ونشأنا والحمد لله رب العالمين.

وأذكر أننى قبل طبع (جميل بثينة) وتقديمها ذهبت مع الاخ الكريم الاستاذ محمد حلمى نور الدين إلى منزل الممثل الكبير حسين رياض وكانت تربطه بالاستاذ حلمى نور الدين صلة

قرابة فأسمعته المسرحية فطرب لها واختال وأضاف فى مشورته بعض اللمسات وحين سألته هل تصلح للتمثيل؟ قال بلهجته الفصيحة البليغة (يا أستاذ هذه المسرحية تمثل وتحدث ضجة وتزيد على مسرحية مجنون ليلى إنها جمعت إلى سحر البادية فخامة قصور أمراء المسلمين فى قصر الأمير عبد العزيز بن مروان الذى لجأ إليه فى مصر جميل حينما طارده أهل بثينة).

كذلك بوركت هذه المسرحية بلمسات الأخ الصديق الشاعر والعالم الكبير الدكتور محمد رجب البيومى.

وطبعت المسرحية بعد ذلك ووزعت بعض نسخها على المكتبات ومنها مكتبة الوفد بشارع الفلكى بباب اللوق وكنت أتردد على المكتبة كل حين شأن المؤلفين الناشئين فإذا ببطاقة تحمل إسماً كريماً (عمر سرى ١٠ شارع الطلمبات جاردن سيتى) أخذ نسخة الرواية وترك بطاقته ورجا أن يرانى.

ولقيت الرجل فإذا العلم والفضل وحسن الظن والإكرام والتكريم حتى أجلسنى على مكتبه فى مكتبته المليئة بالكتب فى مختلف العلوم وعلى بعض رفوفها مسرحيات أمير الشعراء أحمد شوقى وأيضاً جميل بثينة، أبدى إعجابه واستعداده لكل مساعدة وقال إنك ترفعنا فى شعرك إلى آفاق عالية وتترفق بنا عند النزول متدرجا ولكن شوقى بك يرفعنا حتى نقارب السماء ثم يهوى بنا فى مثل قوله:

هس همى هيا كلى من ترمسى

فأجبته أين أنا من منزلة شوقى فى الشعر ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه

ولما ذكر النقاد بعد عرض المسرحية المقارنة بين مجنون ليلى وجميل بثينة وقالوا إن شوقى بك تفوق شعراً والساعاتى تفوق فى الحبكة والعنصر الدرامى فقد جعل شوقى ليلى تخاطب والدها أن يستدعى ورداً وقد خطبها بقولها:

أبى فابعث الآن فادعه   وجئنا بقاضى نجد اليوم يكتب

أما الساعاتي فقد جعلها مسحوقة بالتقاليد مظلومة تبث شكاتها :

أنا التي قتلوها جئت تسألني	أمنية لجميل كنت أبغيها
أنا التي سلبوا منها مشيئتها	في غير حق ولا دين يزكيها
أنا التي أثقلوا بالظلم كاهلها	أنا البضاعة والسفاك شاريها
أنا التي زوجوني غير راضية	وحملوني أثقالا أعانيها
أنا القتيلة من عادات أقدمهم	تبت: فقد هذب الإسلام جافيها

حين نشرت الصحف هذه المقارنة سامني ذلك فأمير الشعراء شوقي قمة لا تداني.

وخلاصة القول أنني ألفت ثماني مسرحيات جميل بثينة (شعرية) ، المعز لدين الله الفاطمي ، صلاح الدين الأيوبي ، الهجرة ، غزوة بدر ، حصار في الشعب ، سعدى ، بنت الاخشيد طبعت كلها وطبع بعضها عدة طبعات عدا مسرحية سعدى فقد اختص بها مسرح أوبرا ملك ومثلت كلها على أكبر مسرحين في القاهرة دار الأوبرا ومسرح حديقة الأزبكية وأذاعت معظمها محطة الإذاعة وكان نجاحها بفضل الله عظيماً ، فقاعة المسرح مكتظة بالجماهير والمقاصير (البناوير والألواج) تزهى بزعماء الإسلام وسفراء الدول الإسلامية فممن شاهد مسرحية المعز لدين الله الفاطمي بمسرح دار الأوبرا يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٩٤٦ معالي تحسين (باشا) العسكري سفير العراق بمصر آنذاك وسماحة السيد محمد صادق المجددي سفير افغانستان في ذلك الوقت وكان ممن شهد مسرحية الهجرة الزعيم المجاهد الأمير عبد الكريم الخطابي ومعالي صالح حرب (باشا) .

وظل المسرح الإسلامي على مدى أربعة عشر عاماً من سنة ١٩٣٤ يزهو ويزدهر ثم توقف رغم توفر أسباب نجاحه فالممثلون الذين بدأوه صغاراً كبروا وتفوقوا وأصبحوا ممثلين في القمة أمثال الأساتذة عبد المنعم ابراهيم ومحمد السبع

والدكتور إبراهيم سكر وعبد المنعم مدبولى وابراهيم الشامى وحسين جمعة وعبد البديع العربى وعبدالرحمن بدوى ومحروس عبدالوهاب ونظير عبد الجابر واحمد راضى وغيرهم ينهض بهم مسرح إسلامى مزدهر فى الوقت الذى تتجه فيه الدولة إلى إصدار التشريعات الإسلامية بعد أن نص دستورها على أن الشريعة الاسلامية هى مصدر التشريع ويمكن لوزارة الاوقاف وروافدها الاسلامية كالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية ولدول الاسلام التى تعنى بالمسرح الاسلامى كالكويت والجزائر والمغرب وتونس والعراق والأردن وغيرها أن تتعاون لايجاد المسرح الاسلامى الذى يربطها روحياً وثقافياً وليس أقوى على ربطها ووحدتها من المسرحية الاسلامية التى تكتب شعراً إذا كان أبطالها شعراء كجميل بثينة وعنترة وقيس لبنى فتكون هناك المطابقة ويجد الشعر مجاله ويؤدى رسالته على أن يكون شعراً فصيحاً مقفى. أما المسرحية التى تروى التاريخ وتدفع إلى الجهاد فتكتب نثراً حيث يعين النثر على إتقان الصنعة وإحكام الحبكة وتكون آيات الجهاد ونصوص القرآن الكريم نجوماً تلتمع فى الحوار وشهباً تنقض على رؤوس الأعداء المناوئين وليس أقوى على الربط بين الشعوب الاسلامية ووحدتها من المسرحية الاسلامية تصاغ باللغة العربية الفصحى السلسة المطواعة فتفهم على طول الرقعة العربية والاسلامية الممتدة من حدود الأندلس إلى الصين وتكون لغة موحدة للآمال والمقاصد العالية التى تعمل لها هذه الأمم جميعاً. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

عبد الرحمن البنا

الفصل الثامن والعشرون

الانطلاق من الأصالة

عمر بهاء الأميري

الأمة الإسلامية تشق طريقها عبر جهاد قاسى وهى تعيش مرحلة استرجاع الذات، الطريق طويل ولكن نصر الله آت. نلمس فى حياة هذا الجيل إلحاحا على كسر الموازين فى كل شيء ، الخط الحضارى يتحول نحو الصيغة التى جاء بها الإسلام، إن انحراف شباب اليوم وراءه تخطيط هدام ينبع من التحرك الصهيونى لتحطيم البشر ، الأمة الإسلامية تشق طريقها بين مد وجزر ماضية إلى الأمام عبر جهاد قاسى وهى فى أعماقها الوجدانية واثقة من النصر فى المآل ، سيطول الطريق ولكن نصر الله آت، وعروة الله وثقى .

إذا كانت الأمة الإسلامية فى جهادها وجلادها ليست على مستوى الأعباء والإعداد فالأدب الإسلامى مطوق من ناحيتين : من ناحية الأجواء المسعفة لانتشاره وازدهاره ، وأخذه مقامه الذى يستحقه لأن جمهوره فى مشغلة عنه أو تقاصر فى إفاقة فى كثير من الأحيان أما التطويق الثانى فعدم معاشاة بعض الانتاج الأدبى لروح العصر ولا أقصد روح العصر القوية وإنما روح العصر السوية التى يدعو الإسلام إلى الأخذ بها بوصفه رسالة إنسانية رائدة هادية للبشرية جمعاء .

إن ظاهرة معارضة الموازين والأعراف الإجتماعية والسلوك الإنسانى فى هذه ظاهرة خطيرة يمكن أن تسمى ردة إنسانية وهى أكبر وأخطر من أن تكون مجرد رد فعل وتعبير عن رفض بعض جوانب الحضارة المادية التى لا تلائم الإنسان

كانسان فإن هذا وارد ولا شك ولكنى أعتقد أن هناك قبل ذلك دفعة تخطيطاً هدا،ا ينبع من عقيدة الاستعلاء اليهودى والتحرك الصهيونى الرامى إلى إضعاف كل البشر لتهيئة الأجواء لسيادة اليهود للعالم ، وأنا واثق من أن الدائرة ستدور فى المآل على الباغين وإن الخط الانسانى يتحول رويداً رويداً ولكن فى قدر كبير من المكابدة والشقاء نحو الربانية السوية التى جاء الاسلام بشريعته المحمدية .

إن الأسس الأمهات فى الاسلام وعلومه راسخة مستقرة لأن التصورات الحضارية والفكرية للإسلام تصورات ربانية تنبثق من الكينونة الالهية المنزهة عن التبديل والتناقض ، ولكن هناك دائماً مجالات للازدهار والتفتح فى العلوم الاسلامية :

أولا : من حيث صياغتها لأساليب العصر وصيغ الحياة المتجددة

ثانياً : من حيث بيان التوافق المتزايد أكثر فأكثر بين قواعد ومسلمات الاسلام وبين ما تتوصل إليه العلوم والكشوف المختلفة .

ولما كان كل شىء فى الاسلام يقصد به وجه الله عز وجل وعلا فلا يوجد علم لعلم وبطولة لمجرد البطولة فيبقى المجال مفتوحا للعلماء المسلمين فى شتى الاختصاصات لعرض العلوم التى تخصصوا بها من زاوية الاسلام وبما يحقق رسالته فى الانسانية ، تعميراً بعيداً عن أى تدمير ، وجمالا وكمالا بعيداً عن أى ضلال أو وبال .

العلوم التجريبية غير مستقرة وقد أظهرت لنا كشوف العلماء وبحوثهم فى أواخر هذا القرن معطيات بدلت ما كان يعتبر من القواعد والمسلمات فى أول القرن والعقل الانسانى يترقب دائماً تطوراً أثر تطور فى هذا المضمار ، لأن التصورات المادية تتبع لأحوال البشر الذين لا يستقرون على حال واحد فى المسيرة الانسانية الطويلة فهى تصدر عن صيرورة بشرية .

وفى اعتقادى أن دورة ما سينتهى إليه الإنسان فى آخر تألقاته وهو التطابق مع الأسس والمسلمات التى جاءت بها الأديان السماوية الصادقة ، وجاء محمد ﷺ بالإسلام القمة مصدقاً لما بين يديه .

خلال بحوثى الحضارية وتدريسى فى جامعتى القرويين ومحمد الخامس بالمغرب لاحظت أكثر من قبل تزايد الاهتمام الإنسانى بالحضارة ، وكل ما يتفرع منها ويتعلق بها ، وهديت بفضل الله إلى جانب غير مسبوق فيما أعتقد من البحوث الحضارية دعوته (الفقه الحضارى) ودرسته لطلابى .

عناصر هذا الفقه الحضارى الأساسية هى :

الاستيعاب الحضارى ، النظر الحضارى ، الإدراك الحضارى ، السلوك الحضارى .

(٢)

إذا نظرنا بتعمق وتجرد إلى وضع أمتنا الإسلامية فى هذا العالم الصاخب المتجبر نجدها تبدأ الصحوة بعد الغفوة ، وتلمس لانبعاثها الإسلامى ألف دليل ودليل ، رغم الخطر الكثير من المؤامرات والعراقيل ، التى أهمها تسليط بعض الأمة الاسلامية على بعض ، وجعل بأسها بينها ، فى فتن وحروب تؤجج الثارات وتستهلك الطاقات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

على أننا ندرك رغم كل شىء أن الزمن يتقدم بالاسلام وأمته إلى الأمام بين مد وجزر ، يذهب الجزر كالزبد جفاء ويبقى من المد ما يمكث فى الأرض وينفع الناس .

وإننا لنرى رواسب تسلط أعدائنا علينا فتاكة البقايا ، خبيثة الجراثيم ، ولا سيما فى مجالات السياسة والاعلام والتعليم ، فلا بد من مواجهة هذا الواقع الأليم بحكمة ماضية وبعزم أبى مقدام حر ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

سلوكنا بعد الاستيعاب والنظر والادراك يتحتم أن يتوجه فى معركة استرجاع الذات إلى الثقة بالله والثقة بالنفس واليقين المبين بأن النجاة لا تأتى اعتباطاً وأملا ودعاء ، لأن أقدار الله مرتبطة بنواميسه فلا بد من عظيم العمل لتحقيق عظيم الآمل .

حضارتنا ربانية نفحها الاســـلام من خصائصه النفذة بمزايا البقاء والنماء والارتقاء . إنها كون كامل مستمر الزمان ممدود المكان سوى الانسان ، ولذا كانت فعاليتها فى حياة أمتها بل والانسانية جمعاء أكبر من أن يجحدها جاحد أو يخنقها طاغوت ، فلا بد أن نستنطقها اليوم تجارب الأمس لتستنبط مناهج الغد فى ضوء المعادلة النبوية الهادية الخالدة : « رحم الله امرءاً عرف زمانه واستقامت طريقته » .

إن علماء الاجتماع والنفس والتاريخ والحضارات يجمعون على أن الانطلاق من الأصالة هو الشرط الأول للنجاح والنجاة فى معركة استرجاع الذات .

يقول « فون كرونباوم » : « إن حركة إحياء دين فى بيئة ثقافية تكون عاملا منشطاً فعالا فى إعادة تنظيم أنموذج الحياة كله لتلك الجماعة ، وتكون أكبر أثراً من الاتصال بمدنيات أخرى مهما كانت الأفضلية الحقيقية أو المتخيلة لها ، ومهما كان الحرص على التكيف بها » .

وكلام « فون كرونباوم » مطلق ، فكيف إذا كان الدين دين الله الذى يعلم من خلق ، وما يصلحه ويصلح به ، وهو اللطيف الخبير ؟

على أن هـذا لا يعنى بالنسبة للإسلام وحضارته بخاصة أن نكف أيدينا عن المعطيات الخيرة للحضارات الأخرى ، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها وكان أولى بها .

إن فى ديننا وأمته وحضارته من الجدارات والقدرات والطاقات ما ليس فى سواه ، وهو وحده القادر على أن يمد العالم بالنظام الجديد الذى يتطلع إليه

لإنقاذ البشرية ، ولكننا لن نستطيع أن نستّرد وجودنا فى ذاتنا ونستأنف رسالتنا الرائدة فى العالمين إلا بالإسلام الواعى المترجم إلى خطى حركية عقلية تقيمنا فى مقامنا الأصيل الحق « خير أمة أخرجت للناس » . وتلبى بنا كل الأشواق والأذواق السوية ، متكيفة مع ظروف الإنسان فى كل زمان ومكان .

فهل لنا أن نتلاقى جهودنا لنستبين الحق أم لا ، ولنمضى فى سبيله على منهج واع ثانياً ، وبالحكمة والصبر والحزم والعز ثالثاً ، لا نكتفى بإطلاق الشعارات ولا بالنقد الهادم ، ولا بالسعى الفردى ؟

إننا ننادى بالانبعاث والاتحاد والتعاون .. ولا نسير إلى ذلك على صراط مستقيم ! . فرقنا أمتنا دولا وأحزاباً وشيعاً وحظرنا على المسلم السليم أن يمارس حياته المعطاء فى دار الإسلام الواحدة ، وأقمنا حول خطاه المخلصة العديد من الأغلال والقيود !

لقد خرج محمد بن بطوطة من طنجة بانتمائه إلى الإسلام فقط ، وسافر إلى الهند ، فعينه سلطانها محمد شاه قاضياً فى العاصمة دلهى ، ثم ترحل بجنسيته الإسلامية وحدها حتى جزر المالديف بالمحيط الهندى ، وتولى القضاء أيضاً ، وزار جميع دول وأقطار وجزر الوطن الإسلامى فى القارات الثلاث ، وقضى أكثر من خمسين عاماً متجولا أو مقيماً أو متزوجاً أو قاضياً ، دون أن يمنعه أى قانون محلى أو أن يحجزه حاجز إدارى أو أن يحدد إقامته ويعوق حركته أى تدبير سياسى . . . فأين نحن من ذلك اليوم ؟ لقد تضمنت قرارات مؤتمر القمة الإسلامى الثالث فى مكة المكرمة والطائف حثاً للدول الأعضاء على « تدعيم التضامن الإسلامى بينها على قاعدة تعاليم الاسلام فى مناصرة قضايا الحرية والمساواة والتقدم والسلام » . وهذه إشارة مشكورة وهى جهد المقل-

ولكن السؤال : هل ازداد التضامن الاسلامى منذ المؤتمر حتى الآن أم ما نزال نمضى فى متاهات التنافر والتهاتر ؟

إن أمتنا مدعوة أولا إلى إيجاد شكل جامع ما ، يعيد لها وحدتها التى هى من صميم خلقتها ومن حتميات وجودها ورسالتها ، على أساس إسلامى - إسلامى ، لا قومى ولا عنصرى ، ولا رأسمالى ولا اشتراكى ، وهى مدعوة بعد ذلك وخلاله إلى بذل كل معطياتها الايجابية والحضارية والحركية للإنسانية جمعاء لانقاذها من تخريب الأنظمة العالمية الراهنة التى تسوق البشرية إلى الشقاء والفناء .

وإننا لعلى ثقة وطيدة بأن سير الزمن يقود إلى هذا ، طال الزمن أم قصر ، وإن السعيد السعيد ، بل والعاقل العاقل ، هو الذى يضع نفسه من ربه ودينه وأمته وبلده والانسانية جمعاء فى هذا الاتجاه السديد الرشيد ، بكل قناعة وطاعة وعلم وعزم ، وثقة وإخلاص ، مهما كانت العوائق ، ومهما ادلهمت المخاطر .

إن البشرية اليوم تخوض معركة تحول الخط الحضارى للإنسانية جمعاء : من السامرية اليهودية التى تحرك الحضارية المادية الصناعية ، إلى الربانية الاسلامية ، وأن الساحة الحساسة للمعركة هى فلسطين ، ولذلك فإننا نعتقد أن قضية فلسطين فى الواقع أكبر من أرضها ، وزمانها ، وسكانها . . . إنها قضية إنسانية فى مداها الواسع ، إسلامية فى قدسيتها ومسؤوليتها ، وعربية أخيراً فى جغرافيتها واستراتيجيتها ، ويجب أن تكون فى سائر انتماءاتها وساحاتها ومواجهاتها : إيمانية حضارية ، لا بد لها من صبر عنيد ، وسعى مديد :

بيعة الجهاد شقت من القد
س إلى الخلد دربها الوعر شقا

قد يطول الطريق ! لكن نصر الإله

آت . وعـروة الله وثقـى

* * *

لا بد أن يحرر الايمان فلسطين .

ولا بد أن تستعيد العروبة مقومها المسلوب : « نوراً فى الاسلام وعزاً » . (فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون . . .) .

ولا بد أن تستعيد الأمة الاسلامية جدارتها وصدارتها ، وأن تمارس هدايتها وريادتها فى الوجود الانسانى . لا بد للإسلام أن يتصدى لأزمة الحضارة الانسانية المعاصرة . وأن ينقذ العالم من مهاوى الشقاء والبلاء التى تنذر بالفنـاء .

(إن هذا لهو حق اليقين . ولتعلمن نبأه بعد حين ...)

الفصل التاسع والعشرون

مهمة المرأة المسلمة

السيدة زينب الغزالي

مهمة المرأة المسلمة خطيرة جداً لأنها هي التي تربي الرجال في طفولتهم وتؤثر فيهم وتستطيع أن توجههم توجيهاً سليماً ، فلو أن المرأة صححت فكرها وتخلصت من ظلمة الغزو الفكري لاستطعنا أن نخلص الرجال من هذه الظلمات التي انغمسوا فيها . إن على الرجل مسئولية ولكن على المرأة المسئولية الكبرى.

المرأة في الإسلام ليس لها أي حق في أن تنادي بما يسمى « قضية » لأن الإسلام عندما جاء لم يفرق بين الرجل والمرأة إلا في مقتضيات الخلقة والوظيفة:

(يا أيها الذين آمنوا) و (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات)

فالإسلام عندما يقرر أنه لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى فلماذا تنادي المرأة المسلمة بحقوق تقلد فيها المرأة التي عاشت مضطهدة والرجل متغطرس بها بينما ضمن لها الإسلام كل حقوقها مما لم تنله امرأة في أي نظام آخر قبل الإسلام وبعده . الإسلام منح المرأة حق العمل كما منحه للرجل ، غير أن العمل خارج البيت الأصل فيه والأساس الرجل ، والعمل في البيت الأصل فيه والأساس للمرأة .

ولكن إذا رأت المرأة أن الضرورة تحتم عليها الخروج من البيت لإعالة نفسها مثلا فالإسلام لم يمنعها عن أن تستر جسدها فهي لا تتكسب بجسدها ولا بصدرها العاري ولا تفكر بذراعيها المكشوفتين أو بجمال ظهرها العاري حتى

الوسط . فالأمومة أغلى على الله (تبارك وتعالى) من تسكع النساء على المكاتب لأن هذا العمل الذى على المكتب يستطيع الرجل أن يتقنه ولكن الرجل لايستطيع إرضاع الطفل أو رعايته كأمه . الرجل وظيفته أن يعمل ويأتى بالمال أما المرأة فوظيفتها خطيرة جداً وهى (بناء الرجال) .

ولكن ليس معنى هذا أن الإسلام حرم على المرأة أن تكون طبيبة أو مهندسة أو باحثة ، وإنما الزوج والولد والأسرة هم أولا من أجل وجود البشرية المرأة الآن بعدما استدرجت إلى الجحيم الحضارى أصبحت عاجزة عن الولادة فهى لاتستطيع أن تضع طفلا إلا بعملية قيصرية . قبل ذلك لم يكن هذا موجوداً إلا بنسبة خمسة فى المليون .

الأمومة اليوم تنتهى وتضمر فى المرأة معانى الأنوثة والمعانى المطلوبة فى الحياة الزوجية .

لا يعارض الإسلام خروج المرأة للعمل إذا كانت هى فى حاجة إليه أوكان المجتمع محتاجا إليه ضمن الحدود المشروعة . أما إذا لم تكن هى فى حاجة إليه فالأمة فى حاجة إليها وإلى أمومتها والأصل فى رسالة المرأة : الأسرة والطفل والزوج . أما العمل فهو استثناء .

أمتنا الاسلامية اليوم بحاجة إلى أم تربى الرجال ليحملوا مسئولية القيادة بعد ذلك على النهج الاسلامى .

إذا قامت الدولة الاسلامية على أساس الإسلام فستجعل للمرأة زياإسلاميا يخضع لحكم الاسلام ، وهو أن يكون بدن المرأة عورة إلا الوجه والكفين ولا يمكن لأى وظيفة إسلامية أن تبيح أو تصرح للمرأة أن تخرج عارية الساقين أو الذراعين أو مكشوفة الصدر ومحددة الجسم .

رداء المرأة المسلمة سايغ لا يشف ولا يصف . والباكستان فى طائراته

ومضيفاته يرتدون زيا يستر كل معالم جسدهن . إن أى وظيفة تلم حياة المرأة وتخرجها من كرامتها أو تعرضها لغير مايسمح به الإسـلام يجب أن تمتنع عنها المرأة المسلمة ،

فالإسلام لايبيح أن تكون المرأة معرضاً لترويج البضائع والبيع فى المحلات وركوب الطائرات ـ المرأة أعظم من ذلك إذ هى صاحبة مركز عظيم وكبير وخطير.

إن الإسلام لم يحرم على المرأة إبداء رأيها . فالرسول أخذ برأيها واستشارها وأخذ برأى زوجته أم سلمة فى حادثة الحديبية ، وكان الرسول يستشير النساء فى بعض الشئون فالمرأة تزاول نشاطها بحرية تامة فى حدود ما أعطاها الله من إمكانيات .

وإذا كانت المرأة المسلمة قد منعت من أن تكون خليفة . فالإسلام كلفها أن تربى من يمكن أن يكون الخليفة . ليست الأمة الإسلامية فى حاجة إلى نائبات وليس معنى ذلك عدم إعطاء الإسلام للمرأة لحقوقها ، أو عدم موافقته على اشتغالها بالسياسة . الأم عليها ألاتغفل عن الواجب المقدس المنوط بها وهو تربية الولد الذى يتحمل مسئولية العمل لصالح الأمة الاسلامية .

إن العالم الآن يعيش شقاءاً واسعاً لأنه غير مرتبط بالله سبحانه وتعالى ، حتى المسلمين أصبحوا مضطربين فى ارتباطهم بالله (تبارك وتعالى) فمنهم من يعتقد أن الفكر الاسلامى والاعتقاد بالشريعة الاسلامية لا يكلفهم إلا أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت ، وهذا أمر غير صحيح فالعبادات ماهى إلا باب من أبواب الاسلام والسياسة والامارة باب من الأبواب والاجتماع والمزارعة والمتاجرة والقتال كلها أبواب ذلك لأن الاسلام منهج حياة متكامل فاذا صححنا فكر العالم العربى وأقناه فى الطريق المستقيم على أن الاسلام دين ودولة إستطعنا أن نخرج الإنسان إلى عالم متسع بالفكر الإسلامى الذى يسع الوجود كله .

إن بلاد الإسلام كلها واقعة فى جريمة الفصل بين الدين والدولة لأن الإسلام لا يمكن أن يعيش وهو مفصول عن قوانينه : معاملاته وحدوده وعقوده .

الإسلام ليس فقط قادراً على مواكبة كل تطورات العصر الحديث ، بل كل العصور التى ستأتى حتى يوم الدين ، والإسلام يحقق حاجة البشرية ليوم إنتهاء العالم ، ويستوعب كل ماأوجب العصر . أنظروا فى قوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل)

أنظروا كيف ترك كلمة (قوة) مفتوحة حتى عندما تأتى الذرة وشبكات الصواريخ النووية والقنبلة الذرية لا نقول أننا لا نملكها وذلك حتى نمتلك الصواريخ النووية والشبكة النووية الموجهة وحتى نفجر الذرة لأننا مكلفون (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) لإرهاب أعداء الله وهذا يتطلب وحدة العالم الإسلامى وتوحيد قدراته فلا نجد بلداً متخمة وأخرى فقيرة فمسئولية المسلمين فى العالم الإسلامى واحدة .

يجب على المسلمين فى كافة بقاع الأرض المسلمة أن يقروا بأن التعليم الإسلامى هو علم أساسى فى جميع مراحل التعليم . لأن هذا هو المخرج لشبابنا من الغزو الفكرى . فدراسة الإسلام فى جميع مراحل التعليم أمر واجب حتمى لتقدم الإنسان المسلم لابد أن يدرس الإسلام كسلوك وعقيدة من الروضة إلى الجامعة .

الفصل الثلاثون

فى مواجهة حرب الكلمه

(أنور الجندى)

بدأت أواجه الخطر فى السابعة عشرة عندما ترجم الدكتور عبد الهادى أبو ريده كتاب وجهة الإسلام الذى ألفه المستشرقون الخمسة (هاملتون جب) وزملائه عام ١٩٣٤ حين لخصه الدكتور محمد حسين هيكل فى السياسة الأسبوعية وأنا غض الإرهاب أتطلع إلى فهم حركة الفكر الإسلامى فهز نفسى هزاً أن وجدت هؤلاء الجماعة يكشفون للمرة الأولى عن هدف مبيت ضد الشرق والإسلام هو تغريب هذه الأمة، وقد قالوا إنهم إنما يريدون أن يعرفوا إلى أى حد وصلوا فى عملية التغريب وما هى الخطط التى تمكنهم من إتمام هذه المؤامرة الخطيره وقد أخذوا يدرسون العالم الاسلامى من أندونيسيا ، إلى الهند ، إلى البلاد العربية من العراق إلى المغرب ، هزنى هذا السر الخطير الذى تفجر مره أخرى بين يدى شاب يخطو خطواته الأولى فى مجال الأدب والكتابة والصحافة ، وقد ظل السؤال معلقاً فى نفسى عشر سنوات كاملة حتى لقيت الرجل الذى أجابنى ودلنى على الطريق لمواجهة هذا المخطط، كانت رسالة صغيرة ألفها الأستاذ الإمام حسن البنا تحت عنوان (بين الأمس واليوم) أعتقد أنها هى مفتاح هذا العمل كله الذى وجهت إليه نفسى منذ ذلك اليوم إلى اليوم : أربعون عاماً كاملة .

إنها مؤامرة استيعاب نحن المسلمين فى إطار الغرب واحتوائنا فى دائرته ، فالغرب يريد أن يبسط نفوذه وسلطانه ليتمكن من السيطرة الدائمة على هذه المنطقة التى وصفها نابليون بأنها (القارة الوسطى) هذه التى تبدأ من المغرب

وتنتهى فى أندونيسيا ، وهى متكاملة فاهلها لا يحتاجون إلى شيء من خارجها ، البترول فى ناحية والأرض الطيبة فى ناحية والمنجنيز فى ناحية ، والخبرات هنا وهناك وبدأ الاستعمار التجربة الأولى فى الحروب الصليبية التى امتدت قرنين كاملين ورغم ذلك فلم يتمكن الغرب من فرض سيطرته على بلاد المسلمين ، لأن الاسلام كان قويا وكان المسلمون يؤمنون بالجهاد فى سبيل الله ، ولكن عندما جاء لويس فى الحملة السابعة ، كانت الحملة ضد مصر وهزم وأسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، فقد درس التجربة أثناء فترة الأسر وقبل أن يفتدى نفسه بالمال ووصل إلى اقتناع كامل بفشل تجربة الحرب العسكرية وإنه لا بد من إعلان حرب جديدة هى (حرب الكلمة) التى تستهدف تفريغ نفوذ المسلمين من الايمان بالجهاد والمقاومة والدفاع عن الذات .

لقد وصل لويس إلى أربع نقاط تكون أساساً للحرب الجديدة وهى :

(١) أن تسبق الجيوش التبشيرية الجيوش العسكريه وذلك لزعزعة العقيدة الاسلامية.

(٢) الاعتماد على أقليات الشرق فى احتلال البلاد الاسلامية .

(٣) إقامة دولة أجنبية فى قلب المنطقة العربية وهى قديماً الدول الصليبية والآن الدولة الاسرائيلية .

(٤) ضرب الاسلام من الداخل وذلك بضرب المسلمين بعضهم ببعض .

هذه هى النقاط الأربع التى وضعها لويس التاسع والتى أصبحت تحكم علاقة الغرب بالشرق ، وفى حرب الكلمة ، بدأوا بما يسمونه (الاستشراق) وقد بدأ المستشرقون يقرأون القرآن ويترجموه ويدرسون الأحاديث النبوية والتاريخ الاسلامى فى محاولة لإيجاد ما يمكن إثارة الشبهات من خلاله ، وقد ظهرت من هذا المنطق دعوات البهائية والقاديانية تدعوا إلى إنكار الجهاد فى سبيل الله وتعتبره جهاد النفس فقط كان هذا فى مجال النقطة الأولى التى أعدها لويس ، وفى سبيل

تحقيق النقطة الثانية واقصد بها خلق دولة أجنبية فى قلب المنطقة العربية فقد ألف المؤرخ البريطانى (جيبون) كتابه (سقوط الإمبراطورية الرومانية) وحذر بريطانيا أن تقع نفس تجربة الإمبراطورية الرومانية ، وكانت بريطانيا فى ذلك الوقت الدولة التى لا تغيب عنها الشمس ، فاستمع رئيس الوزراء (بنرمان) إلى هذه النصيحة .

وجمع خمسين مؤرخا وطلب منهم دراسة هذا الموضوع وكان رأيهم أن الحضارة الغربية تنهار وأن الوارث لهذه الحضارة هو المجتمع الذى يعيش بين آسيا وأفريقيا وهو المجتمع العربى الإسلامى وكان البحث حول العوامل التى تمكن الغرب من تأخر هذه النكبة وكانت الإجابة : « إيجاد حاجز بشرى من جنس آخر فى المنطقة الفاصلة بين آسيا وأفريقيا » وجاء اليهود وقالوا : نحن هذا الحاجز .

كان هدفهم بهذا الحاجز تأخير النهضة الإسلامية وليس القضاء عليها فالنهضة الإسلامية لن تموت . وكانت خطتهم هى القضاء على الذاتية الإسلامية .

وتكفلت حركة التغريب بهذه المهمة : وكيف استطاعت القوى الغربية أن تعزل هذه الأمة عن منهجها الأصيل . فالإسلام كما أذاعوا دين عبادة يعنى أن المساجد مفتوحة أما عند الحديث عن الإقتصاد فيقال هذا شىء عالمى لا علاقة له بالإسلام وعندما وقعنا تحت سيطرة الإستعمار حطم إقتصادنا الإسلامى وفرض علينا النظام الربوى . وحطم التعليم الإسلامى وأقام بدلا منه المنهج الغربى العلمانى وحطم النظام السياسى : وأقام بدلا منه النظام الليبرالى ، نحن لم تقدم لنا هذه المناهج لنختار منها ، ولكنها فرضت علينا فرضا وحجبت شخصيتنا الإسلامية.

فى مصر مثلا كان (كرومر) قد بقى فيها خمس وعشرون سنة ، والتجربة فى العالم الاسلامى تبدأ من مصر ، كرومر هذا قال : لن أخرج من مصر إلا بعد أن أكون جيلا مغربا ، وكانوا يسمونه (متفرنجا) يقبل بنا ويعمل لنا ، عقل أجنبى ويد مصرية ، وظل كرومر حتى كون هذا الجيل وكان التعليم هو الخنجر

المسموم الذى طعن به المسلمون ، والصحافة هى الخنجر الآخر ، وقد بدأ إستخدام خنجر التعليم عندما جاءت الارساليات التبشيرية إلى لبنان بدأت تنشىء نظامين من التعليم : نظام فرنسى ونظام أمريكى . نظام تابع للكاثوليكية ونظام تابع للبروتستانتية ، وبدأوا يدعون أولاد المسلمين فى المنطقة كلها لدخول الجامعات والمدارس ومنهم بدأت القيادات فى العالم الإسلامى كله ، وقد نقلت هذه المناهج التى وضعها المبشرون فى هذه المدارس بعد ذلك إلى المدارس الوطنية فى مصر وفى سوريا وفى العراق وفى المغرب، كان هناك دنلوب فى المغرب وكان هناك دنلوب آخر فى العراق وهكذا تمضى التجربة متكاملة .

هذا التعليم هو الذى بدأ فى إعداد التغريب والغزو الفكرى الذى جاء بديلا لعملية الغزو السياسى فهى حرب : الإستشراق هو المصنع ومجموعة المستشرقين جيب وماسنتون ، كلها أسماء بدأت فى أحضان الكنيسة وكانوا يبحثون عن الشبهات . يأتون بالنص فيأخذون بالنص فيأخذون نصفه لأنه ينفعهم ويتركون الباقى ، والمستشرق دائما يبدأ برأى مسبق حتى يهدم فكرة معينة . فيبحث عن النصوص التى تحقق هذه الفكرة، والكتب الإسلامية مليئة بالمتناقضات لأنها كتبت فى عصور مختلفة والخير فيها قليل جداً والكثير كتب فى عهود الباطنية والشعوبيين والفلاسفة، والتبشير مرتبط بالتعليم فهو المكان الذى يبيع ما يصنعه المستشرقون وقد بدأ المستشرقون بالبحث فى الفكر الوثنى القديم ، سواء الفكر الغنوصى الشرقى أو الفكر الهندى أو الفارسى المجوسى بالاضافة إلى الفكر اليونانى وبدأوا يجمعون هذه الأشياء ويعيدونها مرة أخرى ، يأخذون الشبهات من كتاب العقد الفريد ويتركون ردوده التى دحضها بها . يأتى مثلا ماسنيون فيعيش أربعين سنة ليجمع تراث الحلاج حتى يطرحوه مرة أخرى بما يهدم مفهوم التوحيد الخالص عند المسلمين - يأتون بعمر الخيام مثلا - رجل له عدة قصائد إسلامية وفى مدح الله تبارك وتعالى فينسبون إليه الشعر الوثنى الخاص بالخمر والموجود فى الأدب الفارسى قبل الإسلام . يأتى (فيتز جيرالد) المستشرق الانجليزى فيجمع هذه

القصائد كلها ويطبعها وينسبها إلى عمر الخيام ، وكلهم يعرفون أن عمر الخيام كان عالما فلكيا ضخما ولكنهم وضعوه فى خانة تحسين الخمر وجمعوا لها كل أعلام الشعر ليترجموه إلى العربية : : والصافى النجفى ، الزهادى ، أحمد ،

(٢)

يعيش الغرب بالنسبة للاسلام مؤامرة إسمها (مؤامرة الصمت) ذلك أننا نحن الذين قدمنا لهم المنهج التجريبى الذى بنى الحضارة الحديثة وكانوا من قبل موغلون فى الرهبانية ، ومنهج اليونان التأملى الذى لم يعرف الاستقراء. فالاستقراء هو عمل المسلمين . نحن الذين أنشأنا هذا المنهج من القرآن الكريم (قل هاتوا برهانكم) البرهان مبدأ التجربة والعالم كله كان يعيش قبل الإسلام على مفهوم نظرى ولكن الإسلام هو الذى نقل البشرية إلى المنهج التجريبى والعلم والحضارة . الرجل الأبيض يستعلى وينكر فضل المسلمين ويدعى أنه هو صانع الحضارة .

إن موقفنا من الرجل الأبيض هو نفس موقفنا من المسيحية واليهودية موقف كريم . لايهاجم ولايدمر ولا يحطم ، ونحن لانستعمل نفس الأساليب التى يستعملونها . إنما نحن نكشف بوضوح لبنى قومنا ولأهلنا عن حقيقة الأمور ، عن تاريخنا ومنهجنا فى الحياة . نحن أنشأنا حضارة كبرى ولنا تراث وعندما نعرف حقيقة أنفسنا يزول الوهم الموجود فى بعض النفوس بعظمة الرجل الأبيض ، والغريب ان المناهج الدراسية فى المدارس على طول العالم الإسلامى وعرضه لا تدرس بطولاتنا ولكنها تدرس نابليون وبسمارك . الطبيب عندنا فى كلية الطب هل تعرف أن عبد الكريم الزهراوى كان يجرى الجراحات فى المخ منذ سبعمائة سنة . لانعرف ولكن نظن أن جراحات المخ جديدة صنعها الغربيون . البنج كان إسمه المرقد عرفه المسلمون وكان يستعملونه .

هل يعرف الطبيب الشاب المسلم أن أجداده هم الذين وضعوا علم الطب الحديث ووصلوا فيه إلى هذا الحد . إلى سنوات قليلة كان كتاب الشفاء لابن سينا لا يزال يدرس فى جامعات أوربا . هل يعرف أبناتنا فى كليات التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية أن ابن خلدون هو الذى وضع هذا المنهج مثلا . هل يعرف أبناتنا فى الفلك وفى الجغرافيا أن ٨٠ فى المائة من أسماء النجوم لا تزال عربية فى قواميس الغربيين ، وأن العرب هم الذين سموها هذه الأسماء . هل يعرف أبناؤنا أن أحمد بن ماجه هو الذى وضع أساس علم البحار وهو من أبناء الخليج .

كل هذا موجود وكل هذا من عملنا نحن ولكن أبناتنا لا يعرفونه فلماذا يرتفع شأن الرجل الأبيض فى نظر أبناتنا .

(٣)

نحن منبهرون بالغرب . هذه قضية حقيقية ، ولكن كيف بدأت . المؤكد أنها بدأت من التعليم والصحافة . التعليم هو الذى حجب أمجادنا وأظهر لنا أسماء الغرب العلوم كلها مناهجها بدأت إسلامية وأبناتنا لا يعرفون شيئاً عن الطابق الأول الذى قامت عليه بناء الحضارة وقد ظهرت أصوات الآن كجارودى وغيره يعترف لنا بهذا الفضل ، غير أننا بصفة عامة موضوعين كتلاميذ للفكر الغربى فى هذه المجالات فلابد من تصحيح ذلك . وهذه الخطوة هى المنطلق الوحيد لكسر عملية الإنبهار بالغرب وكسر التصور بأن الرجل الغربى أو الرجل الأبيض هو صانع الحضارة. مطلوب أن يقدم لنا التعليم (مقدمات المناهج) لماذا لا تقدم الدراسات الجامعية والمدرسية أصول العلوم الحديثة والدور الذى قام به المسلمون والعرب ونحن نعترف بأن الغرب أخذ منا أموراً بسيطة وزاد فيها وعليها لكنه أخذ الفكر وترك العقائد . أى أنه لم يأخذ منهجنا كاملا . إنما أخذ العلوم وحركها فى داخل دائرته : الدائرة الغربية التى تقوم على ثلاثة عناصر :

الفكر اليونانى الوثنى والقانون الرومانى والمسيحية الغربية وليست المسيحية المنزلة ولذلك اتجهت الحضارة الغربية إتجاهاً آخر أفلو أخذت بمفهوم الإسلام لاستمرت على الطريق الصحيح ولكن الحضارة الغربية كما يقول جارودى فقدت البعد الإلهى وهذا هو سر انحرافها الآن، لابد أن نكشف لأبنائنا هاتين الحقيقتين: حقيقة أن لنا دوراً أساسياً فى هذه العلوم التى تدرس الآن فى الجامعات ،والثانى هو أن الغرب عندما أخذ حضارتنا أخذ العلوم وترك الثقافات .

المسألة الثالثة :أنه فى كل قضية يقال الفكر الغربى قال كذا والفكر الماركسى قال كذا ولكن أين الفكر الإسلامى ،ألسنا بلاد المسلمين ، لماذا تثار فى بلادنا المناهج والمفاهيم الغربية والماركسية وتختفى الوجهة الأصلية : يجب على الأقل إن لم يكن الفكر الإسلامى هو السائد المسيطر فى هذه المرحلة ، أن يكون له صوت بجوار الأصوات ولابد أن يكون الفكر الإسلامى هو الأصل ، فالفكر الغربى فكر مادى والفكر الماركسى فكر اقتصادى ومنكر لله تبارك وتعالى ، أما الفكر الإسلامى ففكر متكامل ربانى الوجهة واسع الأفق ، مرن الأطر ، قادر على الجمع بين الروح والمادة فلابد أن تكون نظرته أصدق وأمتن وأعمق.

نريد أن نربى الثقة فى شبابنا بالإيمان بهذه الأمة وبقيم هذه الأمة وبعظمة تاريخ هذه الأمة.إنهم يستهدفون تاريخنا وعقائدنا وتراثنا لنظل هكذا خاضعين للمثل الأعلى الغربية .

الغزو الفكرى عندما بدأ اصطنع أناسا من بنى جلدتنا ويتسمون بأسمائنا ليقوموا بهذا الدور وأخطر ما فى ذلك عملية الابتعاث التى تسافر إلى الغرب ، هذه البعثات محكمة الحلقات إلا ماعصم الله،مثل أساتذتنا الكبار الذين سافروا وكانوا على خلفية إسلامية قوية فلم يستطيع الغرب أن يغربهم (عبدالعزيز جاويش ويحيى الدرويرى ومالك بن نبى) ولكن عندما يكون أبنائنا فى حالة ضعف

إسلامى ويذهبون إلى الغرب، هناك يسهل التغرير بهم تحت اسم التقدم ومعطيات البريق، والأمانى الواسعة، ومن ثم يصنعون جيلا مغربا فى داخل بلادنا، هذه العملية تحتاج إلى وقفة ويجب أن يكشف عنها بصراحة وقوة لأن الاستشراق اليوم اختفى، وراء هؤلاء، أن بنى جلدتنا اليوم هم الذين يحاربوننا ولكنا نحن نعرف أنهم غلمان المستشرقون وتلاميذهم والمخطط أكبر منهم وهم أدوات فيه، هذا يدعونا إلى أن نتيقظ إلى ما يراد بنا ونواجه ذلك.

لقد بدأنا نستيقظ ونعرف المؤامرة المحيطة بنا وربما كل ما تقوله الآن لم تكن الأجيال التى سبقتنا فى الثلاثينات تعرف عنه شيئاً فمثلا بعد قيام إسرائيل ظهرت حقائق كثيرة مخبأة، وأصبح مسموحاً بالحديث عنها، مخططات بروتوكولات صهيون مثلا أول من كتب عنها بعد هزيمتنا فى فلسطين ولكن البروتوكولات وضعت ١٩٢٠ كان هناك تكتم شديد حتى لا يعرف العرب والمسلمون عنها شيئاً إلا بعد أن انتهت الغزوة الصهيونية إلى احتلال فلسطين، لقد اتضحت حقائق كثيرة وعرف المسلمون الآن من أين يضربون وهذه مقدمة للمرحلة التى نتطلع إليها لأننا نمر الآن بمرحلة إعداد المنهج الإسلامى وتقنين الشريعة الإسلامية بحيث تصبح لها صفة القانون بعد أن كانت مادة عامة فى الكتب الاسلامية.

الفصل الحادى والثلاثون

طلائع الشباب المسلم

(الدكتور عمر فروخ)

إن الأمل الوحيد فى عصرنا هذا يتبدى فى أن جماعات من المسلمين الشباب قد بدأت تشعر أن الإسلام منهج عمل وليس أشكالا وكلاما، فى الإسلام أشياء هى أصول العقيدة والعبادة والأخلاق، وتلك أشياء مطلقة ثابتة لا جدال فيها ولا تبديل لها ولكن المعاملات أمور إجتماعية يمكن أن تتطور تطوراً لا يناقض العقيدة أو التعبد أو المسلك الخلقى فى الأمة، أفضل أن يوحد المسلمون سلوكهم فى لبس القفطان وركوب الطائرة ومعرفة الهندسة ، الأحزاب فى البلاد الإسلامية مستوردة وأن المسلمين فى الأصل كلهم حزب واحد ولاؤهم للإسلام وحده .

إن العالم الغربى يتغلب علينا بموقف لهديني وسياسى واقتصادى وهو يستعين علينا بخطة قائمة على ثلاث قوائم :

(١) علم فنى (تكنولوجيا) و (٢) تنظيم و (٣) توحيد لوسائله (رغم كل أوجه الخلاف الناشئة بين دوله) ونحن لانستطيع أن نقاوم خصومنا إذا كانوا متعلمين ثم كنا على غير علم ، ثم لا نستطيع مقاومتهم إذا كنا متفرقين وهم متفاهمين .

(٢) إن الأمم لاتنقرض (أي لا يختفي أفرادها ولا يزالون عن وجه الأرض) ولكن الأمم تنقرض إذا فقدت حضارتها وذابت في غيرها ، ثم إن الأمم تنقرض بمعنى آخر حينما تنحط في سلم الحياة وتتخلى عن خصائصها وتفقد حضارتها الروحية فتصبح كتلا بشرية لا حظ لها في الحياة الإنسانية ، إلا أنها تقلد البشر الذين هم أقوى منها وكلما انحط البشر في سلم الحضارة أصبحوا أقدر على التقليد حتى يضعفوا ضعفاً شديداً ويصبحوا غير قادرين إلا على تقليد الآخرين ، نحن لا نقلد الغرب في الأعمال النافعة ولكن في الأعمال التافهة والمضرة من عاداته، إن الأمم تخالف الأفراد في أشياء منها أن الأمم لا تموت فجأة ولكن علامات الموت قد تظهر عليها في عنفوان شبابها ، كان العرب قادة موكب الحضارة يوم كانوا يأخذون بأسباب الحضارة ويعطون الأمم الأخرى من أسباب الحضارة ، أما اليوم فإنهم يأخذون ولا يعطون ثم إنهم لا يعرفون كيف يأخذون ولا كيف يعطون ، إنهم يأخذون التافه مما عند الغرب بالثمن الباهظ بعد أن باعوا الغالي بالثمن البخس .

(٣) عم الإسلام العالم المعروف في آسيا وأفريقيا وبعض أوربا دينا ولغة ودولة وحضارة خلال قرن واحد. إن الإمبراطورية الرومانية نشأت في مدى عشرة قرون ثم سقطت أثناء عدد قليل من السنين ثم نسيت لغتها وانقرض دينها وضاعت حضارتها ، أما الإسلام فقد ذهبت دولته السياسية ولكن الإسلام بقي ديناً ولغة وحضارة إلى اليوم ، برغم كل مقاومة قامت في وجهه ، وكان العالم العربي إذا ذكر الإسلام والطلاق يحمل على الإسلام من أجل الطلاق حملات منكرة ولكن نظام الطلاق في الإسلام نظام عاقل صالح (مع أنه أكره الحلال إلى الله) ولقد ساد نظام الطلاق في العالم الغربي حتى وصل إلى إيطالية ، إلى روما التي هي كرسي البابوية وصاحبة الرأي الذي لا يلين في تحريم الطلاق .

(٤) إذا درسنا خصائص البروتستانتية من رفض السلطة البابوية وإلغاء الرهبنة وإقرار الطلاق بالإضافة إلى التخلى عن الرموز كالصور والصلبان وعن الثياب الخاصة بالأساقفة والقسس مما كان معروفاً فى الديانات الوثنية والمجوسية واليهودية والنصرانية وبما جاء الإسلام لإبطاله لم نشك لحظة فى أن هذه الوجوه من الاصلاح قد جاءت من الإسلام وإلا فمن أين يجب أن تكون قد أتت ثم إن النصرانية ما زالت تعادى الإسلام قروناً كثيرة لأسباب مختلفة وتتهم الإسلام بالقسوة من أجل الطلاق عادت تلك النصرانية نفسها فى جميع أقطارها وفى روما حاضرة الفاتيكان نفسها إلى إجازة الطلاق .

ولم تكن الحركة البروتستانتية هى الحركة الإصلاحية الوحيدة فى النصرانية وفى اليهودية فالإسلام هو الذى حث المصلحين النصارى واليهود على العمل فى دياناتهم بالرجوع إلى العقل. كيف يقبل اليهودى العاقل ماجاء فى التوراة الموجودة بأيدى الناس عن أن الرب الإله صنع لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسها .

(٥) إن العرب لم يصلوا عن طريق (القومية) إلى الأمل الذى أرادوا تحقيقه كما أنهم كانوا مخطئين فى جميع ميادين حياتهم السياسية والاجتماعية لما تركوا الإسلام الذى نهض بهم من قبل ثم تبدلوا به نظريات قومية أو سياسية انحدرت بهم إلى حيث هم الآن، ومن العرب من يقول أنه يسير سيراً قومياً عربياً ولكن فى الحقيقة يجرى جريا أجنبياً أممياً ، إنه يعتقد أن السير فى جانب نافع وفى الجانب الآخر ضار ، إن الجانبين سواء يختلفان فى التسمية ثم يتفقان فى المبدأ والمنتهى.

إن كثيراً مما نسميه قوميات كانت من غايته تقسيم البلاد العثمانية بين الدول الغربية وإذا كانت الدعوة إلى قومية عربية دعوة صحيحة غايتها كما قيل توحيد

البلاد العربية واستقلالها فلماذا نجد البلاد العربية اليوم أكثر من عشرين دولة قل أن نجد دولتين منها على وفاق .

(٦) المشكلة الحادة فى تاريخنا الحاضر أننا كنا أغنياء فأخذنا قشور الحداثة الأجنبية ، لم نأخذ العلم ولم نأخذ الصناعة ولم نأخذ الطريق إلى القوة ، ولم نأخذ تطور آلة الحرب بل أخذنا الرسم المشوه والشعر المشوه ،ونحن ندعى أننا أعداء قوم نحاربهم ، بل ننقل الشعر المشوه الذى اخترعوه لإفساد أذواقنا وإبطال عبقريتنا (وقد مارسه نفر منهم ومن أنصارهم وأعدائنا خداعا لنا)وننقل الكتب السياسية التى وضعوها هزواً بنا وتضليلا لنا وتأتى إلى بلادنا وبيوتنا بالأقلام المفسدة التى يروجونها لنا لا لهم وبعدئذ نتشدق ونقول :الياء غير الصاد وننسى قول الشاعر : ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

كل أمة فى حاجة إلى أن تأخذ من كل أمة أخرى ، وإذا كانت تلك الأمة الأخرى أكثر رضا وأقوم مسلكا فى الحياة وفى الأدب الأجنبى جوانب كثيرة تستحق الاهتمام والأدب ليس الشعر فقط ، ثم إن القصص الأخلاق من الأدب ومعالجة القضايا الفكرية من الأدب ولكن نفراً من الذين يكتبون عندنا أحد رجلين، إما رجل جاهل عاجز يريد أن يقلد الناس فهو عاجز عن تقليدهم إلا فيما هو يسير سهل لاقيمة له، وإما هو رجل فقد القلب استأجره جماعة من الناس ليفسد أخلاقنا وليشتت عزائمنا كان يسير فى ركاب الحاكم الأول ثم هو اليوم يركع - أكرر يركع - ليس على سبيل المجاز بل على الحقيقة على أقدام الحاكم الثانى ولا شك أنه سيسجد على تراث الحاكم الثالث ، وأثر أمثال هذا الرجل على الجهال فعلى المخلصين منا إذا هم أرادوا خيراً لهذه الأمة أن ينشروا التعليم الصحيح .

(٧) الأدب العربى لم يتأثر بالأدبين اليونانى واللاتينى، ولا بالأدب الهندى لأن هذه الآداب وثنية والإسلام دين توحيد خالص ، حاول نفر من العرب غير المسلمين أن يجروا أسلوب التوراة والإنجيل إلى الأدب العربى فظهر الفرق شاسعاً والنتاج نازلا عن التعبير فى القرآن الكريم وترجم سليمان البستانى الإلياذة هوميروس ولكن هذا العمل عمل ضائع ليس فيه من عبقرية الشعر شىء ، أنا أشبه سليمان البستانى برجل حمل على كتفه صخرة عظيمة ثم صعد بها إلى أعلى المئذنة وبعد ذلك عاد وتلك الصخرة على كتفه .

الفهرس

آفاق البحث

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

حسن البنا ٢٢١
عبد القادر عودة ٢٢٧

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٩٠٢ / ٨٤